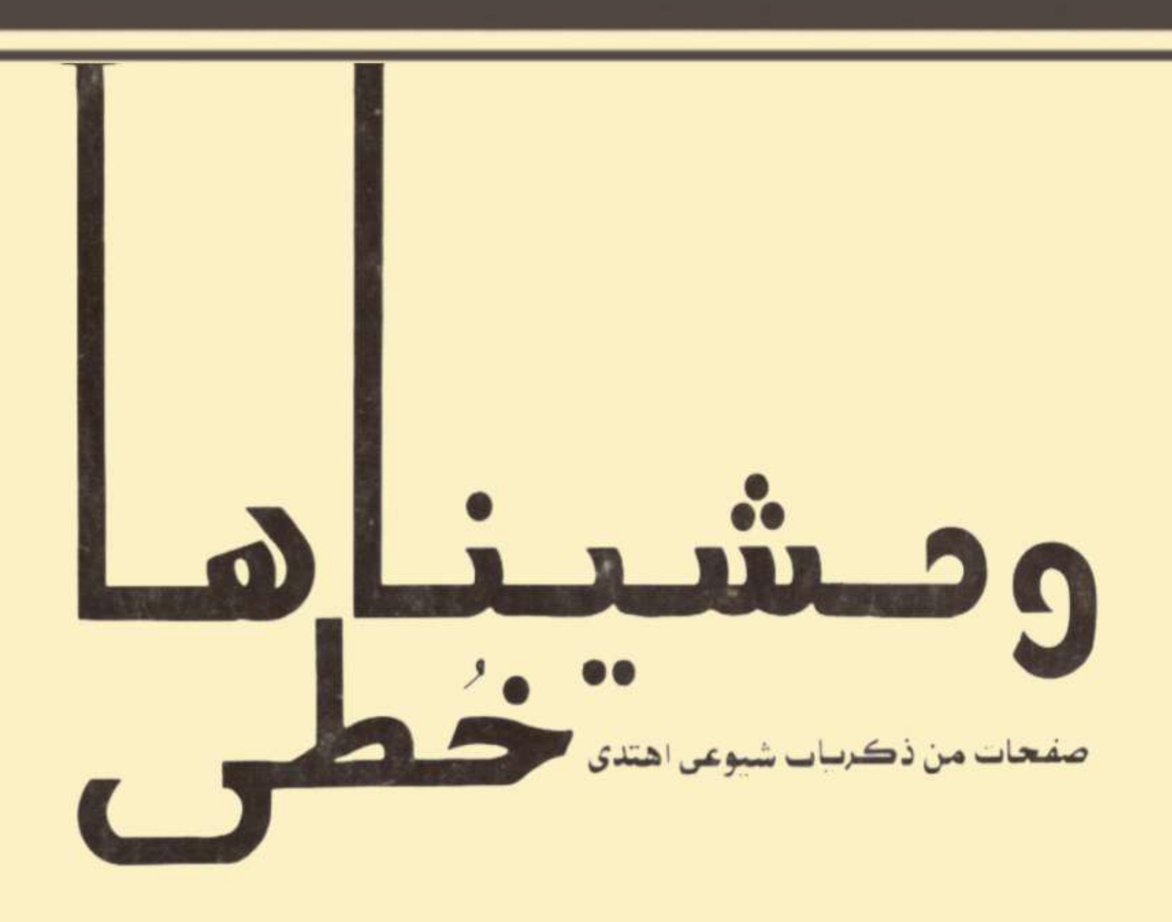
احمد سليمان



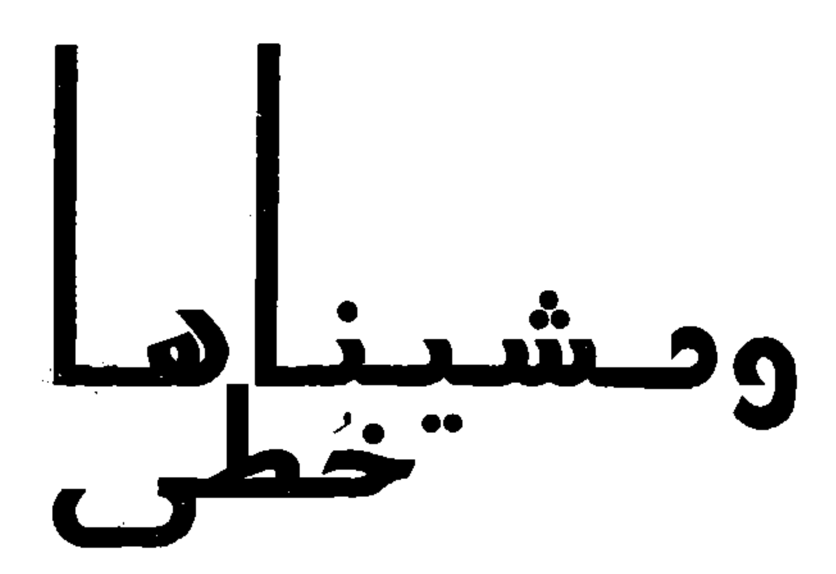
دار الفكر
الخرطوم



احمد سليمان محمد احمد

- ولد في الرابع عشر من يناير ١٩٣٤ بمدينة أم درمان بالسودان .
- تلقى جزءا من تعليمه بكلية الآداب بالخرطوم، ثم كلية الحقوق جامعة فؤاد الاول بالقاهرة .
- من مؤسسي الحزب الشيوعي السوداني ومن قادة حزب الجبهة المعادية للاستعمار .
- فصل من عضوية الحزب الشيوعي في عام ١٩٧٠ .
- تقلد عدة مناصب وزارية منذ عام ١٩٦٤ فقد كان وزيرا للزراعة والغابات واستثمار الأراضي والمياه الجوفية فوزيراً للاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية ثم وزيراً للصناعة والتعدين وأخيرا للعدل .
- عمل سفيراً للسودان لدى الاتحاد السوفيتي ثم سفيرا بلندن ثم سفيراً لدى نيجيريا . ويشغل الآن منصب رئيس مجلس ادارة سودان رن للكيماويات والاسمدة .

احمد سليمان



صفحات من
ذكريات شيوعي اهتدى

دار الفكر
الخرطوم

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الفكر
للطباعة والنشر
ص.ب ١٧٤٧ - تلفون ٧٦٦٢٠ - الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »

(صدق الله العظيم)

الإهداء

إلى الذين لا زالوا

في الضلالة يعمهون

مقدّمة

من حق القارىء عليّ أن أشير إلى بعض الظروف التي صاحبت بداية تفكيري في تدوين أحداث الفترة الزمنية التي جعلتُ مدخلي لها تاريخ انتسابي للحركة الشيوعية بمصر ومن بعدها بوطني السودان.

ومن حقه عليّ أيضاً أن أُفصح عن الدوافع التي حدت بي لطبع هذه الصفحات من الذكريات ووضعها بين يديه، خاصة وقد سبق أن أثار نشر فصول منها بصحيفة الأيام السودانية لغطاً كبيراً، لعل من أسبابه اختلاف البعض حول تلك الدوافع، واختلاف تقويمهم لي، حيث لا يخفى عليّ أني شخصية يدور حولها جدل كثير Controversial كما يقول التعبير الانجليزي فبقدر ما نعمت بصحبة رفاق أجلاء وبقدر ما حباني الله بأصدقاء أعزاء بقدر ما ابتلاني برفقة قوم يودون أن تخسف بي الأرض كما خسفت بقارون وداره من قبل.

وقد فكرت في الكتابة أول ما فكرت في الثلث الأخير من عام ١٩٧٠ عندما علمت بخبر فصلي من عضوية الحزب الشيوعي السوداني، وكنت وقتها قد وصلت القاهرة في طريق العودة من أوروبا بعد أن أنجزت بعض المهام ذات الصلة بوظيفتي كوزير للصناعة والتعدين، وكان أن تلقيت يوم وصولي القاهرة توجيهاً بمقابلة الرئيس عبد الناصر بمنزله بمنشية البكري فإذا به يفاجئني بقوله أنه

تلقى خبراً من الخرطوم مفاده أن عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني قد فصلني من الحزب ومعي اثني عشر من رفاقي أعضاء اللجنة المركزية وفي غيبتنا جميعاً. . . ولا زالت كلماته ترن في أذني «ليه يعمل عبد الخالق كده. . . إن شاء الله خير».

وكان هدفي من الكتابة في البداية أن أرد الصاع صاعين وأن أبينّ حقائق الخلاف داخل الحزب الشيوعي وخلفياته وأن ذلك الخلاف ومهما كان مداه لم يكن ليبرر لنصف عضوية اللجنة المركزية فصل النصف الآخر وفي غيبتهم مخالفين بذلك لوائح الحزب وأعرافه المستقرة وتقاليده المرعية التي كانت تحتم دعوة مؤتمر الحزب لحسم مثل هذا الخلاف الذي كان يسود قيادة الحزب والذي كان مظهره وجود تيارين يكادان يتساويان عدداً.

ولكن بعد تفكير ورويّة آثرت التريث، وقررت ارجاء الكتابة لسببين أولهما أن أعبائي الوزارية لم تكن تسمح لي بذلك وثانيهما خشيتي أن يسيطر الغضب الذي كان يتملكني، على قلمي ويؤثر، من ثم، على موضوعية نظرتي للوقائع.

وعدت للتفكير في الكتابة إثر فشل الانقلاب الذي قام به عبد الخالق محجوب وزمرته من الشيوعيين في يوليو من عام ١٩٧١ ولكني أحجمت مرة أخرى خوفاً من سيادة عواطفي وأفكاري الشخصية.

وظلت فكرة الكتابة تراودني، وكان بعض الأصدقاء يلاحقونني ويلحون عليّ أن أبدأ الكتابة. وقررت استغلال فرصة تعييني سفيراً للسودان لدى المملكة المتحدة لإنجاز ما عجزت عن تحقيقه بالخرطوم. ولكن ظروف العمل بلندن لم تمكنني من الكتابة بالرغم من أنني قضيت بها سنتين كاملتين. وكان ظني أن حالي سيكون أحسن بنيجيريا التي نقلت إليها، ولكن لاغوس لم تهيىء لي الجو الذي

يلائمني فاضطررت لمغادرتها ولمّا يمضي على تعييني سفيراً لديها غير أربعة أشهر.

وهكذا يبدو أن دافعي للكتابة كان في البداية دافعاً شخصياً، ولكن بتقادم الزمن، وبعد التفكير الهادي المتزن، تهاوت النزعات الفردية وتداعى الواعز الشخصي وقررت أن أكتب كتابة تنفع القارىء. وأكون بذلك قد وفيت ببعض الدين المستحق عليّ لشعب السودان الذي وفر لي القدر المتيسر من التعليم ولم نجازِ إحسانه بإحسان، خاصة ونحن نشهد محاولات متكررة لتزييف تاريخه.

فقد جنحت بعض الأقلام، وتطاول الأقزام، واشتط القوم الذين درجوا على الاجتراء على الحقيقة وعلى تزييف الوقائع وغلوا وأسرفوا، فكان لزاماً عليّ أن أسرع الخطى لأسهم في الانقاذ قبل أن يتم طمس الحقائق وقبل أن تتوسد الثرى ويكال على هامتها التراب.

ولعل المعارك التي خضتها، والموانع التي اجتزتها، والأذى الذي أصابني، ومجموع تجربتي السياسية تجعلني من المؤهلين لتلك المهمة. فقد يسرت لي عضويتي السابقة بالحزب الشيوعي السوداني وبالحركة الشيوعية المصرية وصلتي بكثير من الأحزاب الشيوعية العالمية ومؤسسات الشيوعية الدولية معايشة أحداث الفترة السياسية، التي يتناولها هذا السجل وما يتلوه، سواء كان ذلك في مصر أو السودان أو في أرجاء المعسكر الذي يطلق عليه زوراً وبهتاناً، وكذباً وافتراء، وصف معسكر الاشتراكية.

وبالرغم من أن الحزب الشيوعي السوداني كان صغير السن نسبياً وقليل العضوية إلا أنه كان ذا أثر بارز في الحياة السودانية التي عاشها طولاً وعرضاً. وكنت بحكم وضعي الاجتماعي أحد واجهاته السياسية. كما كنت بجانب موقعي في قيادة الحزب، ألصق الناس،

وإلى منتصف الستينات بالرجل الذي كان يسيطر سيطرة تامة على مقاليد الأمور في الحزب وهو عبد الخالق محجوب أمينه العام، فقد كان أعز أصدقائي لفترة تنيف عن عقد من الزمن وقد هيأت لي تلك الصلة أن أكون ملماً بكثير مما خفي على بقية قادة الحزب.

أقول قولي هذا وأنا أعترف بمسؤوليتي التامة عن كثير من أخطاء الحزب الشيوعي السوداني.

ولعل مما هيأ لي كثيراً من المعلومات أني كنت وزير الحزب إبان حكومتي اكتوبر، ولذلك فقد كنت في قلب وقمة أحداث تلك الفترة، وقبلها كنتُ أحد «الكرام» الذين اعتقلتهم حكومة عبود في منتصف ١٩٦١ وزج بنا في معتقل جوبا حيث زاملت الزعماء الذين كانت لهم اليد الطولى في خلق السودان الحديث وفي نيله لاستقلاله أزهري وصحبه وعبد الله خليل وأنصاره.

وقد يسرت لي رفقة هؤلاء «الكرام» التعرف على الكثير مما خفي من تاريخ السودان.

وهناك أيضاً الوقائع التي عايشتها عندما كنت وزيراً لفترة أربع سنوات تحت ظل مايو في وزارتي الاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية والصناعة والتعدين وكانت فترة حافلة من حياتنا، وبعدهما في وزارة العدل.

كما أتاح لي عملي كسفير للسودان بالاتحاد السوفيتي والمملكة المتحدة الإطلاع على كثير من الوثائق التي لم تكن لتتهيأ لغيري. وكذلك تيسر لي الاستماع إلى كثير من القصص والأسرار التي كان يرويها بعض كبار الانجليز الذين كانوا في خدمة حكومة السودان أمثال «جيلان» الذي كان سكرتيراً إدارياً لحكومة السودان إبان نشأة مؤتمر الخريجين وغيره ممن عاصروا فترتي الجمعية التشريعية والحكم الذاتي.

ثم علاقتي بعبد الناصر فقد كنت وثيق الصلة به منذ عام ١٩٥٦ إلى أن انتقل إلى رحاب الله وهي حقيقة يعرفها الكثيرون. وقد هيأت لي تلك الصلة الإلمام بكثير من المعلومات عن العلاقات بين البلدين.

بقي عليّ أن أؤكد أنه ليس من أغراض هذا الكتاب الإساءة إلى أحد وليس من أهدافه تصفية الحساب مع أي تنظيم أو فرد، فأنا كما ذكرت آنفاً أتحمل وزر كثير من الأخطاء التي سودت وجه الحياة الحزبية في السودان.

وأخيراً فإن هذه الذكريات ليست، كما يقول شيخنا علي الطنطاوي، صنعة أديب بل هو الذي كان.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الخرطوم في الثالث من أبريل سنة ١٩٨٣.

- ١ -

وكنا عصبة من الأصدقاء الذين جمعت بينهم أيام الـدراسة بمدرسة أم درمان الثانوية وبعدها بكلية الخرطوم الجامعية وألّف بين قلوبهم ولاء صادق لحزب الاشقاء وود لا يدانيه ود لزعيم البلاد الفرد اسماعيل الأزهري شددنا الرحال لقاهرة المعز التي كانت لنا كنار موسى التي أنسها بالوادي المقدس طوى فقصدها لعله يأتي أهله منها بقبس أو يجد عليها هدى. . . ووصلناها في الرابع من يناير١٩٤٧.

وكان قد سبقنا إليها ببضعـة أسابيع نفر آخـر من الإخوة الطلاب من بينهم عبد الخالق محجوب الذي قدمها تلمساً للعلاج من مرض الرمد الربيعي الذي طال ابتلاؤه به، وتحبباً بل وتلهفاً لدراسة أفضل من تلك التي هيأتها له كلية أداب الخرطوم التي كانت مقرراتها تزور خجلاً وتجثو تواضعاً أمام حصيلته من أدب اللغة الانجليزية ولا تكاد مكتبتها تشفي له غليلاً أو تشبع له نهماً.

وبعد أيام من وصولنا القاهرة جلست معـه بمقهى «استرا» بالقرب من مبنى الجامعة الأمريكية وأخذ يحدثني عن خيبة أمله في

وفد السودان وكيف أن بعض أعضائه باعوا أنفسهم للشيطان كسباً للمال الحرام وجرياً وراء التراخيص التجارية لتصدير واستيراد الأرز والحديد ومخلفات الحرب بفايد والتل الكبير وكيف أن رهطاً آخراً منهم استهوته حياة الليل بالقاهرة وفتنته راقصات ملهى بديعة بالأوبرا «وببا» «بالكبري الانجليزي» وأصبح صديقاً للقوادين والمفسدين الذين كانوا يزحمون خمارات الأوبرج والبارزيانا وصفيه حلمي وحانات العتبة والخازندار، فضعفت النفوس ووهنت العزائم واستمرأ القوم حياة الدعة والراحة وصاروا تبعاً لباشوات مصر الذين ما فتئوا يبشرون شعبهم بتحقيق السيادة على السودان، واضحوا يقلدونهم في تصرفاتهم وفي استعلائهم على عباد الله وحتى في الملبس والكلام... «فالجاكت» «شاركسكن» بيضاء ناصعة، والبطال «فنلة» سوداء، والحذاء ذات لونين أحمر وأبيض نهاراً، وأسود وأبيض ليلاً، «والطربوش» المغلوب على أمره يشعرك بغربته وبابتلائه. واللسان أصابته العقدة فأصبح مطية لحرف الألف في تغوله المتواصل على «المسكين» حرف القاف. وحتى الأجسام لم تسلم من العدوى فصارت نداً وصنواً لأجسام الباشوات المترهلة. فاكتنزت الشحوم، وانتفخت الأوداج والبطون من كثرة ما أصابها من «جاتو» جروبي وحلويات الكازار التي كانت تزخر بها موائد فندق الكنتنتال وحفلات الشاي التي كانت هي ساحاتهم المفضلة للنضال.

ولم يكتف عبد الخالق بلذعاته ولسعاته وهجومه على أعضاء وفد السودان بل سدر حتى أصابت سهامه السيد/اسماعيل الأزهري فاتهمه بخيانة قضية الشعب الذي كان يبادله الحب

والولاء، وبالتنكر لمأثورته التي تناقلتها عنه الألسن عندما هبط أرض مصر على رأس وفد السودان في مارس من عام ١٩٤٦:

«إن قضيتنا لا يحلها إلا الذين ودّعونا في
الخرطوم وأولئك الذين استقبلونا في القاهرة»

وبأنه بعد أن انقلب على عقبيه بات لا يرى لها حلاً إلا على يدي صدقي باشا الصادق الأمين، ولا يجد لها مخرجاً بعد الباشا اللعين إلا عن طريق المحافل الدولية حيث يصول الفقهاء المصريون ويجولون وحيث أن على رأس حكومة القاهرة النقراشي باشا الذي جمع بين الصلابة والكياسة وأوتي الحكمة واللسان الذرب المبين... كما قال.

ولما أحس عبد الخالق مني الكفر بما يقول، وتبين ضيق صدري وأدرك تبرمي بما أصاب الأزهري من ساقط القول، استماحني العذر وقال إنه ما قصد أن يفسد عليّ فرحتي بالقاهرة ولا أن ينال من أناس يعرف صادق ودي وولائي لهم ولكنها قولة الحق ويقظة الضمير وصحوة العقل والولاء الكبير لأبناء وادي النيل والود الباقي الأصيل هي التي دفعته لما يقول، وأنه بعد تدبر وتركيز وصفاء وتأمل وتفكير ونقاء قد وصل إلى قناعة بأن استقلال السودان الذي كان ينادي به حزب الأمة ما هو في حقيقته إلا كلمة حق أريد بها باطل وأن شعار وحدة وادي النيل الذي يلتف حوله الأشقاء والاتحاديون بمدارسهم المختلفة إن هو إلا شعار زائف إذ من شأنه لو تحقق أن يجعل أرض السودان ضيعة كبرى تضاف إلى اقطاعيات باشوات مصر، وأن الشعار الصحيح البديل ينبغي أن يكون الكفاح المشترك بين شعبي وادي

النيل، وأن انفراد الشيوعيين في مصر وتمسكهم وحدهم به كان مدخله للاتصال بهم والاستماع المتأني لأفكارهم حول مختلف القضايا وأنه نتيجة لذلك لم يكتف بدراسة النظرية الماركسية اللينينية والاقتناع بها كهاد ومرشد للعمل فحسب بل أتبع سبباً فصار عضواً عاملاً بإحدى الحلقات التي تتدارسها وبأحد تنظيماتها وبالتحديد «بالحركة المصرية» التي كان يرمز لها بـ «ح. م.» ونصحني بأن أبدأ بدراسة مؤلفات لينين وأفكار ستالين حول المسألة الوطنية وبعدها إن راق لي الأمر فيمكنني الاتصال به ليبسر لي سبيل الانضمام لركب «الرفاق».

وو عدت خيراً، تأدباً، وافترقنا

ورجعت إلى صحبي بالفندق غضبان أسفاً. ولم يكن مرد تعاستي إلى قولة صدق زعمها عبد الخالق وآمنت بها كرهاً. فقد كان عقلي مصفحاً وبصري مُسَكراً ولو كان قد سخر له كل شيء فحشده عليَّ قُبُلاً أو جاء بالموتى يتكلمون أو يُسر له إخراج دابة الأرض تُكلمنا عن سقطة «الرئيس» أو عن سوأة رفاقه الميامين ما كنت لأومن له حينذاك أبداً.

ولم تكن هذه، بالطبع، أول مرة نسمع فيها مثل تلك الاتهامات والافتراءات تلصق برجال «المركز العام» لحزب الاشقاء والتي كان يشيعها ويروج لها نفر من الذين اتخذوا المستعمر الغاصب وليّاً والذين اغتنموا فرصة سفر الأزهري وصحبه إلى القاهرة فتقمصوا شخصية السامري الذي حاول فتنة قوم موسى من بعده وظلت أوساطهم تتناقل أحاديث الأفك التي كانوا يدللون على صدقها بالمجابهة التي حدثت بين اثنين من كبار

أعضاء وفد السودان لعل أحدهم كان أحمد خير المحامي الذي قيل أن الغضب قد بلغ به حداً دفعه إلى أن يصفع أحد أقطاب حزب الاشقاء أمام جمع من الحاضرين السودانيين والمصريين استهجاناً لمسلكه واستنكاراً لملاحقته لكبار مسؤولي الحكومة المصرية تلمساً لأذونات التصدير وسعياً وراء تراخيص الاستيراد.

ولم نكن لنأبه لما يقال عن قوم كنا نعدهم من الأخيار، عرفناهم عن قرب ولمسنا بساطة الحياة التي كانوا يعيشونها وتواضعها. رجال كنا نشبههم بحواري عيسى عليه السلام حيث الجلد والصبر على المكاره وبأصحاب محمد صلوات الله عليه وسلامه حيث الشدة في منازلة الكفرة المستعمرين وحيث الرحمة فيما بينهم فقد كانوا «كالفقراء» يتقاسمون «النبقة» ومن هنا كان انطباق وصف «الاشقاء» عليهم بظننا.

- ٢ -

ولعل يحيى الفضلي الذي كان أقرب الناس إلى قلوبنا بعد الرئيس أزهري قد أدرك بثاقب فكره وبما وهبه الله من فراسة ومعرفة بالناس أننا ربما وقعنا فريسة لافتراءات البعض وضحية لأفكهم فقد بادر وخص بعضنا مشاركته همومه وهواجسه وحذرنا من فئتين أولاهما «جماعة أم درمان» وكانوا قلة من الشيوعيين السودانيين الذين كانوا يصدرون «مجلة أم درمان» بالقاهرة وذكر لنا بالتحديد عبده دهب حسنين وعبد الماجد أبو حسبو وعز الدين علي عامر واتهمهم بأنهم أعوان لحزب الأمة بل أعضاء به مستترين. ودلل على ادعائه ذاك «بحمداي» الذي كان أحد الجماعة وانتهى به المطاف عند رجوعه للسودان بأن صار محرراً مرموقاً بجريدة الأمة لسان حال حزب الأمة ومنبر فئة من الاستقلاليين الذين كان يصفهم من قبل بأنهم برادع للمستعمرين، وبالمحامي محمد أمين حسين أحد أعضاء الجماعة المؤسسين الذي زعم أنه حط رحاله بساحة امام الأنصار وبرحاب (الأميرالاي) عبد الله بك خليل الأمين العام لحزب الأمة. وقال إنه يخشى أن يصيب بعضنا ما أصاب ابن صديقه محجوب «الرِقَيِّقْ» ـ يقصد عبد الخالق ـ وكانت تلك كنية المرحوم والده إذ

كان ضعيف البنية، دقيق التقاطيع هزيل الجسم.

وكنت قد تذكرت تحذير يحيى عندما كنت أستمع لعبد الخالق بمقهى «استرا» وتساءلت ماذا دها ابن محجوب؟ ولم كل هذه المرارة وهذا القدح المبرح والنقد الموجع لرجال كانوا حتى الأمس القريب ملء سمعه وبصره وفؤاده، رجال كانوا يبادلونه الود كله والاعجاب جله ويؤملون فيه خيراً كثيراً لحزبهم وللبلد. ومن أين له بهذا اللسان الصفيق السليط وهو الذي لم يكن لينطق لغواً ولا تأثيماً... وتعجبت وقلت لعلها إحدى مظاهر سقطته، وإحدى أعراض زلته ومكتسبات ولاءاته الجديدة.

والفئة الثانية التي حذرنا منها يحيى، جماعة علي البرير الذين قال إنهم يعملون جاهدين لضم الطلبة الجدد والقادمين من كليات الخرطوم الجامعية إلى زمرتهم حيث أن «علي بك» - بزعمه - يهمه أن «يكبر كومه» من المثقفين حتى يكون لحزبه، حزب وحدة وادي النيل الذي كان ينادي بالاندماج مع مصر وضع مميز بين أحزاب الاتحاديين وحتى ينال حظوة أكبر عند «المليك المفدى» وحاشيته وما يتبع ذلك من ازدهار لأعماله التجارية. ووجهنا يحيى بمداومة الاتصال والتعاون مع ابراهيم المفتي المحامي الذي كلفه الرئيس أزهري برعاية شؤون الطلاب، وقال إن لعلي بك رسلاً بين الطلبة وأشار إلى طالب التجارة منصور أحمد الشيخ وإلى طلبة الحقوق الهادي عابدون وحسن دراوي وصادق عبد الله عبد الماجد وقال إنهم يشكلون قمة القاعدة التي يستند عليها علي البرير وسط الطلاب بعد سفر أعوانه السابقين أحمد السيد حمد وبشير البكري وأحمد الطيب

عابدون وعقيل أحمد عقيل ومحيي الدين صابر في بعثات لنيل الدكتوراه في القانون والآداب من جامعات فرنسا كان قد يسرها لهم بعد أن أفلح في اقناع سلطات القصر بأهمية الأمر حيث أنهم سيكونون طليعة مثقفي البلاد الذين تؤول اليهم السلطة في جنوب الوادي عند تحقيق وحدته.

وقد كان لتحذير يحيى الفضلي أثره على بعضنا وعلى مسار ومستقبل حركة الطلاب السودانيين بمصر. وقد صادف نقده للشيوعيين هوى في نفسي إذ كانت لي معهم قصة بالخرطوم فقد كنت لاحظت أن حماس أحد أعز أصدقائي من الطلاب لأزهري وصحبه قد وهن وضعف وأنه صار يردد ألفاظاً غريبة مثل البروليتاريا والصراع الطبقي... الخ وأنه كان يحرص على قراءة بعض الكتب في غيبة زملائه الذين كانوا يشاركونه السكن، فترصدته وداهمته ذات ليل ووجدته يقرأ كتيباً اسمه «**الاقتصاد محرك التطور التاريخي**» وهو من الكتيبات التي كانت تصدرها دور النشر الشيوعية ببيروت والقاهرة وكان قد سبق لي في أثناء العطلة الجامعية الصيفية في عام ١٩٤٦ أن اطلعت على بعضها في منزل صديقنا محمد علي نديم الذي التحق فيما بعد بكلية الإدارة وأصبح من الإداريين المرموقين وكنا قد تعودنا تزجية أوقات فراغنا عنده وقد تعجبنا وصديقنا الذي كنا نأوي إليه عن الكيفية التي تسربت بها تلك الكتب إلى مسكنه ولكننا لم نعر الأمر مزيد اهتمام.

وقال لي صديقي الحميم الذي داهمته أنه عضو في حلقة لدراسة الماركسية ذكر من اعضائها من الطلاب الطاهر السراج

وعثمان محجوب ومن خارجهم المهندس عبد الحميد أبو القاسم هاشم وقال إن من أوائل المؤسسين لمثل تلك الحلقة أحمد زين العابدين الذي كان قد تخرج في مدرسة الآداب والتحق بمصلحة المعارف مدرساً والذي كان على صلة، عندما كان طالباً «بوكيل عريف» بالجيش الانجليزي يسمى ستوري وهو الذي فتح أمامه آفاقاً جديدة ورحبة للفكر ولدراسة الماركسية. وذكر لي الصديق الذي كان هو حسن دفع الله والذي تبوأ فيها بعد أرفع المناصب الإدارية بوزارتي الداخلية والحكومة المحلية أنهم بسبيل تأسيس تنظيم سياسي سري يسعى لطرد الانجليز من البلاد. وسألته عن موقفه من حزب الاشقاء إذ كان من دعاته والمتحمسين له فقال إنه لا زال عند ولائه للحزب ولكنهم يهدفون إلى تثقيف وتنظيم العمال حتى يكونوا عوناً مـدركاً وواعياً للمثقفين في معركتهم الضارية ضد الاستعمار. وعندما لمته على عدم مبادرته باخطاري بنشاطه الجديد وضمي إلى حظيرتهم قال إنهم يحيطون الأمر بكثير من السرية مما يستدعي تمحيص العضوية وأنه سبق أن عرض اسمي على زمرته ولكنهم اعترضوا على ترشيحي على أساس أنني شرس ومندفع ومتهور بل وفوضوي. . . وأشهد أنهم كانوا على حق حيث كان بي شيء من كل ما ذكروا.

ولكن رفضهم لي حز في نفسي واوغر صدري ولعل ذلك كان أحد الأسباب التي جعلتني لا أهتم بمحاولة عبد الخالق واقتراحه الانضمام إلى قافلتهم. ومن قبله بمحاولة نفر آخر من الشيوعيين المصرين والسودانيين وعلى رأسهم سعد أمير طه الذي كان قد سبقنا إلى مصر بسنتين حيث كان يتلقى تعليمه الثانوي وكان قد بادر بالاتصال بنا ساعة وصولنا القاهرة ومنهم أيضاً عمر محمد

إبراهيم الطالب بكلية الطب وشقيق صديقي علي الذي كان عضواً بارزاً في مجموعتنا.

أما فيما يختص بموقفنا من علي البرير وجماعته فقد استجبنا سريعاً لتحريض يحيى الفضلي وانفضضنا من حول الرجل بل بادرناه وصحبه بالعداء وأشهد أنه لم يكن فظاً ولا غليظ القلب بل ظل معنا كريماً ومتسامحاً. وقد توثقت صلتي به بعد انتهاء دراستي الجامعية فعرفته عن قرب وأدركت مدى خطأنا وظلمنا له وقد علمت منه أنه كان على علم بتحريض يحيى لنا ولكن لم يشأ أن يثير ضجة حول الأمر حرصاً على ما تبقى من مظاهر وحدة وفد السودان وتماسكه خاصة بعد انسحاب ممثلي الأحزاب الاستقلالية منه وتعالياً على الصغائر حيث كان قد تعوَّد على ظلم الناس له فقد أصابه الكثير من سهامهم ولؤمهم وكان يرى أنها الضريبة التي يدفعها الذين يتصدون للعمل العام بل هي قدرهم وكذلك إيماناً منه بأن التجربة والزمن كفيلان في نهاية الأمر بإزالة الغشاوة عن أبصارنا حيث أنها لم تكن في نظره إلا سحابة صيف عما قريب تقشَّع.

ولكن بقدر ما كان تقديره للأثر النهائي للتجربة وللزمن صائباً وصحيحاً بقدر ما كان خطؤه في الاستهانة بالأمر حيث إنها لم تكن مجرد سحابة صيف كما قرر وأراد لها وإنما كانت في حقيقتها سحاباً مركوماً بل كسفاً ساقطاً ورجزاً أصاب حركة الطلاب السودانيين وعصفَ بوحدتهم.

- ٣ -

وبدأت بوادر الانقسام تظهر بين الطلبة. وشيئاً فشيئاً بدأ الخرق يتسع. والخصومات تستعر إلى أن بعدت الشقة بيننا تماماً.

والعجيب في الأمر أنه لم يكن هناك سبب موضوعي يبرر ذلك الانقسام، وليس ثمة نقاط نزاع أو خلاف جوهرية تسوغ تلك الفرقة. فكلنا كان يؤمن بالوحدة مع مصر ويدعو لها، وكلنا كان قد ارتضى «الفاروق المفدّى» ملكاً، وكلنا كان يتوق إلى اليوم الذي نطهّر فيه وادي النيل من رجس الانجليز الذين كانوا كمشركي مكة نجاسة لا ينبغي لهم أن يبقوا بأرضنا ولا يقربوها بعد كل تلك السنين الشداد الطوال من الاستعباد والنهب الاستعماري. كما لم تكن هناك أية مشاكل أخرى تتصل بأحوالنا وظروفنا المعيشية تثير جدلاً أو تفجر خلافاً فقد تكفلت بها الحكومة المصرية التي يسرت لنا العيش الكريم وخصصت لسكننا داراً فخمة تطل على نيل الجيزة وتقرب من الجامعة.

وكان أن أنشأنا «اتحاد الطلبة السودانيين» وكوّن الآخرون «رابطة الطلبة السودانيين» وكنا أكثر منهم عدداً فقد سارع بالانضمام إلينا أغلبية الطلاب السودانيين وبعض الطلبة النوبيين

الذين كانوا ينهلون العلم من معاهـد الأزهر وكليـاته وكـذلك أصدقاؤنا الذين قدموا معنا من الخرطوم والتحقوا بالسنين النهائية بثانويات حلوان والسعيدية وغيرها التماساً للبكالوريا مـدخلهم للجامعة. كل هؤلاء بجانب مجموعتنا التي كانت تضم اصدقاء تعددت أسباب قدومهم لمصر وتباينت دوافعهم. فقد كان منا من زهـد في الدراسة بكلية الخـرطوم الجـامعية لقصـور مقرراتهـا وضمورها وضعف مستواها الأكاديمي حيث كانت لا تزال في سني حياتها الأولى أقرب إلى أمها كلية غردون التذكارية منها إلى جامعة لندن التي ألحقت بها وأوكل إليها أمر رعايتها، ومنا من استهوته الحياة في مصر والتي كان يزينها ويشوقنا لها العزيز الذي افتقدته عقيل أحمد عقيل والصديق أحمد الطيب عابدون اللذان كنا نترقب مجيئهما في العطلات الصيفية نهرع إلى داريهما بام درمان «بفريق القلعة» وبحي «مكي ود عروسـه» وكلنا أذن صـاغية نستمـع مشدوهين مأخوذين بأحاديثهم الممتعة وقصصهم الشائقة التي لم تسلم كما تبين لنا فيما بعد من مبالغات ولمسات كانت وليدة خيال خصب ومقدرة على ادخال البهجة والمسرة على النفس لا تدانيها مقدرة... كل ذلك بلسان عربي مبين تزينه وتتخلله بين الحين والحين تعابير وألفاظ فرنسية تحبب لنا الجلسة، وتثير فينا الدهشة لهذا العلم المكين. وتزيدنا يقيناً على يقين أنه ما من ثقافة تضاهي ثقافة مصر البلد الأمين وتحفزنا لشد الرحال لها لنروي ظمأنا من مائها المعين.

وكان منا أيضاً من آثاره قلم أحمد السيد حمد ومقالاته التي كانت تنشرها له جريدة صوت السودان في منتصف عام ١٩٤٦ والتي كان يروج لها بأنها القنابل التي تزلزل الأرض من تحت

أقدام الانجليز فتميد بهم وبأعوانهم. ولعل اعجابنا بأحمد السيد حمد «المحامي» هو الذي جعل أغلبيتنا تتوق لدراسة القانون وتلتمس الالتحاق بكلية الحقوق.

وقد تبين لنا فيما بعد أن أحمد السيد كان يستقي المعلومات والأسرار التي تزخر بها قنابله من مقالات كانت تنشرها جريدة الحزب الشيوعي البريطاني بلندن بقلم مستر ستوري الذي كان قد أسس حلقة لدراسة الماركسية بالخرطوم عندما كان وكيل عريف «بالجيش الانجليزي» والذي تتلمذ على يديه أحمد زين العابدين وغيره من الشيوعيين الأولين.

أما الرابطة فقد كانت قاعدتها من الطلاب الذين كانوا قد سبقونا إلى مصر بسنين يدرسون بمعاهدها ومدارسها الثانوية، وكان قادتها الفتية الذين أشار إليهم يحيى الفضلي والذين كنا نعدهم عيناً وعوناً وتبعاً لعلي البرير.

ولخلو الساحة من الأسباب الموضوعية للخلاف، كما أسلفت، فقد تبلور الصراع ونما حول الانتماءات السياسية التي كانت تفرق الطلاب المصريين شيعاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون.

وكان الصراع داخل جامعة فؤاد الأول وهي جامعة القاهرة اليوم بين أنصار الحكومة ومعارضيها مريراً وحاداً. وكان معسكر الحكومة يضم الفئة القليلة من طلاب حزبيها السعديين والأحرار الدستوريين والقلة الضئيلة أيضاً من المنتمين للحزب الوطني الذي كان يترأسه حافظ باشا رمضان والذي عرف بولائه للقصر. ولولا الإخوان المسلمون لما كان للحكومة من سند وسط الطلاب إذ

كانوا هم القوة الحقيقية والفاعلة التي تؤيد الحكومة وتعلن بل وتجاهر بالولاء للملك وتتصدى لأعداء النظام.

وكانت المعارضة تتمثل في الوفديين والشيوعيين وكان حزب الوفد يتمتع بتأييد أغلبية الطلاب كما كان ذلك شأنه خارج الجامعة أيضاً. وقد انتفع الوفديون كثيراً من تحالفهم مع الشيوعيين الذين كانوا أكثر منهم قدرة على الإثارة وعلى التنظيم، والذين عرفوا بالبراعة في مراوغة الحرس الجامعي وفي ابتداع الوسائل الكفيلة باجهاض مخططات أجهزة الأمن، وفي استحداث شتى وسائل جلب وادخال معدات الدفاع عن النفس وحماية تظاهرات المعارضة وتهريب المنشورات والأدب الثوري المحظور إلى داخل الحرم الجامعي.

وكان الوفديون يسيطرون على كليات الحقوق والآداب والتجارة، والشيوعيون يبسطون نفوذهم على كليتي العلوم وطب قصر العيني، أما الاخوان فقد كانت كلية الهندسة حصنهم الحصين.

وبالرغم من أننا كنا ندين بالولاء «للمليك المفدى» إلا أننا وجدنا أنفسنا، نحن القادمين من الخرطوم، أقرب إلى معسكر الوفديين منا إلى حظيرة أحزاب الحكومة والقصر، فقد كان الوفديون وحلفاؤهم أشد عداءً للانجليز وأشد ضراوة وكانت اقامة «الجيش الانجليزي» بثكنات قصر النيل وسط القاهرة وبين ظهراني سكانها، تلهب ذلك العداء وتؤجج نيران الحقد والبغض والكراهية لهم.

كما كان لتربيتنا السياسية أثرها الفعال في انسياقنا التلقائي

واندفاعنا نحو حزب الوفد إذ كنا قد نشأنا على الولاء له وشربنا من كأس حبه المترعة، حيث كان للأحزاب المصرية دائماً أنصارها في السودان خاصة قبل قيام أحزابنا السياسية في مستهل الأربعينات وكانت الغالبية العظمى من مثقفي السودان وأسرهم ينتمون إلى حزب سعد زغلول وقد كنا نردد ونحن أطفال مع إخواننا اليافعين «مصر أمنا وسعد باشا عمنا والوفد حزبنا».

ولا أبالغ إن قلت إن من بين أبناء الجيل الذي سبقنا من كان يحفظ وعن ظهر قلب خطب سعد زغلول ووحائد مركم عبيد بل وأسماء أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ودوائرهم وخاصة الوفديين منهم. وكنا نتلهف ونترقب قدوم «البوستة القيصرية» ونسرع الخطى إلى مكتبة العم «حسن بدري» بالمحطة الوسطى بام درمان حيث الأهرام واللطائف المصورة وروز اليوسف وكل شيء والدنيا والرسالة ونور الإسلام، وأبولو وحتى «الكشكول». ولم تكن ثمة مكتبة في منازل مثقفي العاصمة تخلو من كتب مصر وأدب مصر وما تجود بها مطابعها من روائع... فالشوقيات وديوان حافظ إبراهيم وأيام طه حسين وعبرات المنفلوطي واعجاز القرآن ووحي قلم الرافعي وليلى المريضة بالعراق والتصوف في الأدب والإسلام «للدكاترة» زكي مبارك وفكر العقاد وشعره وصديقه المازني وحياة محمد للدكتور هيكل كانت لمثقفينا كالصحف المكرمة مرفوعة «ومجلدة» وتزهو اسماؤهم المكتوبة بماء الذهب وتسعد بالتصاقها بجانب من أغلفتها.

ولا غرو ولا عجب فقد كانت مصر لنا ولا تزال تجسيداً حياً للجار ذي القربى الذي أشارت إليه آية سورة النساء الكريمة

والذي هو أفضل الجيران إذ أنها جار، مسلم، وذو رحم، لها حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وقد كان منها دائماً وعبر الزمن ورغم الصعوبات والمِحن من يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل عنا ويقري الضيف ويعينه على نوائب الحق وقد كان منا لها مثل ذلك أيضاً.

- ٤ -

وأذكر أن أول مناسبة أظهرنا فيها انحيازنا إلى المعسكر المناوىء للحكومة والقصر كان في الأسبوع الثالث من فبراير أي بعد ما يقرب من الشهر والنصف من وصولنا مصر، فقد سيّر الوفديون والشيوعيون موكباً هادراً شجبوا فيه الاستعمار البريطاني والحكومة والقصر وذلك بمناسبة مرور سنة على يوم **٢١** من فبراير **١٩٤٦** الذي كان من أعظم أيام مصر ومن أبرز معالم نضال شعبها حيث استشهد ثلاثة وعشرون من أبنائها البررة وجرح عشرات منهم إثر معركة ضارية التحموا فيها مع قوات الاحتلال البريطاني. وكذلك بمناسبة انقضاء عام على مجزرة (كبري عباس)، وقد كانت هذه مجزرة بحق. إذ كان طلبة الجامعة والثانويات قد سيروا في التاسع من فبراير **١٩٤٦** مظاهرة صاخبة تطالب بالجلاء وتهتف بسقوط الملك والحكومة وقد ظلت قوات الشرطة والأمن تراقب المظاهرة عن كثب ومن بعيد ولم تتعرض لها، حتى إذا ما ولج الطلبة كبري عباس الذي يربط الجيزة بالقاهرة وتوغلوا داخله انقضت عليهم بعد أن فتحت الكبري وسلطت عليهم النيران وأمطرتهم بالرصاص وبالقنابل المسيلة للدموع فتعددت سبل الاستشهاد والموت واحد. فمنهم من قضى نحبه اختناقاً ومنهم من مزقه

الرصاص ومنهم من داسته الأقدام بعد أن تقطعت بهم الاسباب وباتوا ينشدون المخرج ولا مخرج ومنهم من مات غرقاً بعد أن قذف بنفسه في النيل ملتمساً النجاة حيث كان قد ترسب في العقول والوجدان أن نيل مصر هو واهب الحياة وأنه كله ودائماً خير وبركة. ونسي القوم أنه من مخلوقات الحياة الدنيا وفي أرضها وأنه بذلك لا يخلو من بعض مظاهر لؤمها وغدرها.

وقد كان ذلك ثاني موكب نشترك فيه فقد كان الأول بالخرطوم عندما سير طلاب كلية الخرطوم الجامعية موكباً بعد ظهر أحد أيام مارس **١٩٤٦** تأييداً لوفد السودان وتعبيراً عن فرحتنا بوحدة السودانيين التي تمثلت في تشكيله حيث وافقت الأحزاب الاستقلالية في النهاية على الانضمام إليه بعد أن كانوا قد عارضوا تكوينه ورفضوا أية صيغة للوحدة مع مصر وكانوا يرون في ذلك إهداراً لسيادة السودانيين على اقليمهم، وتسليماً بالسيادة المصرية، وقبولاً بالتاج المصري رمزاً لتلك السيادة. وقد تم التوصل إلى التكوين النهائي للوفد بعد كثير من الجهد والعسر والعناء والمعاناة وحددت مهمته في محاولة الاتفاق مع المصريين على صيغة من الاتحاد ترضي جميع الأطراف وفي التضامن معهم بغية تحقيق جلاء القوات الأجنبية من أرض وادي النيل.

ولكن الفارق كان كبيراً بين الموكبين فموكب الخرطوم كان هادئاً ومنظماً وسلمياً، وكانت قوات الشرطة والخيالة تفسح الطريق أمامنا إذ كانت لجنة اتحاد الطلبة التنفيذية قد بادرت وتحصلت مسبقاً على اذن بتسيير الموكب من رئاسة شرطة مديرية الخرطوم، التي كان يجلس على قمتها ضابط انجليزي. واذكر أن

اللجنة قد وجهتنا بأن نكون في أحسن هندام وأن نظهر بالمظهر الذي يليق بطلبة أعلى معاهد البلاد التعليمية. وقد كان، فقد تخيرنا أحسن الملابس والتزمنا الهدوء وانتظم سيرنا حتى كاد أن يكون قريناً ونداً «لطوابير» العرض العسكرية.

أما موكب القاهرة فقد كان هادراً وصاخباً وجسوراً، إذ كانت الحناجر تهدر بالهتافات المدوية التي تنادي بجلاء الانجليز وتطالب بإقالة حكومة النقراش باشا وتدعو لسقوط الملك.

وما أن اجتاز الموكب حرم الجامعة وولج ساحتها حتى انقضت عليه طلائع قوات الأمن وكانوا من جنود «خفر السواحل» وكانت أغلبيتهم من الخيالة السودانيين حاملي السياط وكانوا قد جلبوا من حدود مصر وسواحلها وهُيىء لهم السكن بحي «بين السرايات» القريب من الجامعة تيسيراً لمهمتهم التي تقضي بسرعة الانقضاض على مظاهرات الطلاب قبل أن يستفحل أمرها وقبل أن تجذب إليها جماهير العمال الذين كان يزحم بعضهم مقاهي حي الجيزة تحسباً وأملاً في المخدم الذي ينشد استئجار عملهم وتسخير طاقاتهم. وشتات العاطلين الذين كانوا كأخوة يوسف الذين مُنع منهم الكيل في مصر ومسهم وأهلهم الضر فاضحوا يجوبون الشوارع سعياً وراء الرزق الذي عز وشح وبحثاً عن العمل الذي صعب مناله.

ومن الطريف أن الخيالة السودانيين كانوا يميزون بيننا وبين رفاقنا المصريين فقد كانوا يزيحوننا عن طريقهم ويلاحقون الآخرين. ولما لم تُجدِ السياط ولم تسعف الحال صدرت لهم الأوامر بالانسحاب وحل محلهم جنود قمع المظاهرات وكانوا من

«الصعايدة» أولى البأس الشديد الذين طوعت عقولهم فصاروا كالانعام أو أضلوا سبيلاً وقست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة، وكان بعضهم يحمل العصي الغليظة التي تشبه «النبابيت» التي اشتهر سكان صعيد بمصر بحملها ولا تكاد تفارقهم في غدوهم ورواحهم، والبعض الآخر يحمل البنادق والمدافع السريعة الطلقات. والتحم الجمعان وسالت الدماء ودوّى الرصاص وتساقطت «قنابل مولوتوف» كالمطر والتي كان يحملها نفر من الطلبة أوكل إليهم حماية المظاهرات وتخصصوا فيها. وانجلت المعركة عن كثير من الجرحى من الجانبين وألقى رجال القسم السياسي بوزارة الداخلية والذين كانوا يترصدون ويراقبون المظاهرة من بعيد القبض على بعض قادة الطلاب وبكثير من القسوة التي لم نكن قد شهدنا مثيلاً لها من الحكام الانجليز وأعوانهم في بلادنا. وتفرق الموكب إلى مجموعات تسللت داخل حواري الجيزة وشوارعها تواصل الهتاف وتنادي بسقوط الرجعية والرأسمالية والاقطاع وتطالب بالغاء النظام الملكي، فقد أتاح الصدام وما أثاره من مشاعر وعداء للدولة والنظام الفرصة أمام الشيوعيين لأن يجهروا بشعاراتهم الثورية ويتصاعدوا بها.

ـ ٥ ـ

وقد كان لاشتراكي في موكب طلاب القاهرة وما سمعته أذناي ذلك اليوم وما رأته عيناي أبلغ الأثر في نفسي وربما كان نقطة التحول في حياتي السياسية، فقد بدأت الغشاوة تنجلي عن ناظري وبدأت بعض المفاهيم التي كانت لي كالمسلمات والبديهيات تتداعى كبيوت الرمل وتتساقط كأوراق الخريف. وقد وقفت طويلاً عند ظاهرتين أولاهما جسارة الطلاب المصريين واستعدادهم للبذل والتضحية واستهانتهم بالمخاطر وعدم تهيبهم للموت دفاعاً عن حقوق الشعب واستشعاراً بمسؤوليتهم نحو مصر.

ولم تكن تلك الجسارة وهذا الاندفاع وذاك التحدي لقوات القمع والردع والتصدي للموت وقفاً على أقلية من المتظاهرين وإنما كان ذلك شأن الكثرة الغالبة من المشتركين في الموكب. ولعل مما أسهم في طول وقفتي الأفكار الخاطئة التي كان يحملها البعض في السودان وخاصة أهل البداوة عن تعلق «أولاد الريف» بالحياة وركونهم إلى مداهنة الحكام وإيثارهم دروب السلامة وتجنبهم مكامن الأذى والمجابهة.

وأشهد الله أن تجربتي بمصر وعلى مدى سني دراستي بالجامعة

هناك قد أثبتت بأن المثقف المصري يتميز على كثير من وصفائه في البلاد العربية والافريقية باستعداد أصيل للتضحية في سبيل مثله وقيمه وأفكاره. وتستوي في ذلك كل مدارسهم الفكرية، فقد لمست وعن قرب جسارة الشيوعيين المصريين واستعدادهم للبذل والتضحية وخبرت جسارة الاخوان المسلمين أيضاً واستهانتهم بالحياة وترحيبهم بالموت في سبيل الله وكذلك كان حال كثير من الحزبيين والوفديين على وجه الخصوص، بل رأيت بعضاً من أبناء الباشوات يتصدون للجند ويصارعونهم ويبادلونهم اللكمات ويقذفونهم بالقنابل.

والظاهرة الثانية التي استوقفتني وأثارت انتباهي ودعتني للتأمل كانت العداء العنيف الذي بدا منهم للملك واحتقارهم له ولكل أسرته. فقد كانت تلك أول مرة أجدني متجاوباً مع أناس يهتفون ضده بل ويطالبون بإلغاء الملكية التي كنت أومن بجدواها كرمز تتجسد فيه وحدة وادي النيل وبضرورتها كحكم عدل بين طرفيها، خاصة والملك هو الفاروق الذي عرف بالتقوى والحكمة وبالصلاح والفطنة، وقد كانت هذه صورته التي طبعت في مخيلتنا وترسبت في عقولنا منذ الصغر بفعل أفك الصحافة المصرية، ومنها صحف الوفد، ومكر حاشيته وأعوانه الذين كانوا يتنافسون في مدحه واسباغ حميد الصفات على ذاته السنية ومنذ أن كان صبياً يافعاً لم يبلغ الحلم بعد وقد كانوا في البداية أكثر تواضعاً حيث كانوا يشبهونه بالخلصاء من العرب وبأخيارهم فكأنما هو الخليفة أحمد بن المعتصم الذي وصفه أبو تمام بأنه في:

أقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء أياس

ثم صاروا يتسامون بصفاته ويتعالـون بها كلما ازداد طيشـاً ونزقاً، وفساداً وفجوراً، وعجرفة وعربدة، حتى جعلوا منه شبيهاً للفاروق عمر بن الخطاب في عدله وسهره على مصالـح الناس واهتمامه بشؤون الرعية. وظل الشعراء يتبارون في مدحه إلى حين اخراجه من البلاد مذموماً مدحوراً حيث قلبوا له ظهر المجن. . . ومن منا من لم يحفظ قصيدة شوقي التي وصف فيها فاروق بأنه أزكى نبات الوادي. ومن منا من لا يذكر قول علي بك الجارم:

فـاروق يـا أس الــرجـاء. . ومـلتقـى الــركن الأشــد

وحتى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي لاقى من عنت السراي ما لاقى ذلَّ قلمه وسقط قوله عندما أسندت إليه ادارة جامعة الاسكندرية فقد قال يخاطب فاروق: «أقبلتَ على مصر فأقبلتْ عليها الدنيا ونهضتَ بملكها فتمتْ لها عزتُها وانجلتْ عنها الغمراتُ وانجابت الخُطوبُ فإذا القصِّيُ من الأمر يسمح، وإذا البعيدُ من الأمل يقرب، وإذا الصعبُ من الطِلابِ يهون».

وبَلغت بالبعض الجرأة وقلة الأدب والحياء أن يلحقوه وهو العجمي الأصل بنسب الرسول القرشي الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان جده الأكبر لأبيه البانياً أرنؤطيـاً يبيع «الدخان» وجده لأمه جندياً فرنسياً يدعى الكولونيل سيف زامل نـابليون في حملتـه عـلى مصـر وتسمى بـاسم سليمـان بـاشـا الفرنساوي. وكادت أن تصدر الفتوى والإعلام الشرعي بأصالة نسبه الشريف بعد أن أعلن ذلك نقيب الاشراف الشيخ الببلاوي الذي أراد أن يفتعل صلة رحم تربطه «بالمليك» إذ كان يدعي هو أيضاً قرابة الرسول الكريم.

وليت الأمر قد اقتصر على مجرد ادعاء الانتساب إلى الأصل الطيب والرحم الطاهر فقد سدر القوم في غيهم فجعلوه نداً وصنواً لبعض الأنبياء في الحكمة والعلم والجمال فكأنما هو داؤود الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب وكأنما هو عبد الله الخضر الذي أتاه ربه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً وكأنما هو أيضاً الكريم بن الكريم بن الكريم نبي بني إسرائيل يوسف بن يعقوب بن إسحق الذي فتن جماله امرأة عزيز مصر وشغفها حباً والذي سلبت طلعته البهية لب نسوة المدينة فقطعن أيديهن وقلن حاشى الله ما هذا بشراً.

ولعل من الأسباب التي مهدت لتجاوبي مع الطلاب المصريين ويسرت لي اللحاق بركبهم والاشتراك في موكبهم الهادر ضد القصر وحكومته قسوة قوات قمع المظاهرات وغلظتهم التي لم أجد لها مبرراً ولا مسوغاً والتي لم أكن قد شهدت مثيلاً لها في السودان وهو الذي كان يحكم حكماً مباشراً بواسطة الأجنبي الغاصب.

وثمة سبب آخر كان في البداية مصدراً لتندرنا وانقلب إلى غصة في حلوقنا ودافع لتبرمنا وسخطنا، فقد اتصل بنا الوكيل محمد نور الدين وكان يلقب بذلك لأنه كان وكيلاً لحزب الأشقاء أي نائباً لرئيسه ومن قبل كان وكيلاً للبنك الأهلي المصري بالأبيض ثم بام درمان ومن هنا كانت التسمية التي لازمته إلى ان انتقل إلى رحاب الله في نوفمبر من عام ١٩٦٤. وكان قد عرف بولائه المطلق للملك ولوحدة وادي النيل وكان يحلو له دائماً أن يشبه مصر والسودان بالمنزل الذي احتله دخيل متطفل وأقام فيه جداراً جعل من الدار الواحد دارين وأن كل المطلوب من أصحاب العقار أن يعملوا على هدم الحائط فتتم النعمة «ويحصل

الاندماج». اتصل بنا الوكيل قبل بضعة أيام من موكب طلاب القاهرة وبالتحديد في الحادي عشر من فبراير ١٩٤٧ وقد كان ذلك يوم عيد ميلاد الملك فاروق وطلب منا مرافقته إلى «سراي عابدين» حيث كان يقيم الملك لتسجيل أسمائنا بسجل التشريفات إثباتاً لولائنا «لمليكنا المحبوب» وتعبيراً عن فرحتنا بعيد ميلاده الميمون والسعيد.

وتجمعنا على عجل بعد أن تخيرنا أحسن ما عندنا من ملابس وزج بنا في رتل من عربات الأجرة انطلقت بنا إلى شارع عبد العزيز بالقرب من ميدان العتبة حيث ولجنا أحد الحوانيت التي كان تؤجر «الطرابيش» ولبسناها وكان منظرنا غريباً ومضحكاً فقد كانت من الكبر والاتساع بحيث كادت أن تغطي أذني بغضنا ولم يكن هناك وقت يسمح بالبحث عن حوانيت أخرى نجد فيها ضالتنا من «الطرابيش الفاروقية» التي تناسبنا إذ أراد لنا الوكيل أن نكون في القصر في الساعات التي تكتظ فيها ساحاته بالباشوات «والبيكوات» وقبل أن ينفض سامرهم. .

ولم نهتم باديء الأمر بما أصابنا فقد كنا نتلهف للزيارة الميمونة ولرؤية سادة مصر وأعزائها الذين كانوا يهرعون للسراي ويشدون إليها الرحال من مختلف أنحاء القطر ويتسابقون اظهاراً لولائهم واستعراضاً بأزيائهم وبسياراتهم الأمريكية الفارهة. وكان الوكيل نور الدين يحرص على أن يقدم مجموعتنا فرداً فرداً إلى الباشوات الذين ازدحمت بهم باحة القصر على سعتها وكنا قد أثرنا انتباه الجميع، وكان الكل يبادلنا التحايا ويظهر الود «للبرابرة الصغيرين» الذين كانوا في نظرهم أقرب للقرود منهم إلى دنيا البشر، وكنا نحن مشدوهين مبهورين بما نرى، وكنا نعتز ونتبارى

أيّنا أقدر على معرفة الحاضرين، إذ كان ذلك دليلاً على المامنا بأحوال مصر وارتباطنا بالشقيقة الكبرى.

ولما رجعنا إلى بيت السودان الذي كنا نقيم به استفزنا أحدهم وكان سودانياً زائراً لم نكن قد رأيناه من قبل فقد شبهنا «بالعبلانج» وهي فصيلة من صغار القرود وكانت «الطرابيش» لا تزال تحيط بهاماتنا وكان هو نفسه يلبس أحدها ولكن كان يناسبه بل ويبدو وكأنما كل من رأسه والطربوش الذي يعلوه قد يُسر وقُدر للآخر. وكدنا أن نفتك به لولا تدخل صديقنا عوض عبد الرازق، وكان الرجل ضيفه، ولولا مبادرته هو نفسه بالاعتذار بأنه ما قصد أن يتخذنا هزواً وما أراد بنا سوءاً، فقد رثى لحالنا وراعه أن تكون طليعة شباب السودان مطية لرجال الأحزاب السودانية «البرجوازية» ـ وكانت تلك أول مرة أسمع فيها تلك الصفة تلحق بأحزابنا السياسية ـ وآلمه أن نصير كقطع الشطرنج تلهو بها وتحركها أياديهم أنى شاءت وكيفما أرادت. . . وكان ذلك الرجل هو عبده دهب حسنين الذي كان له فيما بعد أبلغ الأثر في حياتنا الخاصة والسياسية إبان إقامتنا بمصر. وكان قد طاب له المقام بالقاهرة لسنين طويلة وعاش حياتها السياسية والاجتماعية طولاً وعرضاً حتى غدا أحد معالمها. وكان من قدامى الشيوعيين ومن ألصقهم بهنري كورييل الذي كان يتزعم أكبر الحلقات الشيوعية آنذاك وهي الحركة المصرية التي سميت فيما بعد باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني، بعد أن تم اندماج بعض الحلقات الأخرى فيها، وظل كورييل زعيماً فرداً لها إلى أن أمرته الحكومة المصرية بمغادرة البلاد في أواخر الأربعينات، بعد نشوب حرب فلسطين.

واشتد عداء الطلاب للحكومة والقصر وتفاقم، وأصبحت الجامعة المسرح الرئيسي للحركة السياسية في البلاد. ولم يكن ثمة يوم يمر دون أن يحدث صدام بين أعداء القصر والحكومة وبين أعوانها. وشيئاً فشيئاً وجدنا أنفسنا جزءاً من ذلك الصراع بل وصار بعضنا ضمن طليعته. وكان دور غالبيتنا يقتصر على المساهمة في حماية تجمعات المعسكر المناهض للدولة إذ لم نكن انداداً للزملاء المصريين في مقدرتهم على الإثارة والدعاية والخطابة، كما كانت هناك قناعة بأننا أقدر من غيرنا على استعمال «الكرباج» الذي كان يخيف البعض ويخشونه أكثر من خشيتهم العصي الغليظة.

وبمرور الأيام صرت المورد الأول للسياط بالجامعة، فقد هيأ لي عبده دهب الاتصال بأحد الرفاق الأزهريين وكان نوبياً لا زلت أذكر اسمه «الحركي» الزميل داؤود، وقد صار فيما بعد من زعماء الحركة الشيوعية في مصر. وكان لي «بالطو» من «التويد الاسكتلندي» الفاخر اشتريته من أحد خدم الانجليز الذين كانوا يعملون بالمصلحة الطبية بواد مدني حيث كان والدي قد نقل إلى هناك ناظراً لغابات مديرية النيل الأزرق، ولعله كان مالاً مسروقاً كما يقول رجال القانون إذ لم أكن قد دفعت ثمناً له غير جنيهات ثلاث، وكنت قد جعلت من الفراغ بين باطنه وظاهره مأوى للسياط أتسلل بها إلى داخل الحرم الجامعي.

ولعل نشاطي داخل الجامعة والذي صار يتصاعد بمرور الأيام هو الذي جذب إليّ أنظار الطالب الحقوقي سعد زغلول فؤاد. وهو الآن صحفي مرموق ويقيم بالعراق بعد أن هجر موطنه الأصلي بالقاهرة وبعد أن طلّق مهنة المحاماة وربما «الإرهاب» أيضاً فقد

كان يعتبر، وبحق، من زمرة الإرهابيين الذين يشار إليهم بالبنان حيث أن حصيلته من دماء جنود الانجليز كانت كبيرة خاصة أثناء معارك القتال والتل الكبير قبيل ثورة يوليو ١٩٥٢ وإبان حكومة الوفد الأخيرة التي كان يرأسها مصطفى النحاس باشا، مما حدا بالمستعمرين أن يضعوا ثمناً عالياً لرأسه حياً أو ميتاً. وقد امتد نشاطه السياسي فيما بعد إلى خارج حدود مصر إذ أسهم في معركة تحرير الجزائر.

اتصل بي سعد وعرض عليّ أن أتعاون معه وأن أنضم إلى حلقته الضيقة التي كانت تتصيد الجنود الانجليز وتقاتلهم أفراداً وجماعات وقد رافقته بالفعل مرتين أو ثلاث إلى «البارات» التي كان يرتادها الجنود والتي كانت تزحم شوارع سليمان باشا وشريف باشا والمنطقة التي تحيط بما يسمى الآن بميدان التحرير. وكان من المفروض أن يكون دوري متواضعاً بادىء الأمر إذ كان عليَّ أن أتدرب على مراقبة مداخل الخمارات التي يلجها هو وأن أحذره وأنبهه إلى ما يدور في حرمها الخارجي تأميناً له قبيل القاء القنبلة التي يحملها أو اطلاق الرصاص. وكان قاموس الإرهاب يطلق على من يقوم بمثل مهمتي اسم «المرايا» إذ عليه أن يعكس «للزعيم» ما يدور خارج مسرح نشاطه.

ولكن وقبل أن يشتد ساعدي ويقوى عودي ويكتمل تدريبي على بقية المهام والتي منها اجادة استعمال السلاح ورمي القنابل، اختفى سعد زغلول وعلمت منه فيما بعد وبعد فترة ليست بالقصيرة أنه كان قد أعتقل حيث كان من مرتادي المعتقلات ومن فرسان السجون.

ولكن القدر الذي أراد أن يبعدني عن زمرة «الإرهابيين» كتب عليّ خطى أخرى ظللت أمشيها لما يقارب ربع القرن... فكان أن صرت شيوعياً.

- ٦ -

وفي ذات يوم من مارس وهو شهر آذار الذي تغنى به أمير الشعراء شوقي، وكان الجو صحواً ورائعاً ككل أيام الربيع في مصر، أقبل عليّ زميلي الحقوقي أحمد زين العابدين وكنت قد رجعت لتوي من الجامعة وطلب مني أن أرافقه في مهمة عاجلة تهمه ولم يفصح لي عن كنهها. ولم أكن لأرد له طلباً أو أرفض له تكليفاً، فقد كان حبل الود بيني وبينه متصلاً وممدوداً، وكنت قد تعرفت عليه في أوائل الأربعينات عندما كنت طالباً بالثانوي وهو طالب بالمدارس العليا، إذ كان صديقاً لشقيقي الأكبر وكنت من المعجبين بمقالاته التي كانت تنشرها له بين الحين والآخر جريدة الرأي العام بعد تخرجه في مدرسة آداب الخرطوم والتحاقه بمصلحة المعارف مدرّساً. وقد دفعه نهمه للدراسة والتحصيل العلمي أن يترك التدريس وأن يركل الوظيفة وأن يلتحق معنا بكلية حقوق القاهرة طالباً جاداً ومثابراً.

وانطلق بنا الترام حتى إذا ما وقف في المحطة التي تسبق الجيزة تركناه واتجهنا نحو أحد الشقق بالدور الرابع من إحدى العمارات وكانت حديثة التصميم جميلة البناء. وهناك وجدنا ثلاثة من الشبان المصريين عرفت فيها بعد أن أحدهم كان مستأجر الشقة ولا أجد

الآن حرجاً في ذكر اسمه، فقد انقطعت صلته ومن زمن بالحركة الشيوعية وكان يشغل إلى وقت قريب منصباً هاماً بـالتلفزيـون المصري إذ كان مسؤولاً عن قسم الأخبار الخارجية فيه وقدمه لي أحمد زين العابدين بأنه «الزميل» صلاح زكي وكان طالباً معنا بالسنة الأولى بكلية الحقوق، أما الآخران فقد كان أحدهما عاملاً بمصنع «دخان وسجاير صوصه» الواقع عند مدخل الهرم وبالقرب من العمـرانية إحـدى ضواحي الجيزة، والآخـر كـان تلميـذاً بالسعيدية وكانت ولعلها لا تزال أشهر ثانويات القاهرة وقد بدا لي أنه ينتمي إلى أحد الأسر العريقة حيث كانت «النعمة» تبدو على وجهه كما يقول أهلنا الطيبون، وطلب مني أحمد زين أن أختار لنفسي اسماً غير اسمي الحقيقي ولما رأى اندهاشي من كل «القصة» شرح لي الأمر وقال إني أجلس في خلية شيوعية وأنه كان واثقاً أن الأسلوب الذي اتبعه معي كان هو الأسلوب الفعال والمجدي إذ كان على ثقة بأني سأكون شيوعياً في يوم من الأيام وأنه قد ظل وبعض الرفاق المسؤولين عن النشاط الشيوعي في كلية الحقوق يرصدون تصرفاتي وسلوكي أثناء المظاهرات وعلاقاتي بالطلبة ونشاطي داخل بيت السودان وداخل الجامعة وإنهم قد اقتنعوا بأهليتي للانضمام إلى تنظيمهم وأن طبيعة العمل السري وضرورة تأمينه تقتضيان أن يختار الزمـلاء أسماء غـير أسمائهم الحقيقية، وفي الحال اخترت اسم «بدري» وكان هذا في الأصل اسم أخ لوالدتي كنت أعزه كثيراً وهو شيخ البدري الريح وكان من أقطاب حزب الأشقاء ومن مؤسسيه.

وسيجد الذين يسجلون اسهام الطلاب السودانيين في الحركة الشيوعية المصرية عن الحقبة التاريخية من منتصف الأربعينات إلى

أوائل الخمسينات اسم «الزميل بدري» يتردد كثيراً إذ بقدر ما كنت مخلصاً لقضية الحزب وجريئاً بل وجسوراً في تنفيذ المهام التي أوكلت إليّ بقدر ما كنت كثير المخالفات التنظيمية والمصادمات والخناقات والحماقات فقد كنت فتى جامحاً شرساً نزقاً أسارع في كثير من الأحيان بالإثم والعدوان واستجيب للاستفزاز، أتحفز لصده بطيش واندفع لرده برعونة مما استدعى تطبيق العقوبات التي تقررها لائحة الحزب الصارمة والتي كانت تتصاعد بالعقوبة إلى الحد الذي تصل فيه إلى وقف النشاط الحزبي لفترات محددة ومن بعدها الفصل من عضوية الحزب ولكنني كنت أعود دائماً إلى «الحظيرة» مواصلاً للمشوار مع بقية الرفاق الذين كان يطيب لقلة منهم اقتحام المشاكل وإثارة المتاعب ويركبون المركب الصعب مثلي وكان هؤلاء أقرب الناس إلى قلبي.

وبعد أن تم لجمعنا اختيار الأسماء «الحركية» الجديدة أخطرنا أحمد زين بأنه سيكون المسؤول السياسي الذي يشرف على نشاط «الخلية» وأنه سيحضر اجتماعاتها كل يوم ثلاثاء يراجع معنا مسار «نضالنا» السياسي وسط الطلاب ويبدأ معنا سلسلة من المحاضرات التي تعرفنا بينابيع الماركسية وتتناول أصولها الفلسفية وتعالج نظرتها لتطور المجتمع وللاشتراكية وتتعرض للنظريات التي تسود علم الاقتصاد السياسي نقداً وتصنيفاً وتقويماً حيث أن الاقتصاد هو المحرك للتطور التاريخي لمجتمعات البشر. وأشار علينا بضرورة تأمين اجتماعاتنا وذلك بالاتفاق عند بداية كل اجتماع على أسباب وهمية نبرر بها لقاءنا إذا ما داهمتنا قوات الأمن أو البوليس السياسي وقال إنه سيكتفي في لقائه الأول هذا معنا بتبيان شروط العضوية للتنظيم الشيوعي الذي ننتمي إليه على أن

يحاضرنا في الاجتماع الذي يليه عن المادية الجدلية.

وتطرق لموضوع شروط العضوية وقال إنها تتلخص في الالتزام بأمور أربعة أولاها الخضوع لمبدأ المركزية الديمقراطية كأساس للسلطة داخل التنظيم، وثانيها دفع اشتراك، وثالثها الانتماء والعمل داخل أحد روافد التنظيم أو فروعه السرية أو العلنية حسب ما تقرره القيادة، ورابعها قبول الماركسية اللينينية كمرشد وهادٍ للعمل.

وقال إن المركزية الديمقراطية تعني خضوع الأجهزة الدنيا في الحزب للأجهزة العليا وأن ذلك أمر تقتضيه طبيعة النشاط السري الذي يتطلب الانضباط والحسم. وأن هناك قواعد تحكم الصراع المشروع داخل الحزب وأهمها تلك التي تسمح للأقلية بالتعبير الوافي عن رأيها داخل الخلية أو الوحدة التي تعمل بها على أن تلتزم في نهاية الأمر بتنفيذ قرارات الأغلبية وعلى أن تنصاع للأوامر والتعليمات الصادرة من قيادة التنظيم وأن يمارس الرفاق نشاطهم عن طريق وحداتهم وأن يبتعدوا عن «الاتصالات الجانبية» التي هي المدخل لنشوء «التكتلات» و «الشلل».

وتكلم عن أهمية دفع الاشتراكات المالية بوصفها المصدر الوحيد لتمويل نشاط التنظيم زاعماً أنه ليس صحيحاً القول بأن روسيا تمول التنظيمات الشيوعية كما يدعي الأعداء الطبقيون للبروليتاريا. ثم انتقل إلى ثالث الشروط وقال إنه ينبغي على كل الأعضاء العمل داخل تنظيمات الحزب حيث أنه تنظيم مقاتل ولا مكان فيه للهواة والمتبطلين بالوراثة أو بالممارسة كشأن الأحزاب البرجوازية.

وختم طوافه الفكري بتأكيد أهمية دراسة نظرية الماركسية وقرر «أنه ليس ثمة عمل ثوري من غير نظرية ثورية» وقال إن مشكلة الأحزاب التقليدية تكمن في عدم اهتدائها بنظرية ثورية تنير سبيلها. ولذلك فإن كل تصرفاتها تتسم بالعفوية والتلقائية وستظل تلهث وراء الجماهير، تحتضن مطالبها نفاقاً، وتدعي التزام جانب الشعب افتراء، وتفتقد النظرة الثاقبة التي تكشف لها الحجب مستقبلاً.

ومن هنا كانت أهمية الماركسية اللينينية كنظرية تهدي الكادحين إلى الطريق القويم، وترشدهم إلى حيث النعيم المقيم في الحياة الدنيا وليس في جنة السموات العلا كما يزعم الكهنوت والدين، والتي ليس لها هناك في الأصل قرار ولا معين، وكنظرية تمكّن المستضعفين في الأرض من اقامة دولتهم، دولة العدل والعلم اليقين.

وبالرغم من أن «الزميل المسؤول» قد مس الأمر مساً خفيفاً واقتضب الشرح إلا أنه بهرنا بما قال. وبدا لنا أنه قد ارتاد آفاقاً جديدة لم تيسر لنا من قبل. وقد أعجبنا ايما اعجاب بهذا التنظيم الفرد الذي لا يماثل أياً من الأحزاب التي كنا نعايشها والتي بدت لنا كَمّاً غير متجانس لا يجمع بين المنتمين لها غير شعارات براقة، وولاءات زائفة لزعامات بالية ولمؤسسات واهية تخفي وراءها مطامع ومصالح متباينة.

- ٧ -

وبالرغم من تنبيه أحمد زين العابدين لنا بضرورة الانضباط والتزام السرية المطلقة والحذر إلا أنني لم أستطع كتمان الأمر عن الخلص من أصدقائي الذين كانوا يتلهفون لمعرفة سر غيابي الذي أمتد لأكثر من ساعات. ولعلهم ظنوا، وبعض الظن إثم، إني ربما اقتحمت ساحة جديدة للمسرة والبهجة، أو دَلفتُ باباً للهوى والمتعة، فقد كانت مصر، وبحق، «أمّ الدنيا» يجد فيها الصالح ضالته، والطالح بغيته، وتزخر بالذي يطيب للورع التقي، وتعج بما يسعد النزق الشقي.

وأفشيت الخبر رغم «حصون» أحمد زين وقصصت الأمر بكل تفاصيله وحذافيره على صحبي وقد كان أكثرهم حماساً علي محمد إبراهيم الذي استهوته المغامرة وطلب مني ترشيحه للعضوية، أما حسان محمد الأمين فقد آثر الصمت وقد تبين لي فيما بعد أنه كان قد «جُنِد» قبلي وانضم إلى إحدى الخلايا فور وصولنا مصر ولكنه كان أكثر مني انضباطاً. ولم يكن ليسمح لأواصر الصداقة أن تعلو على التزامه الحزبي ومن ثم لم يشأ أن يبوح لنا بسره أو يروي لنا تجربته، أما ثالثهم فقد أصابته خيبة أمل إذ كان يتمنى للمغامرة مسرحاً آخر نرتاده معاً نرتع ونلهو ونعربد.

وكنت أتلهف لاجتماع الثلاثاء الموعود، وكان موضوع المحاضرة أو بالأحرى الدرس «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية». وقد استهواني موضوع المحاضرة وكنت أعتقد أن حصيلتي من المعرفة عنه واسعة إذ كنت أعشق علم التاريخ وخاصة ذاك الذي يبحث شؤون الأمم القديمة وكان من المواد الرئيسية التي درسناها في السنة الأولى بكلية آداب الخرطوم.

وكنت مولعاً بدراسة أمجاد قدماء المصريين ومفتوناً بالحضارة الإغريقية القديمة وتراثها الهيليني وكنت قد قرأت أن «الديالكتيك» هو الاسم الذي كان يطلقه الاغريق على فن الحوار وكان الظن عندهم بل الاعتقاد واليقين أن الجدل هو الأب الشرعي للفكرة وأنه كلما احتد الحوار واحتدم الجدال تعالت الأفكار وسمت، وازدهرت المعرفة ونمت. وتأسيساً على ذلك وقياساً عليه فقد أعتبر الديالكتيك أساساً للحركة وللتطور.

ولكن ما أن بدأ أحمد زين العابدين الدرس حتى شعرت بضآلة حصيلتي. فقد تطرق إلى هيجل وفوير باخ وقارن بين مثالية هذا ومادية ذاك ثم اتكأ على كارل ماركس وأشار إلى أوجه خلافه واتفاقه مع كل من الفيلسوفين الألمانيين. وقرر أن هيجل وماركس كانا أول من قدم صورة واضحة للحركة وأشكالها وأصلها الديالكتيكي ولكن ما يعيب هيجل أنه كان مثالياً. وقد تدارك ماركس الأمر وأعاد صياغة أفكار هيجل بأن نزع منها إطارها المثالي وأبقى على نواتها. وكذلك فعل فردريك انجلز الذي أسند الغموض والمثالية التي تغلف أفكار هيجل إلى اعتقاد هذا بأن كافة الظواهر المادية ما هي إلا مجرد انعكاس للفكرة وأنه لا وجود للمادة خارج العقل، بينما يرى ماركس وانجلز وزمرتهما

أن ديالكتيك العقل هو تعبير وانعكاس لعالم موجود بالفعل في الطبيعة والتاريخ. وعليه فينبغي، في نظر الماركسيين تطهير منطق هيجل وتخليصه من جوانبه المثالية.

وبعد أن أسهب أحمد زين في الشرح أجرى مقارنة سريعة بين التفكير الديالكتيكي ونقيضه التفكير الميتافيزيقي وقال إن الأخير ينظر للظواهر نظرة منعزلة ولا يرى ثمة علاقات متداخلة بينها تحكم مسارها وتؤثر من ثم على تطورها وأشكالها وصورها.

ثم أردف ذلك بشرح مقتضب للمادية التاريخية ووصفها بأنها النظرية الوحيدة التي تقدم التفسير الصائب للمسار التاريخي لمجتمعات البشر حيث أنها لا تكتفي بتفسير الماضي والحاضر فحسب وإنما تنير سبيل التكهن بالمستقبل أيضاً.

وبعد أن صال وجال في هذه الآفاق الرحبة قدم لنا قائمة بأسماء بعض الكتب ونصحنا بالاطلاع عليها وهدانا إلى «مكتبة الميدان» وكانت قد سميت كذلك لأنها تقع في ميدان مصطفى كامل باشا وقد علمت فيما بعد أنها كانت ملكاً لهنري كورييل وكانت رخيصة الأسعار جداً.

وفي نهاية الجلسة استقر رأينا على أن تعقد الخلية اجتماعين في الأسبوع وتَعهَّد المسؤول السياسي بالمواظبة على حضور اجتماع الثلاثاء على أن نجتمع بمفردنا كل يوم أحد.

ومرة أخرى قصصت ما دار على صديقي علي محمد إبراهيم وتساءلت عن السر في هذه النظرية التي تجعل من الماركسيين قمماً شاهقة للفكر ومنارات للثقافة، فقد كنت أشعر وأنا أستمع

للمحاضرة وكأنما أنا قزم صغير يقف بين يدي مارد عملاق. . . وتعاهدنا على سبر غورها والانكباب على دراستها وتمحيصها.

وذهبت لاجتماع الأحد ولكن سامرنا انفض سريعاً حيث لم نكن ندري ماذا نفعل وماذا نقول.

وجاء يوم الثلاثاء ولم يحضر أحمد زين العابدين كما كان الوعد والعهد فاقترحت على الرفاق مواصلة مناقشة موضوع المحاضرة السابقة وكنت قد اقتنيت من «مكتبة الميدان» كتاب «المادية الديالكتيكية ـ ركيزة الفكر الماركسي اللينيني ـ» لمؤلفه ف. ادوراتسكي وهو كتاب طبع في نيويورك في عام ١٩٣٤، ولعلني لا زلت أحتفظ به. وشهد الله كم عانيت في استيعاب محتوياته ولكن القدر الذي تيسر لي منه حينذاك جعلني فارس الحلبة في ذلك الاجتماع.

وكذلك فعلت في اجتماع الأحد الذي تلاه بعد أن واصلت التهام أفكار ادوراتسكي.

وأهلّ علينا يوم الثلاثاء وكنت أتشوق للدرس الجديد ولكن أحمد زين تغيب أيضاً. ولما كان معيني من الفلسفة الديالكتيكية الذي استعرضت به في الاجتماعين السابقين، وعلى قلته، قد نضب فقد آثرنا فض الاجتماع، وكانت خيبة أملنا كبيرة إذ لم يتفضل المسؤول السياسي أو أي من زملائه «الكبار» بإخطارنا بأسباب غيابه.

وتوجهت إلى غرفة أحمد زين العابدين «ببيت السودان» حيث كنا نسكن سوياً وسألته عن عدم حضوره الاجتماع فذكر لي أن صلته بالتنظيم قد انقطعت، ولكنه لم يشأ أن يزيد أو يفصح.

ومضى أكثر من أسبوع ولم يتصل بي أحد من الرفاق فأعلنت أمري وشكوت بثي لصديقي حسان محمـد الأمين بـالرغم من التنبيه المسبق علينا بتجنب «الاتصالات الجانبية» ووعدني خيراً.

- ٨ -

وقدمني عمر محمد إبراهيم الذي كان قد سبقنا إلى مصر والتحق بكلية طب القصر العيني إلى طالب مصري بكلية الهندسة يدعى حسين الغمري وأخبرني أنه سيكون المسؤول عن الخلية الجديدة التي أشكل أنا وأخوه علي محمد ابراهيم نواتها وقد علمت منه أن حسان محمد الأمين كان قد نقل إليه استيائي من إهمال الرفاق لأمري.

ونقلت بدوري النبأ السار لصديقي علي الذي كان يعجب لعدم مبادرة الشيوعيين بالإتصال به من قبل وهو الذي كان يتمتع بنفوذ كبير وسط الطلاب بوصفه الأمين العام لاتحاد الطلاب السودانيين الذي جاوزت عضويته حينذاك ثلاثة آلاف من الطلاب الثانويين والأزهريين والجامعيين.

وعقدنا أول اجتماع للخلية الجديدة بحديقة الحيوان بالجيزة حيث كنا نسكن قريباً منها إذ أن أول بيت وضع للطلاب السودانيين كان بحي الأورمان.

وبعد أن فرغنا من مناقشة المواضيع التي حددها الزميل المسؤول أقمت وعلي صلاة العصر وقد لاحظت الدهشة التي

أصابت «صاحبنا» ولكنه آثر الصمت، وبعدها دعوناه إلى «حديقة الشاي» حيث بسطنا له الرزق وحشدنا له المائدة بما لذ وطاب من الحلويات «والجاتو» ومن الشاطر والمشطور وما بينهما. وبعد أن التهم ما تيسر له هنيئاً مريئاً غمزنا بل وزجرنا وبدا له أننا نحتاج لممارسة النقد والنقد الذاتي للتخلص من رواسبنا البرجوازية ومن مخلفات أخلاق شبه الإقطاع التي لاحظ أنها تتملكنا وأضاف بأن خزينة التنظيم كانت أولى بقيمة الشاي وتوابعه... وكظمت غيظي وكذلك فعل صديقي علي.

وذات مساء دعانا عوض عبد الرازق للأنس والسمر بملهى «اللوفر» وهناك وجدنا عبده دهب الذي سحرنا بأحاديثه الممتعة وبقصصه الطريفة التي لا تنتهي فقد بدأ يسرد تاريخ حياته بمصر منذ منتصف الثلاثينات وكيف أن كراهيته للانجليز المستعمرين قد دفعته للإتصال بالفاشيست الطليان شأنه في ذلك شأن البعض من شباب مصر آنذاك، وكيف أزالت في النهاية معارك ستالينجراد وصمود السوفيت الغشاوة عن بصره ثم عن كيفية انضمامه لزمرة الشيوعيين بعد أن توطدت الصلة بينه وبين بعض المثقفين من شباب اليهود وعلى رأسهم هنري كورييل وهليل شوارتز.

وتوالت اتصالاتنا بعبده دهب وتعددت جلساتنا معه في اللوفر «والتب توب» «وقهوة البرابرة» وتواترت قصصه عن الاتحاد السوفيتي جنة الله في الأرض وعن سيد المناضلين ديمتروف الذي اتهمه النازيون بحرق الريخستاغ وكافأه السوفيت بأن نصبوه أميناً عاماً للدولية الثالثة (الكومنترن). وعن ستالين الإمام، عبقري الزمان، الذي لم ينعم رحم امرأة بجنين مثله، ولم يلفظ له صنواً ولا نداً، ولم يكرر له شبيهاً أو نظيراً كما قال.

وكان عبده رجلاً كريماً لا يقف كرمه عند حد صرفه ما في جيبه من مال بل يتعدى ذلك ويمتد إلى التاريخ الذي كان يثريه بالقصص التي لم يعايشها بشر غيره فقد حباه الله بخيال خصب ولسان زرب وقدرة على الإثارة فريدة.

وطلبت منه ذات ليلة أن ييسر لنا لقاء هنري كورييل حيث كان قد شوقنا لرؤيته وأذكر أن ذلك قد تم بالفعل في اليوم التالي «لالتماسنا» المقابلة «السنية» وكان أن أكثر كورييل من الثناء على الشعب السوداني وأبدى إعجابه بمقولة الرئيس أزهري عندما هبط مصر على رأس وفد السودان وقال انه بقدر إيمانه بوحدة الكفاح المشترك بين الشعبين المصري والسوداني وبما يمكن أن تحققه تلك الوحدة من منافع وإيجابيات وما تُفجر من خير وبركـات بقدر ما يخشى على السودانيين «الطيبين» من سلبيات الحياة المصرية، حيث أن عدوى تلك السلبيات لا تقتصر في نظره على احتمال اكتساب زعماء السودان لبعض خصائل الباشوات الرديئة وعلى تأثر الأحزاب السودانية بسلوك وافك أحزاب الإقطاع والرأسمالية المصرية وإنما سيمتد الأثر كذلك إلى الحركة الشيوعية السودانية اليافعة، التي لا بد أن يصيبها شيء من أمراض الحركة الشيوعية المصرية الأم. وعليه فإنه ينبغي على الشيوعيين السودانيين أن يحتاطوا للأمر وأن يتجنبوا أخطر أمراض التنظيمات الشيوعية وهو الانقسام والتشتت. وقال إنه غضب غاية الغضب عندما علم أن نفراً من السودانيين قد انضم إلى تنظيم «أسكرا». وسألني عن الأسباب التي دعتني لترك (ح.م.) ـ الحركة المصرية ـ التي كان يتزعمها هو وعن انتسابي «لأسكرا». وأبديت دهشتي لما يقول إذ لم يكن قد تبين لي حتى ذلك الوقت أن عمر محمد إبراهيم

وحسان محمد الأمين كانا قد زجا بي في تنظيم آخر غير ذلك الذي كان ينتمي إليه أحمد زين العابدين. وشرحت لـه الأمر وطيب الرجل خاطري وقال إنه لا تثريب عليَّ إذ أنها مسؤولية رفاقـه الذين أهملوا أمري وأنه سيتكلم مع الزميل «راشد» في الأمر. ولم أكن أعلم من هو راشد هذا الذي يقصده ولكن عبده دهب أشار إلى أنه الزميل عبد الخالق محجوب الذي كان كوربيل قد قذف به وصعده «بالعمود» إلى عضوية اللجنة المركزيـة متخطيـاً بذلـك السلم التنظيمي وضارباً بلائحة الحزب عرض الحائط. وكانت حجته في ذلك أنه بجانب ذكاء عبد الخالق وثقافته فإنه قد قصد أن يدنيه قريباً منه إذ كان قد تنبأ للفتى بمستقبل زاهر في الحركة الشيوعية السودانية التي ستتأثر كثيراً سلباً وإيجاباً بقيادته ومن هنا كان اهتمامه به وحرصه على تربيته في روح المسؤولية وتدريبه على فن القيادة.

وقد صدقت بالطبع نبوءته.

وثمة كشف آخر للحجب وتكهن بالمستقبل فقد قال إنه رغم ارتماء وفد السودان وأحزابه الاتحادية في أحضان باشوات مصر وتـزلفهم إلى حاشيـة الملك وتمسحهم بـأعتـاب السـراي فـإن البرجوازية السودانية ستتنصل في نهاية المطاف من شعار وحدة وادي النيل وستنادي بل وستحقق الاستقلال إذ أن حرصها على احتكار خيرات البلاد وإمكانـات السودان الـزاخرة ومصـالحها الاقتصـادية، المـالية والتجـارية، تتنـاقض مع أطمـاع الإقطاع والرأسمالية المصرية.

وعندما هممنا بالإنصراف أشار كوربيل إلى عبده دهب بأن يضمني إلى أحد الفروع التابعة لسكرتارية الشباب والتي كـان

عبده أحد قادتها الحزبيين كما نصح (ووجه) بأن يستفاد من خبرة علي محمد إبراهيم التي اكتسبها خلال تأسيس اتحاد الطلبة السودانيين وذلك بضمه «للفراكشن» الذي أنيط به تنظيم الحركة الموحدة لطلبة ثانويات القطر المصري. وقد أشعرنا عبده بأن اختيارنا للموقعين الجديدين الهامين فيه رد لاعتبارنا وتلميح بثقة الزميل يونس بنا. وكان هذا هو الاسم الحركي لكورييل.

وقد علمت منه فيما بعد، وبعد أن توطدت صلتي به أنه قد اختار الاسم المستعار تيمناً بيونس بن نينوى الذي تبرم بالتوجيه الإلهي له بالمثابرة على دعوة قومه للهداية والتقوى وذهب مُغاضباً فكان جزاؤه أن التقمه الحوت وهو مليم. ولكنه وعى الدرس بعد أن لفظ بالعراء وهو سقيم فثابر وواظب وصبر على أذى القوم إلى أن هدوا إلى الصراط المستقيم.

وبقدر ما تعجبت لأمري وسذاجتي، إذ لعب بي القوم لعب الصوالج بالأكر، وبقدر ما أعجبت بهذا «الخواجة» المليونير الذي «رفس النعمة» طوعاً واختياراً وآثر ركوب المركب الصعب ورفقة أبناء الكادحين على صحبة نظرائه من أبناء الذوات والموسرين، فقد ورث الملايين من أبيه الذي كان يملك مع شريك يهودي آخر بنكاً للتسليف العقاري وكذلك كان حال زوجته «روزت» يسراً وثراء.

وبعدها ببضعة أسابيع بدأت محادثات الوحدة بين التنظيمات الشيوعية في مصر وأساساً بين «ح.م.» «وأسكرا»... وكان أن ولدت حدتو ـ الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ـ تجسيداً لتلك الوحدة... وقد اشترك الرفاق السودانيون في مداولاتها وأسهموا فيها إسهاماً محموداً.

- ٩ -

وتزايد نشاط الطلاب السودانيين وتعاظم دورهم وسط الحركة السياسية المناوئة للحكومة والقصر وبرز اتحادهم واشتهر كمنبر يجاهر الدولة والنظام بالعداء، وأصبح لممثلي إتحاد الطلبة السودانيين كلمة في كل ندوة وفي كل تجمع للمعارضة وأضحى بيت السودان منتدى لزعماء الطلبة من الوفديين والشيوعيين بل صار مأوى للفارين من وجه البوليس السياسي فقد كان كدار أبي سفيان من دخله فقد أمن وكانت وزارة النقراش باشا تَحْذَرُ مغبة الصدام مع الطلبة السودانيين وتخشى إثارة الرأي العام السوداني الذي كان يؤمل خيراً كثيراً في طلابه المغتربين.

وكانت إدارة شؤون الطلبة السودانيين في وزارة المعارف بالقاهرة في حيرة من الأمر وظل القائمون عليها يفكرون ويقدرون وأخيراً استقر الرأي بعد مشورة بعض من أعضاء وفد السودان على نبذ أسلوب «اللين» والمهادنة مع الطلاب... فكان أن بدأنا نشهد تسلل بعض الطلبة المصريين المعروفين بتعاونهم مع سلطات البوليس السياسي إلى داخل بيت السودان، ولم يكن ليشفع لهم إدعاؤهم أنهم إنما كانوا يزورون بعض الأصدقاء فقد قابلناهم

بكثير من اللؤم «والرذالة» ولم يسلم بعضهم من صفعات أيدينا ومن الأذى الجسماني. وانقطعت زياراتهم وردوا على أعقابهم، ولكنهم استبدلوا «بالمخبرين» الذين كانوا يجوبون الشوارع المحيطة ببيت السودان ويرصدون كل حركة وكل داخل وكل خارج. وبدورهم لم يسلموا من أذانا إذ كنا نتحرش بهم، نسلقهم بألسنة حداد ونترصدهم ونغتنم فرصة انفراد بعضهم ونكيل لهم اللكمات والضربات.

وذات صباح أخطرنا مساعد المشرف على بيت السودان بأن مراقباً جديداً عرف بالصلف والغرور قد عيّن ليتربع على قمة إدارة شؤون الطلاب السودانيين وأنه قد كلف بتأديب الطلبة وأخذ المشاغبين منهم بالشدة وقد حددت لمهمته فترة قصيرة يعود بعدها لعمله بالسودان.

ولم يكن التعس شقي الحال الذي اختير بغريب عن السودانيين فقد كان أحد الذين عملوا برئاسة البعثة التعليمية المصرية بالخرطوم وكانت قد نشبت بسببه أزمة بين حكومة السودان والحكومة المصرية حول بعض الآراء التي سجلها عن سياسة الإنجليز التعليمية في «جنوب الوادي».

وقد روى الذي نقل إلينا خبر تعيينه الجديد أنه إبان عمله بالخرطوم كان يصر على تأديب التلاميذ السودانيين الذين كانوا يعبرون عن بغضهم للإستعمار البريطاني بالتظاهر والخطابة في حرم المدارس، ويحث المدرسين على التزام سياسة الشدة معهم.

وقيل أنه تمثل في إحدى زلاته وهناته الكثر بأبي الطيب المتنبي في هجائه لكافور حيث ضرورة العصا للتأديب:

لا تشتـري العبد إلا والعصـا معه
إن العبيــد لأنجــاس منــاكيــد

وقد حاول استدراك الأمر وقال أنه ما قصد تشبيه السودانيين بالعبيد أصلاً وعرقاً ونسباً وإنما سلوكاً.

وبالطبع لم يسعفه استدراكه الذي كان ثافية الأثافي.

وجاءنا يختال كالطاووس، فقد كان الرجـل وسيماً زاده الله بسطة في الجسم ولكنه لم يتم عليه النعمة التي حبا بها طالوت ملك بني إسرائيل الذي اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم. وبدا لنا أن الرجل لم يهتد بموعظة لقمان الحكيم لابنه ولم يعها أو لعله ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فقد كان مختالاً فخوراً يمشي في الأرض مرحاً وكأنما هو خارق لها وكأنما هو بالغ الجبال طولاً.

وبعد وصوله بقليل انضم إلى القافلة الدكتور محمد فريد بك أبو حديد أحد كبار رجال التربية بوزارة المعارف المصرية آنذاك. وبدا لنا أن الرجل يكتم الغيظ وهو كظيم فقـد كان متجهـماً ووجهه مسوداً. . . وتوجسنا شراً.

وصدق حدسنا وحدث ما توقعناه فقد بادر بشجب كثير من تصرفاتنا التي عددها وعلى رأسها تبديد نغرف منا لبعض المنقولات المخصصة لانتفاع الطلاب بها داخل بيت السودان وكان يقصدني وزمـلائي علي محمـد إبراهيم وحسـان محمد الأمـين ومحجـوب البدوي، إذ كنا قد استأجرنا «شقة مفروشة» بالقرب من بيت الأورمان وكانت تنقصنا بعض «البطاطين» التي حملناها معنا لنزلنا

الجديد لتقينا شر البرد الذي قتل «أخانا» أباذر. وكـان دافعنا للرحيل حرصنا على توفير الظروف التي تساعدنا على (المذاكرة) إذ كانت امتحانات النقل من السنة الدراسية الأولى قد شـارفت البداية وكانت ثمة عوامل شتى قد تضافرت فضاعفت من معاناتنا ومن خشيتنا عدم اجتياز عقبة الامتحان. فبجانب كثـرة المواد الدراسية وتعددها كان هناك النشاط الشيوعي الذي استهوانـا فمشينا في متاهاته وطرقه الوعرة مكبين على وجوهنا وشغلنا بذلك عن المواظبة والمثابرة على التحصيل العلمي، عدا محجوب البدوي الذي ظل صديقاً لنا وآثر الرحيل معنا بالرغم من عدم انتمائه للحركة الشيوعية بل وبالرغم من عدائه لها. كما أننا كنـا قد وصلنا القاهرة بعد أكثر من شهرين ونصف من انتظام الدراسة الجامعية إذ كـان العام الـدراسي قد بـدأ في منتصف أكتوبـر ١٩٤٦.

وبعد أن فرغ الرجل من حديثه قدم لنا المدير الجديد، الذي كانت بداية نطقه كفراً إذ بادر بتعداد مآثر مصر على السودان ومنـذ عهد الفـراعنة، وأبـطل كل خـير قدمتـه مصر للطلاب السودانيين بالمن والأذى. وحذر وأنذر بأن عهداً جديداً قد بدأ وأنه سيأخذ بالشدة كل من تحدثه نفسه وكل من يتجاوز اللائحة الصارمة التي سيعدها لتحكم مسار وسلوك الطلاب داخل البيت وفي الجامعة.

وصبرنا حتى فرغ من هذيانه وتيهه.

وجاء دورنا ولم نكتف بنعته بكل الصفات الرديئة التي حفظناها واكتسبناها حديثاً من انتمائنا للشيوعيين وإنما أردفناها بكل صفة

قبيحة طفح بها قاموس الشتائم التقليدي وتجاوزنا الأمر وعبرنا إلى الملك الذي لم يسلم هو ولا وزراؤه ولا حاشيته من مغبة غضبتنا التي كانت بحق غضبة مضرية إذ لم يرع الرجل فينا إلاًّ ولا ذِمة.

وبُهتْ الذي خاصمَ وفجَر.

وحاول بعضنا، ولعلي كنت أحدهم، أن يصفعه ولكنه آثر في النهاية السلامة فقد فر بجلده وخرج ومن معه سراعاً مهطعين مقنعي رؤوسهم كأنهم إلى نصب يرفضون.

ولم نكن لنأبه لما يحدث لنا كرد فعل لمغبة أعمالنا وقد كنا نظن أننا دائماً على حق وأن سوانا على باطل وأن رسالتنا تقويم المعوج، وكنا نزعم أننا دائماً قادرون على ذلك كما كان زعم عمر بن حيي التغلبي الذي قال:

وكنا إذا الجبار صغر خده
أقمنا له من ميله فتقوما

وحدث ما كان يخشاه البعض وما توقعه «العقلاء» منا إذ لم تمض إلا سويعات حتى داهمتنا قوات الأمن والبوليس السياسي وألقوا القبض على عشرة من (الكرام) كنت أحدهم بالطبع.

وزج بنا في سيارة نقل حكومية كبيرة، يحيط بنا «المخبرون» ورجال الشرطة المدججين بالسلاح وانطلقت بنا إلى «سجن مصر» وكنا نردد الهتافات المعادية للحكومة وما أن وصلنا إلى هناك حتى أمرنا مأمور السجن، وكان ضابطاً عتلاً «شحطاً» كث الشوارب، أن نكف عن الهتافات التي هي عبث لا يسمح به في دنياه التي لا تمت إلى دنيا الآدمين بنسب ولا صلة بالرغم من موقع سجنه الجغرافي، الذي كان بحي القلعة أحد معالم القاهرة حيث أن السجن كان قد بناه الأتراك في القرن التاسع عشر عندما كانت القاهرة صغيرة المساحة والحجم ولم يكن في حسبان مصمميه أن العاصمة ستمتد وتنمو إلى القدر الذي يجعل مبانيها ومرافقها تحيط بالسجن وتكتم أنفاسه.

وكنت وعوض عبد الرازق أكثر الرفاق ضجيجاً وهتافاً ولما لم نأبه لتعليماته فقد أشار «المارد» الحاكم بأمره إشارة سارع مرافقوه بالإستجابة لها. وفي الحال أخذوا بتلابيبي وعوض وزجوا بكل منا في «زنزانة» منفردة بعد أن أوسعونا ضرباً وسباباً.

وكانت تجربة قاسية بالرغم من قصر المدة التي قضيناها في

«الحبس الإنفرادي» إذ أن الحجرة أو على الأصح «الحفرة» لم تكن لتسمح للفرد إلا بأحد خيارين إما أن يقف على قدميه أو يجلس القرفصاء ولم يكن من سبيل لأن يمد رجليه دعك عن أن يتمطى. وقد أحسن «البق» وصحبه استقبالي وقد ساعدهم الظلام الحالك ورطوبة المكان على أداء الواجب وعلى حسن الوفادة وكرم الضيافة.

ولولا خوفي من «الشينة» التي تُعيب «إخوان فاطمة» لكنت قد صرخت أو زعقت «كما يقول «إخواننا» المصريون، ولكن وبعد أن مضت بضع سويعات لم أجد بداً من القرع وبشدة على الباب ولا أدري أيّنا قد سبق الآخر أنا أو عوض إذ ظل هو أيضاً يشكو بثه لباب «زنزانته» الذي كان ضحية لضرباته المتواصلة.

وأخيراً تحقق المنى وحل المرتجى فقد أخرجنا من «المصيبة» التي كنا فيها كما أخرج واردو السيارة يوسف بن يعقوب من الجب، ولعلها كانت من أسعد لحظات حياتي. وساقونا إلى حيث بقية الأعزاء الذين كانوا يقتسمون حجرتين من حجر السجن العتيد وكان نصيبي رفقة عبد الخالق محجوب وعلي محمد إبراهيم وحسان محمد الأمين وحمد قباني.

وبالرغم من أن نزلي الجديد لم يكن ليتميز عن سابقه إلا من حيث الاتساع النسبي والإضاءة الخافتة إذ كان بأعلى الحجرة كوة صغيرة إلا أني سعدت به أيما سعادة فقد كانت صحبة الرفاق خير عزاء لنا في محنتنا.

وغشى الليل وساد السكون السجن بعد أن كان يعج بحركة أقدام الحراس وبصراخ المسجونين «وبنكات» وضحكات بعض مرتاديه الذين روضوا أنفسهم على الحياة فيه. ولكن الظلمة

الحالكة التي فرضت الهدوء والسكينة على العنصر البشري من النزلاء أعادت الحياة لنوع آخر من المخلوقات، فقد دبت الروح في هوام السجن وخشاش الأرض التي لم ترحم عجزنا وظلت تلدغنا وتلسعنا وتمتص ما تيسر لها من دمائنا وتعبث بمداخل أذاننا وأنوفنا إلى أن جاء الخلاص مع تباشير الفجر.

وأصبح الصبح وساق خزنة السجن زمرتنا إلى حيث «الحمامات» وطلبوا منا خلع ملابسنا كلها ولما استفسرنا عن حكمة الأمر قالوا: إنهم يريدون إزالة الشعر من كل منابته في أجسادنا وبالطبع رفضنا أن نبدي لهم سؤاتنا ولم يثننا عن موقفنا إصرار «الزبانية» على ضرورة الإلتزام بالقواعد الصحية التي تقررها القوانين وتفرضها لوائح السجن. . . وكانت أزمة،وخشي المأمور أن تمتد إلى بقية النزلاء الذين كانوا قد فوجئوا بقدومنا والذين أعجبتهم صلابتنا وعدم اكتراثنا لتهديد المأمور وحاشيته.

واضطر غليظ القلب والطبع أن يرضخ للأمر بعد أن صب علينا بلسانه جام غضبه، فقد كان الرجل سباباً لعاناً، ولعلها كانت إحدى مؤهلاته لتولي إدارة السجن الكبير.

ولبثنا بالسجن بضعة أيام وكأنها بضع سنين قُدمنا بعدها للمحاكمة التي كانت مظاهرة سياسية استغلها حزب الوفد كمنبر للإثارة ضد الحكومة التي لم ترع حرمات الجوار والأخوة مع الأشقاء السودانيين، فقد كلف الحزب نخبة من كبار محاميه للدفاع عنا وكان على رأسهم سليمان باشا غنام السكرتير المساعد لحزب الوفد ووزير التجارة في إحدى وزارات النحاس باشا وسارع بعضهم وقدم لنا ما لذ وطاب من المأكولات التي قالوا أن

السيدة الفضلى زينب الوكيل حرم النحاس باشا قد أمرت «شخصياً» بإعدادها لنا.

وانتهت المحاكمة بإدانتنا جميعاً وحكم عليّ بالغرامة وضمان حسن السير والسلوك وعلى بقية الزملاء بالضمان فقط إذ كنت المتهم الأول ـ وقد تبادل محامونا التهاني، فقد كان الكل يتوقع السجن أو على الأقل الحبس لجمعنا حيث أن تهمة العيب في الذات الملكية كانت تترأس قائمة التهم، ولكن يظهر أن وزير العدل، لاعتبارات سياسية كان قد وجه النيابة العامة بعدم الإصرار على طلب تشديد العقوبة.

ولكن إدارة شؤون الطلاب السودانيين بوزارة المعارف لم تكتف بحكم القضاء فقد قررت طردنا من بيت السودان وحرماننا من بقية امتيازات البعثة التي كان على رأسها بجانب مجانية السكن والأكل «مصاريف الجيب» الشهرية البالغ قدرها خمس جنيهات مصرية وكان ذلك آنذاك مبلغاً «محترماً».

وبدأت متاعبنا الحقيقية في مصر واضطر بعضنا أن ينهي دراسته وأن يرجع نهائياً للسودان بعد أن فشلت مساعي بعض كرام السودانيين في مصر وعلى رأسهم علي بك البربر لإعادة البعثة لهم. وكان أمام المتشددين الحاملين علينا الدكتور عبد الرازق السنهوري باشا وزير المعارف في ذلك الوقت وكان قد ألقى خطاباً ضافياً في مجلس النواب رداً على استجوابات وأسئلة النواب الوفديين سرد فيه قصة الوزارة معنا وعدد تجاوزاتنا للوائح التي تحدد متطلبات الإقامة والسلوك الحسن ببيت السودان والتي تقرر ضوابط التمتع بامتيازات البعثة الممنوحة للطلاب السودانيين،

ولمح إلى استهتارنا بالقيم وبالدستور الذي يوقر (المليـك) سيد البلاد وإلى إخلالنا بالقوانين وأشار إلى تسرب الأفكار (الهدامة) وتغلغل المخربين بين صفوفنا.

- ١١ -

وجلسنا لامتحان الانتقال من السنة الأولى في مطلع الأسبوع الثالث من مايو ١٩٤٧. وشهد الله كم عانينا ونحن نعد العدة له. ولكن الله لطف وقدر وستر (وجاءت سليمة) كما يقولون. وكنا نتوق بل ونتلهف للسفر للسودان لقضاء العطلة الصيفية فقد كانت تلك أول مرة نغترب عن الأهل.

وتزودنا من مكتبة الميدان بما تيسر لنا من الكتب الماركسية وقد أفاء المشرفون عليها وجادوا علينا ببعض المطبوعات تعبيراً عن احترامهم لنضال الطلبة السودانيين بمصر وتقديـراً منهم لشغفنا بدراسة الماركسية اللينينية الستالينية وكان هذا اسم نظرية النضال الثوري على عهد ستالين وعندما كان حياً يرزق. وكانت لدى الرفاق اليهود المتمصرين قناعة بأن مثقفي السودان يتميزون عن رصفائهم من العرب والمصريين بحب القراءة والإطلاع.

وانطلق بنا القطار إلى الشلال، الميناء النهري، التي وصلناها في صبيحة اليوم التالي. وكم كانت فرحتنا ونحن نرتقي الدرج إلى الباخرة السودانية في طريقها إلى وادي حلفا التي وصلناها بعد يوم وليلة لم نشعر خلالها بالضيق أو الضجر فقد كنا شباباً وكنا

أصدقاء وركبنا القطار الذي عبر بنا صحراء الغتمور ووقف بنا عند (أبي حمد) بعد غروب الشمس بقليل والتهمنا ما جادت به بائعات (الكسرة والملاح) اللائي كن يفترشن أرض المحطة ورمالها وشعرنا أننا في أرض السودان حقاً وصدقاً.

وبعد أيام قليلة قضيتها مع الأهل والزملاء بأم درمان توجهت إلى وادي مدنى حيث كان والدي يعمل موظفاً بمصلحة الزراعة والغابات وكان عبد الخالق قد طلب مني قبيل مبارحتنا القاهرة أن أعمل على تأسيس فرع للحركة الشيوعية السودانية بواد مدنى يكون نواة لانطلاق الدعوة وسط فلاحي الجزيرة وخاصة بين العمال الزراعيين، كما وجه عوض عبد الرازق والتجاني الطيب بمساعدة الرفاق في قيادة الحركة بالعاصمة الوطنية أم درمان. أما هو فقد قرر أن ينزل ضيفاً على المستنيرين من عمال عطبرة مركز الثقل في الحركة العمالية السودانية لتثبيت دعائم النشاط الحزبي وسطهم، وقد فعل، وكانت النتيجة أن برز قاسم أمين والشفيع أحمد الشيخ وبعدهم إبراهيم زكريا والحاج عبد الرحمن وهاشم السعيد كقادة للحركة النقابية والعمالية هناك وعلى نطاق القطر وأصبحوا من كادر الحزب الشيوعي المرموقين.

وتكونت أول خلية شيوعية بواد مدنى أذكر من أعضائها البارزين بابكر كرار النور الذي التقطه سعد أمير طه ليكون لنا عدواً وحزناً فقد فر بدينه من رفقتنا بعد اجتماعين أو ثلاثة، وبعد أن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومن الحنث العظيم ومن مادية الماركسية التي ترفض المسلمات الدينية وتعارض التفكير الميتافيزيقي.

وكانت تتجاذبني فكرتان حول تأسيس العمل الحزبي فقد كنت مقتنعاً بأن الخليتين أو الثلاث التي كونتها أنا وسعد أمير لن تقوى على أداء المهمة وعلى مواصلة المسيرة بعد رجوعنا إلى مصر بانتهاء العطلة الصيفية. وإن تحايلت تلك الخلايا على البقاء، وكتب لها النجاة من عوامل الفناء وسلبيات الحياة بعاصمة الجزيرة، فستظل وتبقى مجرد مجموعة من المثقفين الذين يجيدون الثرثرة والتغني بأفضال الشيوعية وبأمجاد نضالهم هم وحيث لا نضال، وسيكون ضررهم على الحركة الثورية أكثر من نفعهم إذ سيتركون بصمات نقائصهم وسلبياتهم على مستقبل مسارها وستؤدي بهم الخلافات التي لا بد أن تثيرها فردية المثقفين ويفجرها غرور بعضهم واستعلاؤهم إلى قسم الحركة الشيوعية وإلى قيام أكثر من مركز واحد يدعي قيادة النضال الثوري.

وكنت أفكر كثيراً وأستعيد نصيحة الزميل يونس (كورييل) لنا عند لقائنا الأول معه حول أهمية الاستفادة من تجربة الحركة الشيوعية المصرية وعن ضرورة التحوط واتخاذ المحاذير التي تحول دون انتقال عدوى الانقسامات والتكتلات والتشتت التي كانت هي أخطر أمراض الشيوعيين في مصر.

وكان محور الفكرتين هو من أين نبدأ العمل التأسيسي الفعال؟ فهنالك الريف حيث المزارعون، ولكن بالرغم من اقتناعي بأهميتهم كطبقة ثورية تشكل الغالبية من سكان السودان فقد كان الوصول إليهم صعباً بل ومستحيلاً بالنسبة لشخصين في مثل حداثة تجربتي وسعد أمير. وكان سعد أكثر مني حماساً لفكرة البداية بالمزارعين وكان قد قرأ كثيراً عن تجربة الحزب الشيوعي

الصيني ونضاله والذي كان في أوج انتصاراته في تلك السنة، وقد كانت استراتيجية ماوتسي تونج العسكرية ومن قبلها السياسية السيطرة على المدن وغزوها عن طـريق الريف بمعنى الإنقضاض عليها سياسياً وعسكرياً بعد إحاطتها بالقوى الثورية وبعد السيطرة على الأقاليم التي تجاورها وتحادها.

وكان العزيز سعد قد تربى سياسياً في منظمة «أسكرا» قبل توحيدها مع (ح.م.) وكان كأغلبية مثقفيها تستهويه النظريات ويعيش على بطون الكتب وعلى ظهورها أيضاً ويستلهم الحلول السياسية للمعضلات والمشاكل وحتى اليومية منها من تجربة الرفاق الروس والصينيين، ولعل أبرز دليل على ذلك لفظ «أسكرا» الذي اتخذوه إسماً لتنظيمهم السياسي والذي يعني بالروسية «الشرارة» وقد كانت هذه أول صحيفة ثورية يصدرها لينين ورفاقه بليخانوف وأكسلرد ومارتوف قبل انقسامهم الشهير الذي كان نتيجته تكوين تنظيمي البولشفيك والمنشفيك.

ولكن مشكلة إرساء قواعد العمل الثوري بمدنى والجريرة لم تكن بالنسبة لي مشكلة نظرية بقدر ما كانت عملية وواقعية فالسؤال كان يدور حول كيفية الوصول إلى المزارعين وعن كيفية ضمان استمرارية العمل الثوري المنتظم وسطهم علماً بأن عطلتنا الدراسية كانت قد شارفت النهاية.

وكان بيت شعر أبي العلاء يلاحقني كلما فكرت في أمر اقتحام ديار المزارعين وحصونهم:

فيا دارها بالمزن ان مزارها قريب
ولكن دون ذلك أهوال

أما الفكرة الثانية فقد كانت التركيز على العمال الذين كانوا بالرغم من قلتهم العددية بالجزيرة أقرب لنا منالاً حيث يسهل توثيق الصلات الإجتماعية معهم ومن ثم جذبهم إلى مواقع العمل الثوري ـ ولعلني كنت قد تأثرت بما كان يدور داخل (ح.م.) التي كانت تنفرد بالإهتمام بالعمال وتركز على استقطابهم وإن لم تكن هي أول من طرح شعار (التعميل). وكان كورييل يتبنى سياسياً المبرزين منهم وكان أقرب المصريين إليه العامل سيد سليمان أو الزميل (بدر) الذي كان يعده لخلافته في زعامة الحركة الشيوعية المصرية. ولكن بالرغم من صواب وضرورة الإهتمام بالعمال إلا أن (ح.م.) ومن بعدها الحركة الموحدة (حدتو) بالغتا في الأمر وارتكبتا أخطاء كانت من العوامل التي أدت إلى انهيار الحركة الشيوعية في مصر إذ عمدتا إلى تصعيد العمال إلى مراكز القيادة دون اعتبار لقدراتهم الفكرية ودون تمحيص لتاريخهم النضالي فكان منهم من أسهم في قسم الحركة مرة أخرى وبعد أن تم توحيدها بكل عسر وجهد، وكان منهم من أصبح عميلاً للبوليس السياسي ومنهم أيضاً من باع نفسه للمخابرات الأجنبية التي كانت ترتع وتلعب في الساحة المصرية دون رقيب.

ووثقت صلاتي بنفر من عمال الري بواد مدني وكسبنا بعضهم للتنظيم وكانوا هم نواة العمل الشيوعي وسط المزارعين إذ بادروا بتجنيد بعض عمال (كيلو ١٤) الذين كانت تحتم طبيعة أعمالهم الاختلاط والاتصال المستمر بفقراء الريف من عمال وفلاحين.

- ١٢ -

وذهبت إلى أم درمان حيث قدمت تقريراً عن نتائج نشاطنا وقضيت بها ثلاثة أيام عدت بعدها لمواصلة الجهد والعناء بمدنى وقد كان بالفعل جهداً ومضنياً إذا ما قورن بالصعاب التي قابلت بقية زملائي عبد الخالق بعطبرة وعوض عبد الرازق والتجاني الطيب وعبد الرحمن عبد الرحيم الوسيلة بأم درمان.

فالجزيرة كانت سياسياً كالأرض البكر، ولكن بالرغم من أن لهذه الحقيقة انعكاساتها الإيجابية إذ لم تكن هناك تيارات مناوئة أو معادية للشيوعية إلا أن تأسيس تنظيم سياسي له مواصفات محددة وينهج نهجاً متميزاً وفريداً، وتحكم سلوكه ومساره قواعد صارمة ليس بالأمر الهين ولا اليسير خاصة إذا كان نشاط ذلك التنظيم محظوراً.

ولعله مما ضاعف من متاعبي أني بقيت كالسيف وحدي بعد سفر سعد أمير إلى مصر قبل انتهاء العطلة الصيفية إذ كان عليه أن يجلس (للملحق) في بعض المواد الدراسية المقررة.

وكنت أغبط عبد الخالق ورفيقيه عوض والتجاني فقد انضموا إلى رفاق سبقوهم في وضع حجر الأساس للعمل الثوري في

المناطق التي حلوا بها. فلم يكن عبد الخالق، كما يشاع، أول من حط الرحال بعطبرة من الشيوعيين، فقد سبقه إليها رهط منهم لعل أبرزهم مصطفى السيد الطالب بمدرسة كتشز الطبية وكان والده يعمل وكيلاً «لتلغراف السكة الحديد» وكان هو من الرعيل الأول الذي انضم للحلقات الماركسية التي بذل مستر ستوري جهداً لتأسيسها. وكان المناخ السياسي ملائماً وصالحاً لتثبيت دعائم النشاط الشيوعي وتطويره عندما وصلها عبد الخالق، فقد كانت عطبرة ومنذ يوليو ١٩٤٦ على قمة حيويتها السياسية إذ شهد ذلك الشهر تكوين هيئة شؤون العمال التي ظلت ومنذ مولدها الميمون تسعى جاهدة لفرض شرعيتها على الإدارة الاستعمارية التي اضطرت للاعتراف بها كتنظيم نقابي يمثل ارادة عمال (السكة الحديد) بعد اضراب عن العمل شمل كل فروع المرفق العام أعلن في أرداف مظاهرة شعبية لم تشهد لها عطبرة مثيلاً. وكان للشيوعيين من قادة العمال قاسم والشفيع والحاج عبد الرحمن دور بارز في التحضير للمظاهرة وفي قيادتها وفي تنظيم الاضراب.

ولعل عبد الخالق قد أدرك، بثاقب فكره، أهمية عطبرة لمستقبل الحركة الثورية بالسودان ولذلك اختارها لممارسة بداية نشاطه الشيوعي. فبجانب أنها كانت أكبر مركز لتجمع العمال بالبلاد كانت قطاراتها وبواخرها النيلية تربط بيْن أنحاء القطر الواسعة والمترامية الأطراف مما أسهم في انتشار الشيوعية في مختلف أصقاع السودان وكان «كماسرة» وسائقو القطارات «والوابورات» وعمالها رسلها الأوفياء ودعاتها المتمرسين.

وكان بعض مدرسي المدارس الأولية (والكتاتيب) يتلهفون

ويهرعون لمقابلة القطارات «والبوسته النهرية» لتلقي مطبوعات الحزب ورسائله وتوجيهاته.

ولعله قد تأثر أيضاً بنظرية «التعميل» التي احتضنها بعض الرفاق المصريين ورأوا في تطبيقها مخرجاً للحركة الشيوعية المصرية من أزمتها المتمثلة في انطوائها وانعزالها فقد كان شديد التعلق بهؤلاء الرفاق وربما أراد أن تستفيد الحركة الشيوعية السودانية من تجربتهم وأن يعبر بها فوق أخطائهم.

أما الزملاء الذين تقرر بقاءهم بأم درمان أثناء العطلة الصيفية فقد كانوا أسعد حالاً إذ كانت مهمتهم أيسر وأسهل نسبياً حيث كان العمل الحزبي قد استقر هناك ومنذ النصف الأول من عام ١٩٤٦ عندما أعلن تأسيس التنظيم رسمياً واختيرت له قيادة ولجنة مركزية تشرف على نشاط كل الحلقات الماركسية وعلى نطاق القطر وكان عليهم أن يسهموا في تحسين مستوى القيادة خاصة في الجبهتين الثقافية والتنظيمية على ضوء تجربة النضال مع الزملاء المصريين.

ولا بد هنا من تصحيح خطأ شاع وكاد أن يستقر مؤداه أن الحركة الشيوعية السودانية ابن شرعي للحركة الشيوعية المصرية. والواقع يكذب هذا الإدعاء ويدحضه فقد كان أول من نظم حلقة لدراسة الماركسية ثلاثة من الأرمن الذين قدموا إلى السودان في الفترة ما بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٠ هم ارتين أركيان وكان يعمل (ميكانيكياً) «بمصلحة الوابورات» وبادروس ساهورتيان الذي التحق بخدمة «الأشغال العمومية» وهو الذي شيد (وابور الماء) بالخرطوم وأنيس ظهربيان وكان وكيلاً تجارياً (قوموسنجي

لترحيل البضائع الواردة من أوروبا إلى الخرطوم والمصدرة أيضاً). وكان الثالوث على صلة بشيوعي من أصل مصري يعمل مهندساً (بالفاكيوم) بين عطبرة والخرطوم.

وكان أول من اتصلوا به من السودانيين علي أحمد صالح المعروف (بعلي حاجي) العامل بالمطبعة الحكومية والذي اتصل بدوره بستة من أقاربه وأصدقائه وكون معهم أول خلية شيوعية بالسودان والستة هم محمد خير المرضي والد الشاعر (ميمان) وكان رئيساً للصفيفين بالمطبعة وحبيب حنا سوداني من أصل قبطي وكان موظفاً بمصلحة البريد (وبالنجار) ابراهيم سعيد عبده (والميكانيكي) الماظ عبد الله سعد وكان كلاهما يعمل بمصلحة الأشغال العمومية وفرج الله سعد بقسم التجليد بالمطبعة وابراهيم موسى العامل بها أيضاً.

ولكن لم يكتب للتنظيم الشيوعي الحياة طويلاً فقد انقضى واندثر بعد مبارحة الأرمن للسودان وبعد ردة (علي حاجي) إثر تقديمه للمحاكمة في ١٩٢٤ بوصفه أحد مؤسسي جمعية اللواء الأبيض وانقلابه إلى شاهد ملك نتيجة وعود ووعيد السلطة الاستعمارية بالبلاد.

وظهرت الحلقات الماركسية من جديد في الخرطوم في أوائل الأربعينات تتويجاً للاتصالات المكثفة التي قام بها مستر ستوري عضو الحزب الشيوعي البريطاني وعندما وصل للسودان مجنداً بالقوات البريطانية التي كانت تعمل فيها وراء البحار. وكان أن بدأ اتصالاته فور قدومه مع نفر قليل من طلاب المدارس العليا منهم أحمد زين العابدين وحسن محمد حامد والطاهر السراج ومع

بعض المثقفين منهم حسن الطاهر زروق المدرس بمصلحة المعارف السودانية والمهندس عبد الحميد أبو القاسم هاشم ومع قلة من طلبة المدارس الثانوية كان أبرزهم عبد القيوم محمد سعد وآدم أبو سنينه وأحمد محمد خير الـذين لم يكتفوا باستقطاب أصدقائهم بالعاصمة بل قاموا بجولة أثناء العطلة الدراسية إلى بعض أقاليم القطر سعياً وراء كسب مزيد من الرفاق للحركة الوليدة وكان على رأس الذين نجحوا في جذوبهم الطالب الطاهر عبد الباسط الذي ذهب لقضاء العطلة مع أهله بالأبيض وكان هو واسطة العقد في أول خلية كونت بغرب السودان وكان من ضمن أعضائها الطالب الخير أحمد حسن مساعد المستشار الثقافي السابق بسفارة لنـدن ومحمد سيد أحمد الذي كان يعمل بائعاً متجولاً بسوق الأبيض آنذاك والذي يملك الآن مكتبة الفجر بواد مدنى وقد انضم اليهم بعدها بقليل الطيب المرضي الذي كان يعمل كاتباً بمدرسـة بنات الأبيض الوسطى والذي التحق فيها بعد بالقوات المسلحة وترأس قسم المخابرات العسكرية في إحدى الفترات التي سبقت ثورة مايو والذي يشغل الآن منصب محافظ مديرية شمال دارفور. وقد فشلت محاولات عبد القيوم وصحبه في ضم صديقهم الطالب حاج الطاهر أحمد إلى زمرتهم، فقد كان الشاب كثير الاعتداد بنفسه وبذكائه ولم يكن ليرضى أن يحاضره نفر من زملائه عن بعض قضـايا الفكـر وهو الـذي كان يتفـوق على أقـرانـه في الامتحانات وفي الاختبارات الدراسية.

وقد واصل مدرس انجليزي آخر يسمى مستر دكنسون مهمة مستر ستوري إذ كان بدوره عضواً بالحزب الشيوعي البريطاني والتحق بخدمة مصلحة المعارف السودانية مدرساً بمدارسها

الثانوية في مارس ١٩٤٥.

وكان مستر ستوري شديد الحرص على سبر غور الحياة السودانية وعلى التعرف على خصائص الشعب السوداني، ولم يكتف لذلك بتكثيف وتنويع اتصالاته مع فئات المثقفين والمهنيين وإنما تعداها إلى توثيق الصلات وإلى مد جسور الصداقة مع نفر من أولئك الذين كان ينظر إليهم البعض كحثالة للأمة وكنفايات للمجتمع وكان يغشاهم ويجالسهم في (الأنادي) وفي منتديات أنسهم وسمرهم، وكان يلبس الجلباب وينتعل (المركوب الفاشري) «ويلف العِقة» وربما «لَفَّ البنقو» أيضاً مما أثار اللغطَ حول سلوكه وحول حقيقة دوافعه إذ اتهمه البعض بالشذوذ الجنسي، وربما كان الرجل بريئاً من كل ذلك.

وحتى ذلك الوقت لم يكن للشيوعيين المصريين أي دور يذكر مباشر كان أو غير مباشر في خلق الحركة الشيوعية السودانية.

وبالحق فإنه لم تكن هناك صلة تنظيمية يؤبه بها بين التنظيمين الشيوعيين في مصر والسودان طيلة الفترة من أوائل الأربعينات وحتى عام **١٩٤٧** اللهم إلا إذا استثنينا زيارة عبده دهب لبلده السودان في عام **١٩٤٣** التي قرر هو أنها تمت استجابة لتكليف من منظمة (ح . م) التي كانت قد أسست هي نفسها في تلك السنة عقب اجتماع دعي له هنري كورييل في يناير **١٩٤٣** وعقد بعزبة يملكها بالمنصورية إحدى ضواحي الجيزة وكان عبارة عن (مدرسة للكادر) حسب رواية كورييل نفسه والتي سجلها له دكتور رفعت السعيد في بحثه عن (تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠).

ولم يحدثنا عبده دهب عن نتائج تلك الزيارة إذ اكتفى بالاشارة إلى مقابلته لمستر ستوري بالخرطوم الذي أخبره بأنه «يزمع أن يلحق مجموعته بنشاط الحزب الشيوعي الانجليزي»! وإنه عند عودته لمصر «عرضتُ ذلك على اللجنة المركزية وعارض كورييل بشدةٍ وأكد على ضرورة الاسراع بتكوين قسم مستقل للسودانيين تمهيداً لتأسيس تنظيم مستقل في السودان». وفعلاً تكون هذا القسم سريعاً وكان اسمه الحركي (شركة الملح والصودا).

وقد قرر دكتور رفعت أن «أول تنظيم شيوعي سوداني ولد باسهام مباشر من (ح . م) الأمر الذي يعتبر وبحق أحد مفاخر هذه المنظمة».

ولعله أسَّس افتراضه هذا على واقعة واحدة أشار إليها عبده دهب في حديث له معه بالخرطوم في الثامن عشر من اكتوبر ١٩٦٩ سجله في صفحة ٣٥٣ من بحثه المشار إليه:

«وفي عام ١٩٤٥ وصل إلى القاهرة شخصان هما حسن الطاهر زروق والمهندس عبد الحميد أبو القاسم وعُقد اجتماع ضم قادة القسم السوداني بالقاهرة ومندوبي مجموعة الخرطوم وعدد من قادة (ح . م .) هم هنري كورييل ود. عبد الفتاح القاضي وتحسين المصري. وقد تم الاجتماع في منزل كورييل. وقدم المندوبان تقريراً يطالبان فيه بتشكيل تنظيم مستقل له قيادة مستقلة، ووافق المجتمعون على ذلك واتفق على أن يستمر السودانيون المقيمون في مصر أعضاء في (ح . م .) وفي حالة عودتهم إلى السودان ينضمون فوراً إلى التنظيم هناك وفي نفس المستوى الذي كانوا يعملون فيه بالقاهرة. واتفق أيضاً أنه في حالة انتقال أي شيوعي سوداني للإقامة في مصر ولو بصفة مؤقتة ينضم إلى المستوى المقابل في (ح . م .) واتفق على تسمية التنظيم السوداني الوليد باسم الحركة السودانية للتحرر الوطني ـ حستو ـ».

وبالطبع فإن هذا الذي ذكره عبده دهب واستند عليه دكتور رفعت لا ينهض دليلاً على شبهة تبعية الحركة السودانية لرصيفتها المصرية دعك عن الإدعاء بأنها ولدت باسهام مباشر من إحدى تنظيمات الأخيرة إذ أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تنسيق

تنظيمي بين ندين متساويين كلاهما يافع صغير السن.

وفي الواقع فإن اسهام الشيوعيين السودانيين والحزب الشيوعي السوداني في تدعيم الحركة الشيوعية المصرية وخاصة (ح. م.) ومن بعدها «حدتو» كان كبيراً. ولم يقتصر دورهم الايجابي على المساهمة في ارساء قواعد التنظيم الشيوعي المصري ولا اثناء الفترة القصيرة التي ازدهرت فيها الحركة الشيوعية المصرية بل تعداه إلى محاولة من يد العون، دون من أو أذى، للرفاق الشيوعيين المصريين إبان محنتهم التي بدأت بعد حرب فلسطين في منتصف ١٩٤٨ والتي تفاقمت بعد تولي جمال عبد الناصر للسلطة.

فقد كان بعض الشيوعيين السودانيين وعلى رأسهم عبده دهب من أوائل الذين انضموا إلى الحركة المصرية وشهدوا مولدها وأسهموا في تأسيسها وكان عبده عضواً بلجنتها المركزية الأولى. وقد صعد إليها أيضاً بعد تأسيس قسم السودان عبد الماجد أبو حسبو. وكان المسؤولون عن نشاط ذلك القسم، بجانب عبده وعبد الماجد، عبد الوهاب زين العابدين ومحمد أمين حسين وعز الدين علي عامر.

وكان عبده دهب أكثر السودانيين والنوبيين اسهاماً في تدعيم النشاط الشيوعي المصري الوليد، فقد كان من المقربين لكورييل الذي أدرك قدراته وامكاناته فاستغل نشاطه الجم ومقدرته الفائقة على الحركة واتصالاته الواسعة بين مختلف أوساط وفئات الشعب المصري وحتى الباشوات منهم وقد كان مدخل عبده للتعرف على الكثيرين منهم بعض أقاربه «وبلدياته» من النوبيين الذين كانوا

يعملون في خدمة الارستقراط وابناء الذوات.

ولعله من المناسب أن أورد هنا مثلين لنشاط عبده وخدماته أنقلهما من حديثه إلى د. رفعت السعيد والمسجل على صفحتي ٢١٢ و ٢١٣ من بحث الدكتور:

يقول عبده دهب:

(عندما قابلت هنري كورييل حدثني طويلاً عن رغبته في تأسيس مجلة تعمل على نشر الوعي في مصر، وكلفني أن أبحث عن مجلة مصرية لاستئجارها حيث يصعب على أشخاص مثل كورييل وصحبه الحصول على رخصة مجلة. وفعلاً استأجرت مجلة «حرية الشعب» وكان يصدرها شخص اسمه رجب أحمد وهو شخص عادي جداً لم تكن لديه أي ميول سياسية رغم هذا الاسم الذي أطلقه على مجلته،وكان الايجار المتفق عليه ١٥٠ قرشاً شهرياً ارتفع إلى ٢٥٠ قرشاً بعد أن بدأت مضايقات البوليس واحتفظنا باسم المجلة وأضفنا إليها شعاراً يقول إنها «مجلة مصرية سودانية عمالية ثقافية».

وهكذا صدرت «حرية الشعب» كلسان حال لمنظمة الحركة المصرية للتحرر الوطني).

ويضيف الدكتور رفعت ان استقراءه وملاحقته لتاريخ تلك المجلة ثبتت له أنه «ابتداء من العدد ٤٣ من السنة الحاديةعشرة بدأ اسم محي الدين صابر وعبده دهب في الظهور على صفحات المجلة وبظهورهما بدأت المجلة تتحول لتوشك أن تصبح مجلة سودانية صرفة... ثم تتوقف المجلة اسبوعين تصدر بعدها في

ثوب جديد تماماً سواء من حيث الطباعة أو الاخراج أو التحرير معلنة بذلك تمام تحولها إلى مجلة رأي».

ولعل في اضافة دكتور السعيد هذه ما يثبت صدق رواية عبده دهب.

أما حديث عبده الثاني فهو عن مجلة أم درمان التي وإن كانت تحمل اسماً سودانياً وتناقش قضايا الكفاح المشترك بين الشعبين المصري والسوداني ويفترض أنها تهتم أساساً بمشاكل السودان إلا أنها كما يقول دكتور رفعت أضحت (ولفترة من الوقت ورغم سودانيتنا هي المنبر العلني الوحيد لمنظمة (ح . م .) ومن ثم فلم يكن هناك مفر من أن تمثل أم درمان بوجهها السوداني منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطني في مختلف الأنشطة والتجمعات والندوات العلنية مثل ندوة دار الأبحاث وجبهة الهيئات العامة).

ويحكي عبده قصة اصدارها:

(وعلمنا أن القصر الملكي سيصدر مجلة شهرية اسمها السودان وسيرأس تحريرها علي البربر للدعوة لشعار وحدة وادي النيل تحت التاج المصري فأسرعنا باصدار مجلة لنا وفي البداية طلبنا ترخيصاً لمجلة باسم «مجلة الكفاح المشترك». ورفضت وزارة الداخلية، فقدمنا طلباً آخر باسم «أم درمان» ورفض طلبنا أيضاً. ولكن أحمد الدمرداش توني وهو زوج ابنة محمد محمود جلال استطاع أن يقنع صهره الذي كان نائباً في البرلمان بأن هذه المجلة ستحمل لواء الدعوة لمبادىء الحزب الوطني. وتقدم النائب محمد محمود جلال بضمان المجلة لدى السلطات. وبناء على وساطته استقبلني رئيس الوزراء حسن باشا صبري في كلوب محمد علي، وابلغني

أنهم سيعطونا ترخيص المجلة وضحك قائلاً «وإن كنت أعتقد أن اسمها الحقيقي سيكون (موسكو) وليس (أم درمان)». وصدر الامتياز باسم محمد أمين حسين لأنه كان أكبرنا سناً وكنت أنا رئيس التحرير وقد لعبت الجريدة دوراً كبيراً ضايق السراي إلى الدرجة أن أحد سكرتيري الملك وهو حسن بك حسن اتصل بي وعرض عليّ ٢٠٠٠ جنيه مقابل أن أغلق المجلة وأن أسافر إلى السودان، فلما رفضت هددني بالقتل ـ وطلبت عقد اجتماع عاجل للجنة المركزية وعرضت عليهم الأمر وقررنا أن نتحدى هذا التهديد).

ويعلق د. السعيد «وهكذا صدرت ـ أم درمان ـ مجلة الكفاح المشترك كأول مجلة تصدرها وتسيطر عليها (ح . م .) سيطرة كاملة».

سقت هذين الحديثين لأدلل على اسهام بعض الرفاق السودانيين في تدعيم النشاط الشيوعي في مصر وفي تطويره أيضاً وقد اخترت هذين المثلين بالذات لأن كل الأحزاب الشيوعية تهتم كثيراً بأمر نشر الوعي الماركسي وبابداء وجهات نظرها حول مختلف القضايا. ولعل الصحافة كانت ولا تزال اداتها الرئيسية لذلك. وقد كان لينين يحرص على تأكيد زعمه بأن الصحيفة ليست أداة للإثارة والدعاية فحسب بل للتنظيم أيضاً خاصة في المراحل الأولى لتأسيس العمل الحزبي حيث يشكل قراؤها وموزعوها ومراسلوها نواة الخلايا الحزبية.

ولعل الدليل على ضعف الصلة بين الحركتين الشيوعيتين المصرية والسودانية وعدم فعاليتها قبل عام ١٩٤٧ أن مجلة أم درمان بالرغم من اسمها ووجهها السوداني وبالرغم من أنه قد احتشد لتحريرها كما يقول عبده دهب «معظم كوادر قسم السودان وقسم النوبيين في (ح . م .) . . . وبرزت على صفحاتها أسماء محمد أمين حسين، عبده دهب، عبد الماجد أبو حسبو، عز الدين علي عامر، حامد حمداي، صالح عرابي، محمد خليل قاسم، وزكي مراد صالح» إلا أنها كانت عديمة الأثر على الحياة السياسية داخل السودان. وقد ذكر دكتور رفعت السعيد أن (الإدارة الاستعمارية منعت دخول المجلة إلى السودان. وقد نشرت مجلة أم درمان في صدر أحد أعدادها العبارة التالية «منعت حكومة السودان الاستعمارية هذه المجلة من الدخول إلى وطنها الأول السودان». وقد ظلت أم درمان غريبة عن الوطن التي سميت باسم عاصمته الوطنية إلى أن أصابها ما أصاب غيرها من صحف ودور التنظيمات اليسارية التي اغتالها ووأدها صدقي باشا في الثاني عشر من يوليو ١٩٤٦ وكان رئيساً لمجلس الوزراء المصري يومئذ.

ولكن الصلة بين الحركتين نمت وتوثقت بعد وصول أفواج الطلاب السودانيين إلى مصر واقبالهم على الدراسة بالجامعة والأزهر والمعاهد العليا وانضمامهم للتنظيمات الشيوعية المصرية، وازدهرت بعد سنة ١٩٤٧ عندما آلت قيادة «حستو» بالسودان إلى أولئك الذين عبوا ونهلوا من تجارب (ح . م .) ومن بعدها (حدتو) وتدربوا في مدارس نضالها وعلى رأسهم عبد الخالق محجوب الذي تولى مسؤولية المنصب الأول في «الحركة السودانية للتحرر الوطني» إذ أصبح أمينها العام.

وعليه يمكننا القول بأن التأثير الايجابي للشيوعيين السودانيين في مصر كان مباشراً وقد ظل كذلك حتى بعد رجوع البعض إلى السودان وبعد أن تعذرت بل واستحالت عليهم مواصلة الدراسة والتحصيل العلمي بعد طردهم من بيت السودان وحرمانهم من امتيازات بعثة الحكومة المصرية ـ ولم تخل قيادة (ح . م .) ومن بعدها (حدتو) في أي وقت من عضوية بعض السودانيين. بل ولعله من الغريب أنه إبان ظروف الشدة وأثناء محنة الحركة الشيوعية المصرية في منتصف ١٩٤٨ وطوال ١٩٤٩ نتيجة للضربات العنيفة والمتواصلة التي كالها لها ابراهيم عبد الهادي باشا الذي خلف النقراشي باشا في رئاسة الوزارة بعد اغتيال الأخير على أيدي الإخوان المسلمين، فإن أغلبية اللجنة المركزية (لحدتو) كانت من السودانيين إذ لم يبق خارج السجون والمعتقلات من الرفاق المصريين أعضاء اللجنة المركزية (ل . م) غير كمال عبد الحليم الشاعر المشهور وأخوه فؤاد وبعد اختفاء هذا، أو لعله بعد القاء القبض عليه، حل محله أخوهم الثالث إبراهيم عبد الحليم وظل السودانيون يشكلون لفترة أغلبية

(ل . م) إذ كانوا ثلاثة هم بـابكر محمـد علي فضـل (رفعت) والجنيد علي عمر (صديق) وأحمد سليمان (بدري).

ولكن الأمانة تقتضينا أن نقرر أن صلة السودانيين بالحركـة الشيوعية المصرية لم تكن، بمنطق الشيوعيين، كلها خيراً وعسلاً وسكراً حسناً إذ يتحمل الحزب الشيوعي السوداني وعـلى وجه التخصيص أمينه العام عبد الخالق محجوب قدراً من المسؤولية في تصفية التنظيم الرئيسي للحركة الشيوعية في مصر. فقد أسهم، بالنصح، في حله استجابة لرغبة جمال عبد الناصر أو بالأحرى رضـوخـاً لإرادتـه إذ جعـل عبـد النـاصـر ذلـك شـرطـاً أساسياً لإطلاق سراح المعتقلين الشيـوعيين ولاستيعـاب الكادر المؤهل منهم في تنظيمات وفروع الاتحاد الاشتراكي المصري وفي بعض أجهزة السلطة التنفيذية.

وقد ندم عبد الخالق على فعلته التي فعل وأدرك خطأه ووزره، كشيوعي، خاصة بعد انتقال عبد الناصر إلى الرفيق الأعلى... ولكن بعد فوات الوقت. وقد ظل الأمـر يؤرقه ويثقل كاهله إلى أن انتقل هو إلى الدار الآخرة، فما كان ينبغي له كقائد شيوعي أن ينصح بحل الحزب الذي وصفه لينين بأنه طليعة البروليتاريا وفصيلتها المقاتلة التي لن يتحقق لها النصر بدونه.

وبالرغم من أنه لم يفعل أكـثر من اسداء النصـح ألا أن النصيحة الصادرة من شيوعي كعبد الخـالق كان لهـا وزنها إذ بجانب تقديـر الشيوعيـين المصريـين واعجابهم بنضـال الحزب الشيوعي السوداني وثقتهم في حكمته وتقديراته السياسية كـان ظنهم أن عبد الخالق إنما كان يعبر عن رغبة (موسكو) وينطق

بلسانها وكانت هذه ترغب بالفعل في حل التنظيمات الشيوعية المصرية،إذ كانت تخشى غضب عبد الناصر وتسعى لكسبه نهائياً إلى معسكرها وتتحاشى كل مكدرات صفو العلاقات معه خاصة وبعد تأزم علاقاته بخروشوف في أواخر ١٩٥٨ عندما تبادل الزعيمان النقد والألفاظ اللاذعة وعلناً وعلى رؤوس الاشهاد وعلى كافة أجهزة الإعلام نتيجة موقف عبد الناصر من الشيوعيين العراقيين الذين كانوا قد بادروا بمعاداته بعد أن أسهموا في تصعيد خلافاته مع عبد الكريم قاسم. وقد وعى السوفيت الدرس وصاروا ينأون بأنفسهم عن المزالق التي ربما أوقدت نار الفتنة بينهم وبين الرجل وقد كانوا يخشون أن تشعل حماقات الشيوعيين المصريين الفتيل إذ كانوا لا يحسنون الظن بمقدرة هؤلاء على وزن الأمور. وكان مقياس التقويم الصائب والوزن الصحيح للأمور في نظر القادة السوفيت،ولا يزال، هو تغليب مصلحة الاتحاد السوفيتي على كافة المصالح الوطنية والاعتبارات القومية للشعوب الأخرى بوصفه قائد المعسكر المناهض للإمبريالية وللاستعمار الحديث.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى إحدى مفارقات السياسة السوفيتية التي تثبت أن نظرتهم، إلى الأحزاب الشيوعية خارج حدود بلادهم وخاصة في دنيا العالم الثالث ومواقفهم منها تمليها وتقررها مصلحتهم هم وليست القيم الثورية والمبادىء الماركسية كما يزعمون وكما يظن خطأ الحواريون، فبينما كانوا يسعون جاهدين إلى تصفية التنظيم الشيوعي في مصر وكان اداتهم الرئيسية والفعالة لذلك عبد الخالق محجوب، كانوا هم الذين أثنوه عن تنفيذ الفكرة التي تملكته في عام ١٩٦٦ والتي كان

مقتضاها أن يحل الحزب الشيوعي السوداني تنظيماته وأن يكتفي بقلة من الكادر الشيوعي المتمرس والقادر على ابتداع الصيغ التي تخلق وتطور الصلة بين العمل القانوني العلني والعمل السري ليكون بذلك قلباً لحركة ثورية عامة تنتظم جماهير أوسع وتخاطب فئات أكثر ويمتد نشاطها إلى ساحات أرحب.

فقد دعي عبد الخالق بوصفه الأمين العام للحزب إلى اجتماع موسع، عقد (بالجريف غرب) وحضره بجانب أعضاء اللجنة المركزية بعض الكادر القيادي في التنظيمات والفروع والروافد التي تدنوها. ولم يتمكن عبد الخالق من حضوره إذ كان قد بارح الخرطوم إلى موسكو للمشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي، ولعله كان المؤتمر الثالث والعشرين ولكن الوثيقة الرئيسية التي قدمت للاجتماع كانت من بنات أفكاره إذ صاغها بنفسه وتليت نيابة عنه وكان مؤداها ضرورة إعادة النظر في بناء الحزب الشيوعي السوداني والاكتفاء بقلب ثوري نابض يشرف على الحركة الثورية العامة في البلاد ويهيمن ـ سراً ـ على الحزب الاشتراكي الذي كان قد خطط لقيامه كتنظيم علني قانوني.

ولكن السوفيت عارضوا الفكرة بشدة وطالبوه بوأدها. وبالفعل فقد سارع بالتراجع عنها بل والتنصل منها عقب عودته من موسكو، وكان أن قدم تقريره الشهير الذي نقلته ـ (الشيوعي) ـ نشرة الحزب الشيوعي السوداني الإيديولوجية ـ والذي شجب فيه فكرة حل الحزب.

وقد اغتنم عوض عبد الرازق، الذي كان قد فصل من الحزب الشيوعي في أوائل الخمسينات تحت تهمة «التصفوية» ـ أي

تصفية الحزب ـ اغتنم الفرصة وركز هجومه على قيادة الحزب وقال إن مرد اتجاه عبد الخالق لحل الحزب لم يكن إلا لضعف أصاب الرجل نتيجة الحملة المهووسة والهجوم الضاري ضد الحزب الشيوعي والذي شنته حكومة الحزبين المؤتلفين والطائفتين المتصالحتين والذي تصدره الصادق المهدي وقادة الإخوان المسلمون وقارن بين دعوته هو للاكتفاء بكادر متمرس يكون قلباً نابضاً للحركة الثورية ويقود الحركة الجماهيرية الواسعة وبين أفكار عبد الخالق الذي وصفها بأنها عين الردة وقمة النكوص عن تعاليم لينين التي لا ترى بديلاً للحزب الشيوعي كطليعة مقاتلة توجه وتقود النضال الثوري.

وكما أن العلاقة الحميمة بين الشيوعيين السودانيين وبين رفاقهم المصريين لم تكن كلها بركة ونعمة على الاخيرين إذ ترتب على نصيحة عبد الخالق أن حل التنظيم الشيوعي المصري نفسه استجابة لرغبة عبد الناصر واستدراراً لبره ورأفته فإن الحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) ومن بعدها وليدها وخليفتها الحزب الشيوعي السوداني لم يسلما من الأذى نتيجة تلك الصلة، فقد اصابتهما عدوى أمراض الحركة الشيوعية المصرية التي انتقلت إليهما وتمكنت منهما بعد هيمنة العناصر التي تربت في منظمة (ح . م .) ومن بعدها (حدتو) عليهما خاصة بعد أن تمت لعبد الخالق السيطرة الكاملة على مقاليد الأمور في (حستو) وأصبح أمينها العام والقائد الفعلي للحركة الشيوعية في السودان.

وقد تمثل خطر تلك الأمراض في عدم الالتزام بقواعد الصراع الحزبي الداخلي، وفي تطويع لائحة الحزب التنظيمية لتخدم أهداف ومصلحة القيادة بل ورغبات القائد ومزاجه ولو كان ذلك المزاج سقيماً، وحاداً، ومتقلباً، وفي استغلال مبدأ المركزية الديمقراطية الذي حتمته ظروف العمل السري وذلك بتقريب أولئك الذين يرضى عنهم زعيم الحزب وتصعيدهم إلى درجات

التنظيم العلا وإلى ابعاد واضطهاد الذين لا ينعمـون بوده ولا يحظون برضائه. وربما اقتضى الأمر تخطي اللائحة وتجاوزها إذا لم تسعف الحال أو إذا ما استحال تطويعها. وربما اقتضت المصلحة الذاتية الصاق التهم الكاذبة بالضحية المغضوب عليها من رفاق النضال، وإلى اللجوء إلى القرارات الإدارية ومنها الفصل من عضوية الحزب حسماً للخلافات حتى ولو كانت حول بعض قضايا الفكر التي يمكن حلها وتصفيتها بمواصلة النقاش والصبر عليه وبممارسة النقد والنقد الذاتي، كل ذلك تحت ستار الحرص على وحدة الإرادة والعمل داخل التنظيم.

وقد ترتب على مثل هذه التجاوزات، في مصر، وعلى تخطي المبادىء التنظيمية التي تحكم العلاقات بين الرفاق أن تكاثرت وتعددت التنظيمات الشيوعية فيها إذ غالباً ما يضطر المفصـولون إلى تكوين تنظيم جديد سرعان ما يسوده، بدوره، الصراع وتبادل التهم والسباب.

ولكن هنا في السودان فبالرغم من أن عدد المنظمـات التي انفصلت وانشقت عن الحركة الأم (حستو) ومن بعدها الحزب الشيوعي السوداني كانت من القلة بحيث لا يمكن مقارنتها بما أصاب الحركة الشيوعية المصرية. إلا أن عدد الرفاق الذين فصلوا من تنظيمات الحركة الشيوعية السودانية وعدد أولئك الذين فروا منها بجلودهم وآثروا ترك عضويتها دون ضجة ودون رجعة كان كبيراً.

ويعـزي بعض الذين عـاصروا الحـركة الشيـوعية في مصـر والسـودان ورصدوا تـاريخها الخلل والتجـاوزات والشلل الذي

أصاب حركة السودان إلى الخصائل التي ورثها عبد الخالق محجوب عن أستاذه هنري كورييل الذي كان يضيق صدره بالنقد ولا يسمح لأي كان من الرفاق بمعارضة أفكاره، وكذلك إلى الصفات التي اكتسبها من بعض الممارسات الخاطئة التي سادت التنظيمات الشيوعية في مصر.

ولعل على رأس التهم التي يلصقها البعض بكورييل ويرمون بها تلميذه عبد الخالق أن كلاهما كان (سِمِّيعاً) وكأنه كله أذن، ولكن ليس أذن خير في كل الأحوال ولا في أغلبها. وكان حرصهما على المنصب المرموق وعلى امتيازات الزعامة قد جعل كلاً منهما يخشى بعض الرفاق الذين يتوجس منهم خيفة على موقعه. وإذا ما تملك أحدهما الشك وعصفت به الهواجس والظنون فإنه يبطش بطش الجبارين الذين لا يرعون إلا ولا ذمة.

ويسوق بعض النقاد موقف عبد الخالق من رفيق نضاله قاسم أمين كمثل يدللون به على صدق ما ذهبوا إليه. فقد كان قاسم في طليعة مؤسسي هيئة شؤون العمال بعطبرة وبعدها الاتحاد العام لنقابات السودان ويمكن أن يقال عنه، حقاً وصدقاً، أنه أبرز القادة الذين أنجبتهم الطبقة العاملة السودانية، وأصلبهم عوداً وأشدهم مراساً، وكان أكثر الرفاق تواضعاً وأحرصهم على وحدة الشيوعيين وعلى تزكية نضالهم وعلى الالتزام بالخلق السوداني الأصيل مما جعل كثيراً من القلوب تهوي إليه وتوقره وتعزه. وظن عبد الخالق أن الرجل ربما أطاح به كقائد للحركة الشيوعية ولعله كان صائباً في أمر ومخطئاً في الآخر فقاسم كان أكثر منه أهلية لتولي مسؤولية قيادة تنظيم يدعي أنه طليعة الطبقة

العاملة ولكنه كان أبعد الناس عن التآمر لتحقيق منفعة لذاته وازهدهم في نيل المكاسب لشخصه.

فكان أن تلقف عبد الخالق تهمة شنيعة ألصقت بقاسم ولعله كان منها بريئاً براءة الذئب من دم ابن يعقوب وبراءة ابن يعقوب نفسه من كيد امرأة العزيز التي شغفها حباً... ووسع عبد الخالق من دائرة انتشارها بأن أمر بأن تناقش على كل مستويات الحزب وحتى في قسم النساء، وصدر القرار بصحة التهمة المنسوبة للزعيم العمالي وتمت ادانته. وبعد أن قضي على الرجل في أخلاقه وتم اغتياله سياسياً عجل سكرتير الحزب باخراجه من البلاد وذلك بتهريبه عن طريق «شاد» إذ كانت حكومة الفريق عبود توالي البحث عنه لاعتقاله وانتهى به المطاف ببراغ حيث أدخل مدرسة مهمتها تدريب العمال على العمل النقابي... وهكذا أصبح زعيم عمال السودان الفرد تلميذاً نجيباً يافعاً... وأدخل المارد القمقم وأسدل عليه الستار واحتواه الظلام وظل في طي النسيان إلى أن قرر عبد الخالق أن يزيح عنه غبار السنين بعد أن كان قد دفنه حياً ودسه في التراب وبعد أن أمن جانب النجم الذي هوى فقد رشحه ليرأس لجنة فحص العضوية لمؤتمر الحزب الخامس الذي قرر المؤتمر التداولي الذي انعقد بالخرطوم في أغسطس ١٩٧٠ الدعوة له لحسم الخلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني. وقد قدم عبد الخالق ذلك الاقتراح في غيبة قاسم الذي كان قد انطوى على نفسه ولزم غرفته المتواضعة ببراغ يجتر الذكريات ويرثي لحال نفسه. وكان هدف عبد الخالق من ترشيحه أن يجعله طرفاً في الصراع الذي كان يسود الحزب في تلك الأيام وأن يكسبه إلى زمرته.

وأذكر أن شيخ الأمين محمد الأمين رئيس اتحاد المزارعين وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي آنذاك خاطب عبد الخالق قائلاً:

«اتق الله يا رجل ولا تجعل من نفسك إلهاً آخر تؤتي الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء... بالأمس قتلت الرجل والآن تريد أن تمشي في جنازته...».

ومثل آخر... عندما أدرك عبد الخالق أو هكذا هُيىء له أن عوض عبد الرازق ربما شكل خطورة على زعامته إذ كان هذا أكثر منه تواضعاً وأقرب منه إلى قلوب الرفاق، استغل رأياً طرحه عوض للمناقشة وبالطريقة التنظيمية وداخل الحزب مؤداه أنه «بما أن الطبقة العاملة السودانية لا زالت طفلاً يحبو وبما أن الحزب الشيوعي هو فصيلتها الطليعية فينبغي أن يصاحب نمو الحزب نمو طبقته بمعنى أن يكتفى بالتركيز في العمل السري على خلق كادر يكون بمثابة القلب الذي يشرف ويهيمن على الحركة الثورية وأن يدفع ببقية الرفاق إلى حيث الشعب وحيث تنظيماته الديمقراطية والنقابية والمهنية والسياسية.

ووجد عبد الخالق ضالته المنشودة وبدأ حملة تشهير بالرجل الثاني في الحزب وأكل لحمه ونهش عظامه. وبعد أن تم له تأليب الرأي العام الحزبي ضده اتهمه رسمياً بالدعوة لتصفية التنظيم وبالسعي لحرمان الطبقة العاملة السودانية من سيفها البتار ومن طليعتها الثورية... وكان أن طرد عوض وصحبه من الحظيرة فاضطر بعض هؤلاء إلى تكوين تنظيم مناوىء (لحستو) اطلقوا عليه اسم «الجمعية الوطنية».

وبالقدر الذي تركت فيه الحركة الشيوعية المصرية بصمات سلبياتها على الحركة الشيوعية السودانية فإن هذه الأخيرة قد ظلت تعاني أيضاً من آثار النواقص التي ورثتها عن الحزب الشيوعي البريطاني.

وربما بدا الأمر غريباً أن يكون الحزب الشيوعي السوداني مطية لأخطاء تنظيمين سياسيين يختلفان اختلافاً بيناً من حيث الخصائص والمميزات التي هي انعكاس لاختلاف البيئة التي أفرزت كلا منهما وتعبير عن التباين في التكوين التاريخي والنفسي لشعبيهما. ذلك التباين الذي كان يبدو في مدخل كل منهما لمعالجة شتى القضايا بالرغم من أن كليهما كانا يسترشدان بالنظرية الماركسية اللينينية، أو هكذا كانا يدعيان.

ولعل الحزب الشيوعي السوداني هو الوحيد بين الأحزاب الشيوعية التي نشأت في المستعمرات الذي انفرد بمثل هذه العلاقة الحميمة بين تنظيمين (شقيقين) ظلا يتجاذبانه سلباً وايجاباً وتشده اخطاؤهما إليها شداً. وقد ظل الحال كذلك بالرغم من أن التنظيم الشيوعي المصري كان قد وهن العظم منه واشتعل الرأس

شيباً ولّما يزل صبياً قاصراً. وقد ظلت أثار ضعفه باقية تشل خُطى الشيوعيين السودانيين حتى بعد أن آثر الموت المدني، ومن الدرجة القصوى، كما كان يقول فقهاء الرومان وبعد أن كال على نفسه التراب طوعاً واختياراً تحسباً لرضاء عبد الناصر وعربوناً لصداقته وتحقيقاً لرغبة السوفيت. وكذلك كان الحال مع التنظيم الآخر الذي ولد وظل وما زال غريباً عن أرضه وشعبه البريطاني.

وما من سبيل لإيجاد تفسير لهذه الظاهرة الفريدة التي صاحبت نمو الحزب الشيوعي السوداني ولصقت به إلا باسنادها للوضع المتميز الذي كانت عليه البلاد قبل الاستقلال وباعتبارها نتيجة له. فقد ظل السودان ومنذ انهزام جيوشه وتصفية حكمه الوطني في مطلع هذا القرن وإلى نيله الاستقلال في الفاتح الأغر من يناير **١٩٥٦** يخضع لسيادة دولتين هما بريطانيا العظمى ومصر اللتين استندتا على حق الفتح كمسوغ لاحتلال أرض الغير واقتسام السيادة عليها، واضفيتا الشرعية على فعلهما المنكر بتوقيع اتفاقية الحكم الثنائي في التاسع عشر من يناير **١٨٩٩**.

والسودان في هذا لا يشابه المستعمرات الأخرى التي كانت تخضع كل منها لسيادة دولة مغتصبة واحدة. وكما انفردت الدول الأوروبية الرأسمالية بادارة شؤون المستعمرات التي بسطت نفوذها عليها كذلك فعلت أحزابها الشيوعية إذ سعت كل منها لخلق التنظيمات الشيوعية بها وظلت تأخذ بيدها وترعى نموها وكانت لها بمثابة الأم والأب الروحي حتى وبعد نيل هذه للاستقلال، اللهم إلا في القليل من الحالات حيث انقلبت الآية وأصبحت بعض أحزاب المستعمرات نتيجة لثقل وزنها السياسي ولتعاظم

نفوذها بعد استرداد بلادها لسيادتها هي مصدر الإلهام والرعاية للأحزاب الأوروبية التي كانت لها اليد الطولى في انشائها. ولعل خير مثال لذلك العلاقة بين الحزب الشيوعي الأندونيسي والحزب الشيوعي الهولندي قبل الحماقة التي ارتكبها الأول في منتصف الستينات.

وكان الكومنترن يبارك العلاقات الوثيقة بين الأحزاب الشيوعية في البلاد (الأم) وبين الحلقات الماركسية والأحزاب الصغيرة في المستعمرات وكان يدخل في حسابه عند تقويم وتقدير مساعداته للأحزاب الشيوعية في البلاد الأوروبية مدى المساهمة التي تقدمها هذه إلى ربائبها اللاتي في حجورها من أحزاب المستعمرات.

وفي الواقع فإن وضع السودان القانوني المتميز لم تنعكس ظلاله ولم يقتصر أثره على الحزب وحده وإنما ترك بصماته أيضاً على الأحزاب السودانية الأخرى التي كانت تنشط في المسرح السياسي وتسود ساحته. فقد انقسمت تلك الأحزاب قبيل نهاية النصف الأول من الأربعينات إلى معسكرين، معسكر الأحزاب الاتحادية التي كانت تنادي بجلاء الجيوش البريطانية وبالوحدة مع مصر، وإن كانت تختلف فيما بينها حول مدى الوحدة المنشودة. وكان هذا المعسكر يحظى بالطبع بتأييد مصر ومساعداتها.

والمعسكر الثاني كان معسكر الأحزاب الاستقلالية وكانت هذه تنشد الاستقلال وترفض الوحدة وترغب في التحالف مع بريطانيا مع ايجاد نوع من الصلة مع مصر بل منها من كان يدعو لانضمام السودان لرابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) ومنها من كان يجاهر بالعداء لمصر. وكان الود متبادلاً بين رجال هذا المعسكر

وبين الادارة البريطانية ومع دهاقنة الاستعمار وأساطينه أمثال تشرشل وايدن وايمري.

وقد ساعد انقسام البلاد الطائفي على ازكاء نار الحرب الباردة وتوقدها بين المعسكرين الاتحادي والانفصالي... وبقدر ما أسهم الصراع بين الطائفتين الرئيسيتين الختمية والأنصار في تأخير اعلان استقلال السودان، وقد كان مؤهلاً أكثر من غيره من المستعمرات التي نالت استقلالها قبله، بقدر ما استفاد الحزب الشيوعي السوداني، ذاتياً، من ذلك الصراع الذي يسر له كسب كثير من المثقفين، خاصة بين أبناء جيلنا حيث وجد بعضهم في عضويته ضالتهم السياسية والبعض الآخر في الانتهاء للتنظيمات الجماهيرية والفئوية التابعة له وفي شعاراته المثيرة واحة وراحة وظلاً ظليلاً بعد أن كفروا بالطائفية وافكها وضاقوا ذرعاً بغلوها وأحزانها.

وفي الواقع فإن كفران المثقفين السودانيين بالطائفية لم يكن ظاهرة جديدة فقد جاءت تباشيرها مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عندما بدا لهم تهالك زعماء الطوائف وارتماؤهم في أحضان الدولة الاستعمارية الباغية وكذلك عندما وضعت الحرب أوزارها حيث هرعوا إلى لندن لتقديم فرائض الولاء لملك بريطانيا العظمى وتهنئته بالنصر المؤزر على أعداء الإمبراطورية ومنهم خليفة المسلمين.

وقد كان أستاذنا الشيخ عبد الله عمر البنا أول من صاغ ذلك الكفران شعراً وكان كثير من أبناء جيلنا قد تتلمذوا على يديه ونهلوا من علمه الوافر.

ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى قصة قصيدته التي هاجم في جانب منها بعض زعماء الطوائف والتي استقيناها منه عندما كنا طلبته بمدرسة أم درمان الثانوية في أوائل الأربعينات وعززناها بما جاء عنها في ملامح استاذنا حسن نجيلة، فقد نشرت جريدة حضارة السودان في عددها الصادر في الثامن من أبريل **١٩٢١** مقاطع من القصيدة التي ألقاها الشيخ البنا، بدار شيخ أندية الخريجين بأم درمان يوم الجمعة الأخير من العام الهجري **١٣٣٩** توديعاً للعام الذي بلغت روحه الحلقوم وابتهاجاً بخلفه الذي كاد أن يهل. وكان مطلع القصيدة:

يا ذا الهلال عن الدنيا أو الدين
حدث فإن حديثاً منك يشفيني
طلعت كالنون لا تنفك في صغر
طفلاً وأنك قد شاهدت ذا النون
سايرت نوحاً ولم تركب سفينته
وأنت أنت فتى في عصر زيلين

ويستطرد الشاعر وكما يقول نجيلة فيرسم صورة صادقة لبعض طوائف المجتمع وشخصياته، في ايماء يشير ولا يبين وفي سخرية مريرة عرف بها الشاعر واشتهر:

والناس في القطر أشياء ملفقة
فإن تكشف فمن ضعف وتوهين
فمن غني فقير في مروءته
ومن قوي بضعف النفس مرهون
ومن طليق حبيس الرأي منقبض
فأعجب لمنطلق في الأرض مسجون

وآخر هو طوع البطن يبرز في
زي الملوك وأخلاق البرازين
وهيكل تبعته الناس عن سرف
كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها
سحتاً وتوردة في قاع سجين

لقد اختلف الناس آنذاك حول مدى انطباق هذه النعوت على شخصيات معينة من كبار رجالات مجتمع ذلك العهد وأخذوا يتجادلون من هو الغني الفقير في مروءته ومن هو الطليق حبيس الرأي؟ وأيهم طوع البطن يبرز في زي الملوك وأخلاق البرازين؟ وأيهم عناه الشاعر بهذا المعنى الساخر؟:

وهيكل تبعته الناس عن سرف
كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها
سحتاً وتوردة في قاع سجين

وثار الشريف يوسف الهندي وظن أنه من المعنيين بالقصيدة وغضب غضباً شديداً وقرر تحريك الإجراءات الجنائية ضد الشاعر الأستاذ البنا ورفع الأمر للسلطات التي أحالت بدورها القصيدة للمستشرق الانجليزي مستر هيللسون ليصدر الفتوى في أمر ما خفي من معانيها وما بطن، وما همز ولمز وكان الرجل بجانب عمله بقسم المخابرات أستاذاً للتاريخ بكلية غردون وكان من الذين أفاءت عليهم اللغة العربية ببعض أفضالها فاغترف من نهرها الفياض وسقى من حوضها الروي.

وصدر الحكم وكما قال الأستاذ نجيلة كان عدلاً يدل على حسن تفهم للشعر ولمعانيه وذكرت حيثياته «أن ما جاء في القصيدة من نقد يعتبر نقداً عاماً لا يعني أحداً بعينه ولكن من رأى أنه يشبهه يمكن أن يدعيه لنفسه» وشبه الأمر بالقمعة الطائرة ليس لها صاحب فمن وجدها على مقاس رأسه يستطيع أن يدعي ملكيتها ويستحوذ عليها.

وكان هذا فصل الخطاب في القصيدة التي تناقلها الرواة فيما بينهم وتناشدوها في مجتمعاتهم الخاصة إذ صادفت هوى في نفوسهم بعد أن ظلت القلة المثقفة والواعية ترقب النتيجة مشفقة.

وكما كان البنا شاعر العشرينات الذي همز ولمز وغمز زعماء الطوائف فقد كان المجذوب شاعر الخمسينات الذي لم يبخل عليهم بسوط عذاب فقد جاء في قصيدته الشهيرة التي ناجى فيها روح عزيزه الناصر قريب الله:

تخلفت بعدك في موطن
يعيش ويسعد فيه الصنم
وما زال باطله قائماً
يصدقه الناس فيما زعم
وما قيمة العقل في أمة
يسود بها الجاهل المتهم
ويهتف كافرها بالهدى
ويمدح باطلها بالكرم
لدى وطن حقه ضائع
تقسم قادته فانقسم

ويتوسط شعر البنا والمجذوب في هذا المجال ومن حيث الزمان شعر المهندس مصطفى يوسف التني الذي ولج ساحة الشعر في الثلاثينات واشتهر وأبدع.

وقد فتن المثقفون بشعره خاصة قصيدته التي سماها «وطني» والتي كان يحلو لنا ترديد بعض أبياتها في الليالي السياسية التي كنا نقيمها باسم الجبهة المعادية للاستعمار ونكثر منها في الخمسينات. وقد كان التني في فترة من فترات حياته الزاخرة عدواً لدوداً للحزبية والطائفية... يقول في وطني:

وطني شقيت بشيبه وشبابه
زمن سقاك السم من أكوابه
قد أسلموك إلى الخراب ضحية
واليوم هل طربوا لصوت غرابه
وطني تنازعه التحزب والهوى
هذا يكيد له وذاك طغى به
ولقد يعاني من جفا أبنائه
فوق الذي عاناه من أغرابه
بالأمس كانوا وحدة فتفرقت
فسطا المغير بظفره ونيابه
حتى الذي نزف الدماء مسخراً
كالطير حفوا خشعا بركابه
كم أوهم الدهماء فيه فأملوا
في العالم الثاني جزيل ثوابه
ومشت زرافات الحجيج لبابه
فكأنما البيت الحرام ببابه

وطني يعيب به العدو ولا ترى
من دافع عن حوضه ورحابه
وإذا انبرى ليذود عن سودانه
البارع المقدام من كتابه
لم يعدم الشر الدخيل جماعة
لترتل الأمداح في محرابه
وطني أصيب بمعشر أواهمو
وأظلهم فسعوا ليوم خرابه
لو طهر السودان من دخلائه
لتطهر السودان من أوشابه
لهفي على السودان من دخلائه
لهفي على السودان من أحزابه

قلنا إن تأثير الحركة الشيوعية المصرية على نظيرتها السودانية كان تأثيراً غير مباشر إذ كان سبيله الرفاق السودانيين الذين نقلوا معهم بعض السلبيات التي اكتسبوها من تجربتهم النضالية بمصر.

وقلنا أيضاً إن الحزب الشيوعي السوداني قد ابتلى كذلك ببعض الأمراض السياسية التي كانت ولم تزل تفتك بالحزب الشيوعي البريطاني.

ولكن الغريب في الأمر أن أعراض الأمراض التي أصابت كلًا من الحركة الشيوعية المصرية والحزب الشيوعي البريطاني بدت في ساحتين مختلفتين من نشاط الحزب الشيوعي السوداني وكأنما الفيروس الذي فتك بكل منهما قد اختار وارتضى لنفسه منطقة مستقلة من جسم هذا الأخير يباشر فيها نفوذه وآثاره الضارة.

فبينما تبدو الآثار السلبية للتجربة المصرية واضحة جلية في أسلوب العمل الداخلي التنظيمي وعلى المستويين القاعدي والقيادي للحركة الشيوعية السودانية نجد أن تأثير الرفاق البريطانيين قد اقتصر على الجبهة الفكرية والثقافية.

وربما تعجب البعض من غرابة هذه الملاحظة ومن هذا

التقسيم العفوي لمناطق النفوذ إن صح التعبير.

وربما رأى البعض تناقضاً بين هذه الملاحظة وبين ما ذهبت إليه من قبل من أن الشيوعيين الانجليز كانوا هم أول من بادر، وفي أوائل الأربعينات، بتأسيس الحلقات الماركسية في السودان وأن الحركة الشيوعية السودانية لم تتأثر برصيفتها المصرية إلا بعد منتصف الأربعينات وبالتحديد في عام ١٩٤٧ بعد أن عبر إليها بعض الطلبة السودانيين الذين نالوا قسطاً من التدريب على النشاط الشيوعي في التنظيمات المصرية وخاصة في (ح . م) ومن بعدها (حدتو).

وتأسيساً على ذلك السبق الزمني وتسبيباً على المبادرة فإنه كان حرياً أن يترك الرفاق البريطانيون آثار بصماتهم على العمل الداخلي، التنظيمي والقيادي للحركة الوليدة أو على الأقل أن يسود طابعهم وتتغلب (ماركتهم) على الصيغة المصرية التي لحقت بالركب بعد أن قطعت القافلة شوطاً بعيداً في مسارها.

ولعلنا نجد حل اللغز في طبيعة الحزب الشيوعي البريطاني الذي لم يمارس نشاطاً سرياً طوال حياته إذ ولد تحت ظل القانون وحمايته وما برح وما زال يتمتع بالحريات التي كفلتها (المقانا كارتا) ووثيقة حقوق الإنسان ودعمتها السوابق القضائية المتعددة ولذلك كان من الصعب على الرفاق الانجليز الذين نشأوا في كنفه وتربوا تحت مظلته أن يحسنوا بناء تنظيم سري دعك عن اجادة تسيير دفة قيادته والتحكم فيها.

وهكذا جاء التنظيم الذي ابتدعه مستر ستوري أقرب لحلقات دراسة الماركسية منه إلى تنظيم سري منضبط تحكم مساره قواعد سلوكية صارمة.

ولعل الأسلوب الذي اتخذه مستر دكنسون مدرس الثانوي البريطاني الذي ذكرنا أنه قدم السودان عند بداية العام الدراسي في سنة ١٩٤٥ يؤيد ما ذهبنا إليه إذ ركز على القاء المحاضرات وعلى ادارة حلقات المناقشة والندوات التي تُعرِّف بالماركسية اللينينية والتي تمجد الاتحاد السوفيتي بوصفه أول دولة اشتراكية استطاعت التغلب على مشاكل التخلف بالرغم من الإحاطة الاستعمارية ومن المقاطعة الرأسمالية الكاملة وتسنى له المحافظة على سيادته الإقليمية التي تمتد إلى سدس اليابسة بعد أن هزم جيوش النازية وردها على أعقابها.

وقد كانت بداية نشاطه محاضرة دعت إليها الجمعية الأدبية بمدرسة أم درمان الثانوية والتي كان يرأسها عبد الخالق محجوب ويقوم بأعباء أمانتها التجاني الطيب بابكر وكان كلاهما في السنة النهائية من دراسته الثانوية وقد حرص كل الأساتذة وخاصة البريطانيون منهم على حضورها وكذلك فعل كل طلاب السنة الثالثة والرابعة. وكان موضوع المحاضرة المادية الجدلية والتاريخية وقد تركت أثراً بالغاً بين الطلبة.

وظل مستر دكنسون يواصل نشاطه الثقافي إلى أن نقل إلى مدرسة وادي سيدنا حيث أحضر زوجته معه وكانت هي مثله، عضواً بالحزب الشيوعي البريطاني، وكانا يتناوبان القاء المحاضرات وادارة حلقات النقاش (بالداخليات) حيث يقيم الطلاب.

وبجانب هذا التأثير المباشر للشيوعيين البريطانيين الذين كانوا في خدمة الإدارة البريطانية بالسودان كانت هناك قنوات أخرى

تدعم الصلة الفكرية بين رفاق الخرطوم ورفاق لندن منها صحيفة (الديلي ووكر) لسان حال الحزب الشيوعي البريطاني ومنها أيضاً الطلاب الشيوعيون السودانيون الذين كانوا يتلقون دراساتهم بجامعات بريطانيا وكان الاتفاق قد تم بين الحزبين على استيعابهم في فروع ولجان الحزب البريطاني بمعاهدهم الدراسية كما تم الاتفاق على أن يختار الحزب الشيوعي السوداني ويعتمد رصيفه البريطاني أحد الطلاب السودانيين المقيمين بلندن ليكون (حلقة اتصال) بين قادة الحزبين.

وبعد أن استقر عبد الخالق محجوب نهائياً بالسودان بعد أن أصيب بداء الرئة بمصر واستحالت عليه مواصلة الدراسة بكلية آداب القاهرة توطدت الصلة بينه وبين مستر ب. ل. شيني مدير مصلحة الآثار السودانية وقد ظل هذا يمده بمطبوعات الحزب الشيوعي البريطاني والسوفيتي إلى أن (سودنت) وظيفته. وقد حبب هذا إليه أفكار «الويز» وتلميذهما النجيب هارولد لاسكي وكتابات ج . د. هـ . كول وسيرستا فورد كربس قبل أن يرتد وينتكس على حد زعم الشيوعيين. ولقد كان عبد الخالق ولعله ظل إلى حين وفاته شديد الاعجاب بأفكار (الفابينز) ولكن قليلاً ما كان يبدي ذلك ويظهره خوفاً من الصاق تهمتي التحريفية والانتهازية الاصلاحية إذ كانت «الأرثوذكسية» الستالينية تسد منافذ الفكر الماركسي ولا تقبل تفسيراً للماركسية اللينينية إلا إذا كان ذلك متفقاً وفي كل تفصيلاته وجزئياته مع قول ستالين ومع ما كتب.

وقد تأثر عبد الخالق أيضاً بأفكار بعض مثقفي الحزب الشيوعي البريطاني وعلى رأسهم بالم دت وإدريس كوكس خاصة

حول تحليل الوضع الدولي وعن توازن القوى في الخمسينات وعن دور الاتحاد السوفيتي، وقد بدا ذلك واضحاً في كل تقاريره لدورات انعقاد اللجنة المركزية وفي اجتماعاتها الموسعة وفي كل مؤتمرات الحزب خاصة بعد رجوعه من لندن في عام ١٩٥٤ حيث كان قد دعي إلى حضور مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني ضمن بعض قادة الأحزاب الشيوعية (فيما وراء البحار). ويكاد لا يخلو أي تقرير قدمه من مقدمة تطول ولا تقصر عن انقسام العالم إلى معسكرين وإلى دور الاتحاد السوفيتي (العظيم!) وإلى تعاظم القوى التي تنشد السلم.. الخ.

وكان يضع دائماً على رأس قائمة مهام الحزب الإسهام في حركة السلم العالمية وذلك بالاصرار على أن تضمن أجندة كل اجتماع ولكل تنظيمات الحزب القيادية والقاعدية موضوع التوقيع على النداءات المتواترة الصادرة عن مؤتمرات السلام التي انعقدت بكل من فيينا وبرلين واستكهلم وتجيء بقية المهام في المرتبة الثانية لذلك. وكان نضال الرفاق يُقَوم سلباً وايجاباً بمدى عدد التوقيعات التي يتحصلون عليها ونوعية الموقعين بالرغم من صعوبة اقناع المواطن العادي بالأمر مما أدى إلى تزوير التوقيعات واضافة أسماء وهمية للنداء.

وكان ذلك بتأثير مباشر من الحزب الشيوعي البريطاني الذي ظل نبتاً غريباً عن أرضه إذ كان يُغلِّب مصلحة الاتحاد السوفيتي على مصالح شعبه ويهتم بمشاكل السياسة الدولية أكثر من اهتمامه بقضايا تطور الشعب البريطاني في طريق الاشتراكية والتقدم.

ولعل من الأسباب التي جعلت منه حزباً قزماً بالرغم من

تخطيه الخمسين عاماً من عمره موقفه الغريب من الحرب العالمية الأخيرة.

وقد حرصت الصحافة البريطانية في خريف ١٩٧٥ على نشر مذكرة سرية قدمها مستر هربرت موريسون وزير الداخلية العمالي لمجلس الوزراء البريطاني في عام ١٩٤٣ عن موقف الحزب الشيوعي البريطاني المعادي للحرب في شهورها الثمانية الأوائل. وقد استطاعت الصحف نشر تلك المذكرة بعد مرور ثلاثين سنة على نهاية الحرب إذ تمنع القوانين الانجليزية نشر الوثائق السرية الحكومية قبل مرور مثل تلك الفترة.

وقد أسس مستر موريسون مذكرته على محضر وقائع إحدى جلسات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني.

ولعله من المفيد أن ننقل هنا ونحن نناقش الآثار السلبية للحزب الشيوعي البريطاني على رصيفه السوداني، وبشيء من التفصيل مذكرة الوزير العمالي ووقائع الجلسة التي بنى عليها تقريره:

عندما فوجىء العالم في الثاني والعشرين من أغسطس ١٩٣٩ بنبأ توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي والمانيا النازية ذهل الرفاق البريطانيون وصدموا إذ كانوا وعلى مدى بضع سنين يسوقون التهم ويكيلونها على حكوماتهم ويتهمونها بالميول وبالتعاطف مع المانيا الهتلرية.

وقد حاولت صحيفة الحزب (الديلي ووكر) أن تقلل من آثار الصدمة وحاولت الادعاء بأن اتفاق ستالين وهتلر كان «ضربة من أجل السلام» وفي نفس الوقت دعت العمال والمثقفين أن يشددوا

من ضرباتهم الموجهة لحكومة تشمبرلين التي اتهمتها بأنها لا تتخذ موقفاً صارماً من النازيين.

وعندما غزا هتلر بولندا طالبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني باعلان الحرب على المانيا ودعت إلى اقالة مستر نيفل تشمبرلين رئيس الوزراء لمواقفه المتهالكة ولضعفه أمام هتلر.

وفي السادس عشر من سبتمبر ١٩٣٩ أي بعد خمسة عشر يوماً من اعتداء هتلر على بولندا ألف هاري بوليث سكرتير الحزب الشيوعي البريطاني كتيباً سماه «كيف نكسب الحرب» ولكن وبعد يوم واحد من اصدار الكتيب المذكور احتلت الجيوش السوفيتية الجزء الشرقي من بولندا بمقتضى إحدى المواد السرية لوفاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا النازية... والقم الشيوعيون البريطانيون صخرة بأكملها وليس بحراً. ولكن بعد قليل (عادت ريمه لي قديمها) وبدأت (الديلي ووكر) تنشر التبريرات للغزو السوفيتي متناسية أن اتفاقية عدم الاعتداء نصت سلفاً على اقتسام بولندا وعلى إضافة جزئها الشرقي لروسيا والآخر لألمانيا. فكان أن نشرت بالبنط العريض أن الجيش الأحمر قد فعل فعلته التي فعل من أجل (تموين) فلاحي شرق بولندا بالخبز!!... والفلاحون (المساكين) المفترى عليهم لم يطلبوا من أحد خبزاً ولم يكونوا في حاجة إليه حيث أنهم أولاً فلاحون شغلهم الشاغل فلاحة الأرض وعزقها وزراعة القمح وثانياً فإن أراضي شرق بولندا تعتبر من أخصب أراضي الدنيا وأكثرها صلاحية لزراعة القمح وثالثاً ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان... وصدق المسيح عيسى بن مريم روح الله وكلمته.

وفجأة تغير موقف الحزب الشيوعي. ودون مقدمات أصدر توجيهاته لكل عضويته بألا يسهموا في المجهود الحربي إذ أنها حرب استعمارية غير عادلة ولا مصلحة للطبقة العاملة البريطانية فيها... كل ذلك وبعد أن كانت بريطانيا قد أعلنت الحرب على ألمانيا وبعد أن كان الحزب الشيوعي البريطاني يتهم رئيس الوزراء بالتخاذل والضعف أمام هتلر ويطالبه بإعلان الحرب... وقديماً قيل إذا عرف السبب بطل العجب، فقد أصدر الكومنترن والذي كان مقره موسكو تعليمات لكافة الأحزاب الشيوعية بأن يقفوا بمعزل عن الحرب... وقرر بالنص أن الحرب الدائرة «حرب استعمارية غير عادلة يقتسم البرجوازيون في الدول المتحاربة وزرها بالتساوي - وعلى الطبقة العاملة وأحزابها الشيوعية أن تقف بمعزل عنها».

وكان أن أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني في جلستها المنعقدة في الثاني من اكتوبر **١٩٣٩** بأغلبية واحد وعشرين عضواً في مواجهة ثلاثة أعضاء فقط قرارها المشار إليه وأضافت إليه نداء طالبت الرفاق بموجبه مضاعفة الجهد وتكثيف العمل من أجل كشف القناع عن الوجه البرجوازي لقيادة حزب العمال حيث كانت هذه تدعو لمواصلة الحرب ضد الطغاة الهتلريين ولإنقاذ العالم من براثن النازية الآثمة.

ولكن وبمجرد أن دخل الاتحاد السوفيتي الحرب ضد المحور الفاشي النازي صارت الحرب في نظر الحزب الشيوعي البريطاني حرباً عادلة (ولحس) الحزب دعوته للعمال بمقاطعة المجهود الحربي بل ناشدهم بمضاعفته وبالالتحاق بقوات الإمبراطورية المسلحة وبخوض غمار الحرب.

وكان هذا شأن الحزب الذي اتخذناه قيماً علينا وهادياً لنا خاصة في ساحة العلاقات الدولية والذي كلفنا الانصياع لتوجيهاته الكثير، فقد كان هو وراء تحليلنا الخاطىء في البداية لثورة يوليو المصرية وكان هو الذي نصح برفض اتفاقية القاهرة التي حققت الحكم الذاتي وجلاء القوات البريطانية عن السودان وكان هو الذي طالبنا بالانحياز لجانب الحزب الشيوعي السوفيتي في بداية صراعه المرير ضد الحزب الشيوعي الصيني وقبل ذلك كان هو من ضمن القوى التي دفعتنا لتأييد تقسيم فلسطين.

- ١٨ -

وكانت القضية الفلسطينية تحتل مساحة كبيرة في رقعة السياسة العربية والدولية، عندما رجعنا لمصر في منتصف اكتوبر من عام ١٩٤٧ عقب انتهاء العطلة الدراسية الصيفية.

وقد كان لتلك القضية وللحرب التي اندلعت بسببها وللأحداث التي وقعت في مصر والسودان فيما تبقى من أيامْ ذلك العام وفي السنوات الثلاث التي تلته أكبر الأثر في صياغة مستقبل الحركة الشيوعية في كل من البلدين وفي تحديد اتجاه وخطى مسيرتنا السياسية العسيرة.

وقد بلغ الاهتمام بفلسطين ذروته في نوفمبر من ذلك العام حيث كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تناقش أمر تقسيمها الذي أقرته في التاسع والعشرين منه.

وكانت هناك قبل صدور القرار أصوات خافتة تنادي به داخل مصر وترى فيه الحل الممكن بل المخرج الوحيد من الأزمة وكان مصدر تلك الأصوات قلة من مثقفي اليهود المصريين وعلى رأسهم الزميل شندي «شوارتز» الذي تزعم في عام ١٩٤٨ منظمة «نحو حزب شيوعي مصري» والتي كان يرمز اليها بـ «نحشم»

والزميل شيريزي «مارسيل اسرائيل» الذي كان أحد مؤسسي المنظمة المنشقة من حدتو والتي يرمز اليها بـ «حدتو ع . ث» أي حدتو العمالية الثورية .

أما قيادة الحركة الأم حدتو وعلى رأسها كورييل فقد كانت ترفض التقسيم قبل صدوره شأنها في ذلك شأن أغلبية الحركات الشيوعية في المنطقة العربية إذ كانت تطالب بانتهاء الانتداب البريطاني بوصفه خالق المشكلة وسبب النكبة وأس البلاء وتنادي بقيام دولة فلسطينية موحدة تتمتع فيها الأقلية اليهودية بحقوق متساوية مع الأغلبية العربية وتتشابك فيها أيدي الكادحين من الجانبين لتدك معاقل التخلف والرجعية وترسي دعائم المجتمع الاشتراكي الذي يرفض ترتيب الحقوق على الأساس العرقي والشوفيني، ولا يعترف بالتمايز العنصري .

ولكن ذلك الموقف تغير بين عشية وضحاها إثر مساندة الاتحاد السوفيتي لقرار التقسيم وتصويت مندوبه في الجمعية العامة إلى جانبه، إذ سرعان ما صدرت لنا التوجيهات في «حدتو» بتأييده . وأذكر أني قد تعجبت لأمر ذلك التحول وأثرت جدلاً حاداً حوله في اجتماع إحدى الخلايا الطلابية التي أسدنت إليَّ مسؤولية الإشراف عليها وذلك في حضور زكي مراد الذي تسلمت منه قيادة الخلية المذكورة والتي كان من ضمن أفرادها طالب الطب يوسف ادريس الأديب والقصصي الذي اشتهر فيها بعد، وكان وقتها يحرر صحيفة حائطية بكلية طب القصر العيني سماها «المجتمع» .

وبعد بضعة أيام من ذلك الاجتماع الصاخب أخطرني عبد

الخالق محجوب أن كورييل قد حدد موعداً لمقابلتي ومعي زكي مراد وكان هذا زميلاً لي في كلية الحقوق وهو مصري من أصل نوبي تسلق سلم المسؤولية في الحركة الشيوعية المصرية إلى أن صار أحد كبار قادتها. وكنا قد عملنا معاً كثيراً في تنظيمات الطلبة وفي سكرتارية الشباب... اجتمعنا ثلاثتنا بكورييل الذي بادر بسؤالي عن رأيي الشخصي حول حل مشكلة فلسطين التي وصفها بأنها معقدة، وكانت هذه طريقته في الحوار يحاول دائماً سبر غور محدثيه قبل أن يدلي هو برأيه ويستطرد. وكنت قد قرأت قبلها مقالاً مطولاً وجيداً في إحدى نشرات الحزب الشيوعي البريطاني التي كنت أدمن قراءتها وأحرص على اقتنائها من مكتبة الميدان، وكان المقال بقلم مستر قالشر النائب الشيوعي الوحيد في البرلمان البريطاني والذي ظل يمثل دائرته منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وإلى أواخر الأربعينات. وكانت خلاصة أفكاره أن حل مشكلة اليهود لا يكون في قيام دولة خاصة بهم سواء في فلسطين أو يوغندا أو ليبيا وإنما يكون في اشتراك الإنسان اليهودي في قضايا التحرر واسهامه في معارك الصراع الطبقي في الموطن الذي يقيم فيه. وقد خصص القطرين الافريقيين لأنه سبق لبريطانيا أن اقترحت قيام دولة يهودية بيوغندا التي كانت وقتئذ مستعمرة بريطانية وذلك في رسالة بعثت بها في الرابع عشر من أغسطس ١٩٠٣ إلى تيودور هرتزل الذي كان يترأس المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد ببازل بسويسرا... كما كانت أعين الصهاينة تتجه في مطلع هذا القرن إلى طرابلس الغرب بعد أن رفض الخليفة العثماني هجرة اليهود إلى فلسطين واستيطانها رغم الضغوط الشديدة التي تعرض لها. ورغم العروض والقروض

وغيرها من الإغراءات المالية التي كانت دولته في أمس الحاجة لها.

وقد أمن كوربيل على ذلك وقال إن نضال اليهود المشترك مع الطبقات الكادحة في محل الإقامة أو موطن المنشأ هو الوضع الطبيعي بل الحل الأمثل، ولكن مشكلة فلسطين تكمن في أنه ما من أحد يعرف ماذا يريد العرب، فهم يرفضون قيام دولة موحدة تتساوى فيها حقوق اليهود مع حقوقهم، كما كانوا قد رفضوا من قبل التنازل عن شريحة صغيرة من أرض فلسطين لا تزيد مساحتها عن الألفي ميل مربع تكون موطناً لليهود المقيمين هناك... وكان كوربيل يشير بذلك إلى توصية اللجنة الملكية التي كونتها الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٧ وسميت باسم «بيل كومشن» تأسيساً على اسم رئيسها الانجليزي.

وواصل كوربيل حديثه بعد أن قال إنه لاينطق بلسان يهودي ولا ينطلق من موقع التعصب العرقي الشوفيني حينما ينحي باللائمة على العرب الذين فرطوا في أراضيهم التي لم يسلبها منهم المستوطنون اليهود وإنما اشتروها منهم بحر مالهم. ثم تحدث طويلاً عن كفاح اليهود وعن تضامنهم مقارناً ذلك مع مظاهر انقسام العرب وتفرقهم زبراً وشيعاً واشتاتاً. وضرب مثلاً لتضامن اليهود بدعمهم لصندوق النقد اليهودي القومي الذي كان الهدف منه جمع المال والصدقات ما قل منها وما كثر من أغنيائهم وفقرائهم على السواء بغية شراء الأرض في فلسطين واستصلاحها والانتفاع بها لمصلحة الكادحين منهم تطبيقاً للمبدأ الاشتراكي الأرض لمن يفلحها. ثم تناول موضوع الكبوزات اليهودية التي أقامها الإسرائيليون في ظل الانتداب والتي شبهها بالكميونات التي

بشر بها الاشتراكيون الأوائل أمثال سان سيمون وروبرت أون التي تطبق الشعارات الاشتراكية من حيث تقسيم العمل وتوزيع عائده وختم حديثه بمقولته التي اشتهرت فيما بعد «إن اسرائيل ستكون واحة في صحراء العرب».

ثم وجه حديثه لعبد الخالق قائلاً إنه تسلم رسالة من الرفيق إدريس كوكس - أحد قادة الحزب الشيوعي البريطاني - يخطره فيها بتراجع حزبهم عن موقفه الأول وأنه يقف الآن وراء التقسيم كما أقرته هيئة الأمم ويرى ضرورة التزام كافة الرفاق، خاصة في الوطن العربي، بقيام الدولتين العربية والاسرائيلية بالصورة التي ارتضاها وصوت إلى جانبها أندريه أندريفتش جروميكو، وكان هذا هو مندوب الاتحاد السوفيتي بالمنظمة الدولية قبل أن يتولى منصب وزير الخارجية السوفيتية للمرة الأولى في عام ١٩٤٩.

وقد طلب كورييل من عبد الخالق أن ينقل آراء الرفيق البريطاني إلى زملائه بالسودان.

ثم انتحى بي كورييل جانباً وقال إنه يخشى أن يكون الهوس الديني هو الذي دفعني إلى الغلو في معارضة قرار الحزب بتأييد التقسيم والذي بدا مني في اجتماع الخلية الطلابية، إذ أنه يعلم مدى تعصبي الذي يدل عليه حرصي على أداء فريضة الصلاة في مواقيتها وحتى أثناء الاجتماعات الحزبية التي كانت تطول «وتسل الروح» وذلك رغم المعلومات التي كانت تصله عن تصرفاتنا الليلية في مقاهي القاهرة وحاناتها. ثم نصحني بالاستزادة من قراءة الجانب الفلسفي للماركسية وخاصة كتابات لينين عن الدين.

وقد علمت فيما بعد أن بعض الأصدقاء من الرفاق كانـوا يقصون عليه طرفاً من تلك التصرفات التي كانت تتسم بالطيش والنـزق والتي تتعدى اللهو وتتجـاوزه إلى ارتكـاب المعـاصي والكبائر.

ولعل تلك التصرفات لم تكن لتؤرقه بالقدر الذي كانت تسببه له الاتجاهات الدينية التي كانت تبدو في سلوك كثير من الرفاق السودانيين حيث المواظبة على الصلاة، والحرص على أداء فريضة الصوم.

وربما كان الرجل، بمنطقه وكفره، محقاً في تخوفه فقـد كان الدين هو الصخرة التي وقفت حائلاً دون مواصلة كثير من الرفاق السودانيين لمسيرة الشيطان تحت راية الكفر والإلحاد.

لعله ما من حدث سياسي ترك آثار بصماته السلبية على مستقبل الحركة الشيوعية المصرية ووقف حائلاً دون انتشار أفكارها ومانعاً لازدهارها وأدى من ثم إلى عزلها ثم وأدها كقرار تأييد تقسيم فلسطين الذي كان وبحق بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

والغريب في الأمر أن ما تبقى من فلول الشيوعيين المصريين لا يدركون هذه الحقيقة، ليسوا هم وحدهم فحسب وإنما كذلك الرفاق السوفيت الذين ربما أعماهم الغرض عن الاعتراف بأصل الداء وسبب المرض إذ كان لمباركتهم لقرار التقسيم ومبادرتهم بالاعتراف بدولة اسرائيل في منتصف مايو من عام ١٩٤٨ أثرهما القاطع في حسم تردد بعض قيادات التنظيمات الشيوعية في مصر وفي بعض البلاد العربية وانحيازها إلى جانب التقسيم والاعتراف بدولة الصهاينة.

وقد استغلت القوى الحاكمة في مصر ذلك الموقف ايما استغلال، وكثفت ونوعت من أساليب دعايتها ضد الشيوعيين بوصفهم عملاء للكمنفورم وتبعاً لروسيا يستوحون منها المواقف

السياسية وينفذون أوامرها ويغلبون المصالح الأممية كما تراها موسكو على المصالح القومية. ثم أردفت ذلك باعلان الأحكام العرفية التي مكنتها من التنكيل بخصومها والزج بهم في المعتقلات والسجون. وقد استفادت حكومتا النقراش باشا وخليفته ابراهيم عبد الهادي باشا من تجربة صدقي باشا التي لم تفلح اجراءاته التعسفية التي اتخذها في الحادي عشر من يوليو ١٩٤٦ في وقف الاندفاع نحو اليسار، وفي صد موجة المد الوطني التي تصاعدت مع نهاية الحرب العالمية الثانية حيث لم يكن صدقي باشا قد مهد لحملته الضارية بأخرى اعلامية واسعة كتلك التي فجرتها السراي وحكومتا الحزبين المؤتلفين السعديين والأحرار الدستوريين.

وقد أسهمنا نحن بدورنا في انجاح الحملة المسعورة ضدنا وفي احكام عزلتنا عن الجماهير التي كانت ترفض التقسيم وبأكثر منه الاعتراف بقيام دولة للصهاينة في قلب الوطن العربي. فقد صدرت لنا التوجيهات بالصمود أمام جميع المحاولات التي تشكك في جدوى قرار التقسيم أو التي تطعن في أهلية اليهود وحقهم في قيام دولة مستقلة خاصة بهم. كما كان علينا دائماً أن ندافع بجسارة وحرارة عن الاتحاد السوفيتي «العظيم؟!» ومواقفه التي كان الظن أنها دائماً مع الحق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وقد تحملنا كثيراً من العنت ومن قسوة العمال الذين كنا نترصدهم في أماكن العمل وفي المقاهي ونوزع عليهم المنشورات التي تدعو للاعتراف بإسرائيل والتعايش السلمي معها. ولم يقف الأمر عند مظاهر الاحتقار والازدراء لنا بل لم يسلم بعضنا من

صفعات أيدي البروليتاريا التي كان يقال لنا دائماً أننا طليعتها وفرقتها المصادمة.

وكـان كل من يتقـاعس منـا عن تنفيـذ تلك التـوجيهـات والتعليمـات أو يطالب بـاعادة النـظر في أمـر قـراري التقسيم والاعتراف باسرائيل يتهم بالذيلية التي تعني السير في ذيل الحركة الجماهيرية التلقائية.

واستغلت سلطات الأمن عزلة الشيوعيين المصريين فكالت لهم الضربات بعد أن نسقت بين أجهزتها المختلفة حيث كان هناك أكثر من جبهة تحارب الشيوعية وضاعفت من نشاطها وشددت من حملاتها وغاراتها التي ازدادت عنفاً وضراوة إثر إعلان حرب فلسطين في منتصف عام ١٩٤٨ وقد تمكنت من اعتقال غالبية قيادات الحركات الشيوعيـة المتعددة التي تفشت التكتـلات بين صفوفها ثم الانقسامات مما يسر تسلل المخبرين وأعوان البوليس السياسي وسهل مهمتهم.

وقـد استمـرت الحمـلات وتـواصلت الاعتقـالات وتـوالت المحاكمات حتى اجراء الانتخابات البرلمانية في عام ١٩٥٠ التي اكتسحها حزب الوفد الذي بادر بالافراج عن المعتقلين ما عدا أولئك الذين صدرت بحقهم أحكام قضائية وما عدا الأجـانب الذين تم ترحيلهم إلى خارج البلاد.

وكان على رأس قائمة أولئك الأجانب المبعدين هنري كورييل الذي كان قد اعتقل في بداية إعلان الحرب. وقد كان ترحيله ضربة كبرى أصابت مقتلاً من كبرى التنظيمات الشيوعية في مصر وهي «حدتو» فقد تبين بعد اغتياله في الرابع من مايو ١٩٧٨ في

إحدى ضواحي باريس أنه كان من أخطر الشخصيات الثورية العالمية إذ ظل وعلى مدى سبعة وعشرين عاماً هي مدة إقامته بفرنسا التي اتخذها موطناً بديلاً عن موطنه الأصلي بمصر يوجه ويسهم في قيادة الحركات الثورية والإرهابية في مختلف أنحاء المعمورة فقد ثبت أنه كان على صلات حميمة مع كل تنظيم يساري إرهابي في الغرب وفي بلاد العالم الثالث من الألوية الحمراء الايطالية إلى بادر ماينهوف في المانيا الغربية إلى جبهات التحرير المختلفة في جنوب القارة الافريقية إلى ثوار البوليساريو في الصحراء الغربية إلى الحركة الثورية المناهضة لحكم الشاه في إيران إلى تشكيلات المنظمات الفلسطينية المتعددة إلى الجيش الأحمر الياباني إلى ثوار توبا ماروسي في أراغوي والارجنتين إلى الجيش الأحمر الإيرلندي والحركات التي تضم الثوريين والارهابيين من الأقليات المهاجرة من المستعمرات السابقة والمقيمة بهولندا وبلجيكا وفي البرتغال والسويد والحركات الدينية والعرقية والانفصالية في اسبانيا وتركيا وإيران والعراق.

وباعتقال كورييل وبعض كبار أعوانه من قادة حدتو خلا الجو أمام بقايا كوادر اسكرا القديمة وعلى رأسهم زمرة من أبناءالذوات والاقطاع والباشوات الذين لم تمتد اليهم أيدي رجال الأمن ورهط آخر من أئمتهم اليهود أمثال هليل شوارتز ومارسيل اسرائيل وسدني سلامون حيث لم يقبض على هؤلاء إلا في نهاية سنة ١٩٤٩ ومطلع عام ١٩٥٠.

وبقدر ما كان اعتقال كورييل وإبعاده من البلاد ضربة قاسية وجهت إلى صدر الحركة الشيوعية في مصر كان بقاء شوارتز ومارسيل وسدني خارج المعتقل وبعيداً عن متناول قبضة البوليس

السياسي ضربة أخرى أصابت الحركة الشيوعية ولكنها من نوع مختلف حيث أسهموا ثلاثتهم ورابعتهم أوديت رفيقة درب سلامون في تفتيت ما تبقى من مظاهر الوحدة بين التنظيمات الشيوعية والتي كانت قد تمت في منتصف عام ١٩٤٧ بعد كثير من الجهد والمعاناة والتي كانت ثمرتها المولود الجديد «حدتو» . . . فقد تميزت تلك الفترة بسيادة الأفكار الانقسامية وبظهور التكتلات ثم قيام التنظيمات الجديدة التي كانت بالرغم من اختلافاتها حول طبيعة مهام المرحلة وصراعاتها حول أسلوب العمل تلتقي جميعها بل وتتبارى في إعلان تأييدها لتقسيم فلسطين وتبارك قيام الدولة اليهودية الوليدة. وكان ذلك ايذاناً بقرب نهاية الحركة الشيوعية في مصر بل بداية للسقوط، بعد فترة الصعود، التي عاشتها في الحقبة الزمنية القصيرة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وإعلان حرب فلسطين.

وليس أدل على بداية النهاية وإرهاصات العد العكسي التنازلي من أن قيادة كبرى تنظيمات الحركة الشيوعية وهي حدتو قد آلت في تلك الفترة التي تلت إعلان حرب فلسطين إلى ثلاثة أشقاء مصريين، أخوة لأب وأم، ولثلاثة من الطلاب السودانيين، الذين لم تكن إقامتهم بمصر قد امتدت عندئذ إلا لسنتين لا تزيدان إلا أشهراً قليلة.

- ٢٠ -

وكنتيجة للاعتقالات والانقسامات والهروب من المركبة المعيبة الفارغة تقلصت عضوية اللجنة المركزية لحدتو حتى لم يبق منها في أواخر عام ١٩٤٨ خارج جدران السجون والمعتقلات إلا فؤاد عبد الحليم وأخوه الذي يكبره، كمال إمام الشعراء الماركسيين العرب وشيخ شعراء الطليعة وأميرهم الذي كان يقول شعراً ينفذ من الأسماع ويدلف إلى القلوب ليملك الفكر والشعور معاً، والذي طغى نشاطه السياسي اليومي على كل ما عداه فجنى على قلمه الذي كان يغوص في مشاكل الحياة كما يغوص الفأس في الأرض الطيبة. وحرمنا نحن عشاق شعره من فيضه ومن توأمات لدرره الثلاث، «الفجر الجديد، وإصرار، ونحن في السجن» التي تغنى بها جيلنا في الأربعينات والخمسينات والتي يقول في أولاها:

أيها المغمض المعذب بالليل وتطلع لنور فجر جديدِ
أنا أشقى وأنت تشقى وهذا ما حفظناه من تراث الجدود
غير أني آليت أبذل روحي كي ينال الحياة بعدي وليدي
يا رفيقي ونحن جرحان مران يسيلان من دم وصديد
يا رفيقي ونحن روحان حران يضجان في حديد القيود

يـا رفيقي أنا وأنت وعمي وابن عمي جمـاعة من عبيـد
أنا أبكي وأنت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد
أنـا صوت مضيـع لن يقويـه انفجاري بـه ولا ترديـدي
فانطلق وانفجر معي يتعالى ذلك الصوت صارخاً بالوعيد
يا رفيقي في العري والجوع والكد كفانا عهود عري وجوع
قد شربنا في كأسنا عرق الجبهة والدم ذائباً في الدمـوع
ذهب العمر كالخريف بوادينا وماتت زهـورنا في الصقيـع
نحن من يخلق الربيع ويـرنو عـارياً بـاكياً لحسن الـربيع
يا رفيقي ونحن ننحت في الصخر قصوراً وننزوي في قبور
أفمن يخلق السعـادة كفـاه يعـاني في كهفـه المهجـور
أفمن يخلق البـطولـة والأبـطال يـرضى بعـالم مغمـور
يا جيوش العبيد أرهقك الظلم فقومي إلى الكفاح وثوري
أمل ماج في الصدور فأحياها وضجت به حنايـا الصدور
أيهـا المغمض المعذب بـالليل تـطلع لنـور فجـر جـديـد
أنا أبكي وأنت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد

وفي عصمائه «إصرار» يقول:

أخي هل نحن تحت الأرض أعشاب وديدان
أخي يا أيها الإنسان هل في مصر إنسان؟!
أراهـا مسـرح الأشبـاح قـد وارتـه ألـوان
هي الفـلاح والـفـلاح أسمـال وأكـفـان
هي العمـال والعمـال إجهـاد وحـرمـان
هي المـظلوم والمظلوم لا يجـديـه غفـران
أرانـا نجمـع الأشـواك مـا للشـوك ريحان
دمـانـا فـوق هـذي الكف بـرهـان ونيـران

وهـذا الظلم لا يـرضـاه إنجيـل وقـرآن
أخي ما الصبر؟ إن الصبر كفران وخـذلان

ويواصل تساؤلاته وتحريضه:
أخي ما السجن؟ هل في السجن تعذيب وحرمان؟
وهـل يجدي مـع الأحرار قضبـان وسجان؟
سـوانـا يـرهب القضبـان أو تثنيـه جـدران
إذا كنـا شـرارات ـ فنحن اليـوم بـركـان

ويقول في قصيدته «نحن في السجن» التي أنشدها في عام ١٩٤٦ من وحي اعتقال صدقي باشا لمائتين من الرفاق والمتعاطفين معهم:

نحن في السجن وللسجن ظـلام وقيـوم
وعـلى الأوجه في السجن تهـاويـل الـوجـوم

أيهـا العـالم ـ هـل أنت بعيـد أم قـريب
هـذه الجـدران تـدعـوك ـ ولكن لا تجيب
نحن في السجن وتحت الشمس أنصار الظلام
هم أرادوا أن يـظل الشعب عبداً يستضـام
وأردنـا أن يعيش الشعب حـراً لا يضـام
ولهـذا ـ فـلنـا السجن جـزاء وانـتـقـام
ولهـم تـنـصـب رايـات وأعـراس تـقـام
وبهـم نحـو بـني التـاميـز حب وهيـام
وبنـو التـاميـز يجـزون غـرامـاً بغـرام
أيهـا الشعب ـ تمـرد ـ أفـلا تبصـر قبـرك
هـا هو الحفـار قد أوشـك أن ينهي أمـرك
ها هو الخنجـر في قبضة من مـزق صدرك

موكب الأحرار أنصارك للسجن تحرك
فتحرك أنت يا شعب لكي تهدم قبرك
يا رفاقي نحن في السجن جنود في كفاح
نحن لن يرهبنا السجن ولن نلقي السلاح
دولة الظلم ستنهار وتذروها الرياح
فنباح الظالم المسعور أصداء النواح
ولنا النصر وللنصر مساء أو صباح
حينما نقذف للسجن بأعداء الكفاح

ويقول في قصيدته «قصور وقبور»:

رب صمت مدجج بسلاح ـ وضجيج مآله للفناء
رب صمت يسير نحو انفجار يتنادى به رحيب الفضاء

فيشب الصراع ناراً إذا ما ألهبت أحرقت ستور الرياء
بين هذا الظلام ـ يولد شعب يطلب النور أو بريق الدماء
وجد الأرض جنة لسواه ـ فتغاضى عن جنة في السماء
لن تدك القصور ـ لكن ستغدو للملايين تحتمي بالعراء
إن هذي القصور ستر لعريان بناها وما له من بناء
وطلاء القصور لو حللوه أيقنوا أنه دم الأبرياء
فيك يا ليل فجر عهد جديد يرسل النور في كهوف الشقاء
يسعد الساعد التي تعمل للكل ـ ويشقي سواعد الجبناء

ومع قصيدته التي يبشر فيها بالثورة:

هبت الريح وللريح إذا هبت زئير
لم يعد لليل صمت ـ لم يعد للصبح نور
وظلام فيه نجم باهت الضوء ـ يغور

غـير أن الشعلة الحمـراء تجتـاح الستـور

وشعر كمال من هذا القبيل كثير.

وبعد مراسلات ومشاورات بين كمال وبين الرفاق الذين تيسر الإتصال بهم من أعضاء اللجنة المركزية المعتقلين في الهاكستيب والطور وقع الإختيار على ثلاثة من السودانيين لينضموا لعضوية اللجنة المركزية هم بابكر محمد علي فضل طالب التجارة والجنيد علي عمر وأحمد سليمان الطالبان بكلية الحقوق. وقد أثلج صدورنا وقتها أن الإختيار تم على أساس الثقة بصلابتنا وغيرتنا على مصالح الطبقة العاملة وحرصنا على المحافظة على بقاء التنظيم ورفع راية الشيوعية خفاقة وعالية. ثم انضم لعضوية (ل.م.) الكاتب والصحفي المعروف إبراهيم عبد الحليم الذي أهدى إليه شقيقه الشاعر كمال عبد الحليم قصيدته المشهورة التي سماها ثورة الفنان والتي جاء فيها:

هل تطيق الطيور ألا تغني وهي تشقى في حوزة القضبان

هكذا نحن في الشقاء نغني للملايين أخلد الألحان

ومن بعد ابراهيم وبعد اختفاء أخيه الزميل فؤاد صعد طالب الحقوق المصري أحمد الرفاعي إلى عضوية اللجنة المركزية وقد كان هذا صديقاً عزيزاً لي لمست صلابته وبلوت جسارته وخبرت شدة مراسه حيث كنا قد عملنا سوياً في عدة تنظيمات حزبية سرية وعلنية.

وكانت المهمة العاجلة للجنة المركزية بتكوينها الجديد حسب رؤية الرفاق الكبار المعتقلين هي المحافظة على بقايا أجهزة التنظيم وتأمين سلامة ما تبقى من كادره. ولكننا أضفنا لواجباتنا مهمة

عسيرة أخرى وهي تعويض العضوية المفقودة والساقطة بعناصر جديدة من العمال الثوريين. وقد التزمت وزميلي بابكر بأن نقتحم معاقل العمال وننفذ إلى أماكن تجمعاتهم وأساساً في شبرا الخيمة وفي مسطرد التي تبعد عن الأولى ببضعة أميال. وكنا نتناوب نحن الإثنين التسلل إلى تلك المناطق العمالية مرتين في الأسبوع وكانت تلك مهمة صعبة بل لعلها من أصعب المهام التي أوكل أمرها إلينا وكلفنا بتنفيذها طيلة فترة نضالنا المشترك مع الرفاق المصريين فقد كان الدخول إلى تلك المنطقة يتحكم فيه جسر صغير، كثير الشبه «بكبري أبو عنجه» عند مدخل حي الموردة بأم درمان وكانت تقف على كل من جانبيه وعلى الدوام ثلة من الشرطة المسلحة ونفر من رجال البوليس السياسي المتمرسين. وكان علينا أن نتحين فرصة دخول وخروج فرق العمال المتناوبة «الورديات» قبل الأصيل وفي المساء وأن نرتدي ملابس تماثل تلك التي يلبسها العمال وكنا نصب عليها بقعاً من الزيت المتسخ ونغبِّر شعرنا حيث لم يكن الرأس قد اشتعل بعد شيباً، وكنا نغتنم فرصة تسللنا ونقضي أكبر قدر من الساعات نتنقل كالنحل بين مختلف الخلايا والوحدات العمالية لنقلل من مخاطر كثرة الدخول والخروج طيلة أيام الأسبوع.

ولم يكن اختياري وبابكر لتلك المهمة عرضاً وعبثاً، أو لصفات ثورية نتميز بها عن بقية رفاقنا، فقد كنا أصلح الرفاق القياديين خلقة وشكلاً لتنفيذ ذلك الواجب الثوري إذ كان «أولاد عبد الحليم» معروفين تماماً لدى سلطات الأمن ويتميزون بخصائص خلقية وجسمانية تفضح حقيقتهم مهما استعانوا «بالكوزمتك» وأضافوا من رتوش، ومهما تدثروا واستغثوا بالثياب.

وأما ثالثنا الجنيد فقد كانت «شلوخه» الثلاث الرأسية المستطيلة تقف حائلاً دون تجويد تبديل خلقته.

ولم تكن أعين رجال الأمن هي الوحيدة التي تخيفنا ونخشاها فقد كانت هناك الكلاب الضالة وغيرها التي تزرع المنطقة بين مسطرد وشبرا جيئة وذهاباً وتناوش السابلة ليلاً ونهاراً.

ولعل حرص «حدتو» على اقتحام مناطق العمال في تلك الظروف الصعبة «وتجنيد» الثوريين منهم وضمهم إلى عضويتها كان من أهم ما يميزها عن غيرها من رصيفاتها اللاتي كن يزحمن الساحة السياسية المصرية. فقد انشغلت هذه بصراعاتها الداخلية وخلافاتها الأيديولوجية وصرفها جدلها البيزنطي ومناقشاتها الفارغة عن الالتزام بالشعارات التي كانت تطرحها حول ضرورة كسب طليعة العمال الثوريين. حيث كان الظن أن ضعف تمثيل البروليتاريا في قياداتها وبين صفوفها هو سبب نكبة الحركة الشيوعية في مصر ومرد هوانها. وحيث كان المثقفون دائماً هم «الشماعة» التي يعلق الزعماء الشيوعيين عليها الأدران والأوساخ «والحيطة القصيرة» التي يُسند إليها كل خطأ وكل انحراف.

ولم نكن لندرك وقتها ولأمد طويل بعدها ألاّ مكان للشيوعية بيننا ولا مقام لفلسفتها الماركسية بين ظهرانينا، وأنها لن تفلح في مد جذورها في أرضنا الطيبة الطاهرة مهما جودت من أسلوب عملها، وعدلت من خططها، وبدلت من مواقفها، ومهما بذلت من جهد لاجتذاب من تطلق عليهم وصف طليعة البروليتاريا لحظيرتها. فهي كالنبت الشيطاني أو كالشجرة الخبيثة ما لها من قرار. أو قل كما قال الزيات، وإن اختلف المقام والمقال

والمناسبة: إنها كالنبتة البرية نشأت في الرملة الجافة لا يمسكها أصل راسخ، ولا يسندها جذع قوي، ثم عاشت على علالة الجدب وبلالة الندى فاخضرت من غير نضارة وأشوكت من غير زهر وظلت في العراء تقاسي السموم والغيظ وتكابد السغوب والظمأ، حتى اقتلعها الريح وألقت بها هشيماً في أخدود من أخاديد الأرض.

- ٢١ -

وتزامل موقفنا الخاطىء من قضية فلسطين مع خطأ الاتحاد السوفيتي الذي كان قد وافق على قرار التقسيم وبارك قيام دولة الصهاينة. وأسهم الخطآن في التعجيل بنهاية التنظيمات الشيوعية في مصر بل وفي انحسار موجة المد الشيوعي في العالم العربي كله.

ولم تكن مسؤولية الإتحاد السوفيتي قاصرة على مجرد رفع الأصبع تأييداً لقرار التقسيم في الجمعية العامة للأمم المتحدة ولا على مجرد الإعتراف بقيام الدولة الجديدة وإنما تكمن مسؤوليته في أنه كان يقف وراء التقسيم ويدعو له. وليس صحيحاً الزعم بأنه كان مكرهاً على قبوله حيث لم يكن هناك بديل له أو ظهير.

واقع الأمر أن الاتحاد السوفيتي لم يشترك في صياغة القرار وحسب وإنما أسهم في هزيمة القرار المناوىء للتقسيم في المرحلتين اللتين اجتازهما ذلك القرار. فقد كانت هيئة الأمم المتحدة قد أقرت في منتصف مايو من عام ١٩٤٧ تشكيل لجنة من أحد عشر عضواً لتقديم توصياتها حول مستقبل فلسطين بعد أن طلبت بريطانيا بوصفها دولة الإنتداب عرض الأمر على الجمعية العامة. وقد حدث خلاف حاد داخل تلك اللجنة وانحازت

تشيكوسلوفاكيا التي كانت تمثل المعسكر الإشتراكي الشرقي إلى جانب الدول الضالعة مع أمريكا والتي كانت تطالب بالتقسيم وكانت النتيجة أن تقدمت اللجنة بتقريرين، تقرير الأغلبية الذي ينص على التقسيم وقد أيدته كل من كندا وغواتيمالا وأرجواي وبيرو وهولندا والمكسيك وتشيكوسلوفاكيا وتقرير الأقلية الذي طالب بقيام دولة تؤسس على النظام الفدرالي أو الاتحادي وقد أيدته كل من الهند ويوغسلافيا وإيران.

ولم تشأ تشيكوسلوفاكيا، بناء على تعليمات الاتحاد السوفيتي، أن تقف على الحياد كما فعلت استراليا وإنما أصرت على احتضان قرار التقسيم.

وكذلك كان الحال عندما عرض الأمر على الجمعية العامة في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ فقد صوت الاتحادالسوفيتي، إلى جانب التقسيم وكذلك فعلت الدول التي كانت تسير في فلكه من أعضاء الجمعية العامة في تلك الدورة وهي روسيا البيضاء واكرانيا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا. وقد كان موقف الاتحاد السوفيتي وربائبه مطابقاً تماماً لموقف أمريكا وصويحباتها. ولم يشأ الاتحاد السوفيتي أن يقف مع كتلة الدول العربية والدول السبع التي ساندتها رفضاً لقرار التقسيم أو على الأقل أن يمتنع عن التصويت كما فعلت بريطانيا وتسع دول أخرى.

وثمة دليل على تعاطف السوفيت المسبق مع اليهود وحرصهم على إنجاح قرار التقسيم توطئة لإعلان قيام دولة إسرائيل ما ذكرته غولدا ماير في كتابها الذي سردت فيه قصة حياتها إذ قالت أنه قد «تبين لنا من خلال المداولات التي جرت في الأمم المتحدة طيلة

خريف عام ١٩٤٧ مساندة الكتلة السوفيتية لنا لأسباب منها أننا مثل الروس قد قدمنا كثيراً من الضحايا أثناء الحرب وإننا مثلهم قد مسنا الضر على أيدي النازيين وفي هذا ما يشفع لنا ويبرر، في نظرهم، إصرارنا على قيام دولة خاصة بنا». ومما يدعم هذا القول سماح الاتحاد السوفيتي لمواطنيه من اليهود بالهجرة لإسرائيل وبأعداد كبيرة وعلى دفعات متتالية ومتواترة.

ولا نتجنى على السوفيت إن قارنا بين موقفهم هذا الذي أشارت إليه رئيسة وزراء إسرائيل وبين موقف بريطانيا التي يحاول الروس جاهدين إلقاء اللوم عليها وتحميلها وزر قيام دولة الصهاينة، فقد كان على رأس وزارة الخارجية البريطانية آنذاك الوزير العمالي أرنست بيفن الذي كان يكرر القول بأنه لا مسوغ البتة لقيام دولة إسرائيلية في فلسطين بعد هزيمة دول المحور وانتصار الحلفاء وما تبع ذلك من استقرار لليهود في مواطن نشأتهم الأوروبية الأصلية حيث انتهت سياسة اضطهادهم وزالت مظاهر الكراهية للسامية... وبالفعل فقد امتنع الإنجليز عن التصويت إلى جانب قرار التقسيم بينما أيده الاتحاد السوفيتي وزمرته كما سلف القول.

ولعلنا لا نسرف ونشتط إن قلنا إن دور المعسكر الشرقي في بقاء دولة إسرائيل على قيد الحياة في شهورها الأولى يفوق دور أمريكا. فقد كان وضع القوات العربية عند بداية القتال في منتصف مايو من عام ١٩٤٨ أفضل بكثير من وضع القوات اليهودية ولولا الإمدادات العسكرية التي انهالت على إسرائيل من بعض الدول الشيوعية وغيرها في فترة الأربعة أسابيع التي تلت وقف إطلاق النار والذي عرف بالهدنة الأولى لدفنت الدولة

الباغية في ثوب عرسها ولدخلت في زمرة القوى الظالمة التي عفت آثارها ولم يبق منها غير عروش خاوية وبئر معطلة وقصر مشيد.

ودفعاً لشبهة التحامل وتهمة الإفتراء نستنجد مرة أخرى برئيسة الوزراء غولدا مايير التي ذكرت في كتابها آنف الذكر والذي دفعت به إلى المطبعة في عام ١٩٧٥ :

«... ومهما كان من أمر التحول الذي طرأ على موقف السوفيت من دولة إسرائيل في العقدين ونصف الأخيرين فإن الصدق يقتضينا أن نقرر أنه لولا الأسلحة والذخيرة التي اشتريناها من تشيكوسلوفاكيا ونقلناها عبر يوغسلافيا وغيرها من دول البلقان في الأيام السوداء الحالكة من بداية الحرب لما أمكننا أن نقف ونثبت على أقدامنا في الفترة التي سبقت تحول المد لمصلحتنا في يونيو ١٩٤٨ فقد كان جل اعتمادنا، في الستة أسابيع الأولى لحرب الاستقلال، على القذائف والمدافع الرشاشة والطلقات بل والطائرات التي تيسر للهاغانا شراؤها من دول أوروبا الشرقية في الوقت الذي فرضت فيه الولايات المتحدة الأمريكية الحجر على مبيعات السلاح وشحنها إلى الشرق الأوسط... وستبقى الحقيقة قائمة رغم محاولات طمسها بأن الاعتراف السوفيتي بدولة إسرائيل في الثامن عشر من مايو عام ١٩٤٨ كان ذا أهمية عظمى لنا. فقد أمكن أن تلتقي الدولتان العظميان ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية عند مناصرة الدولة اليهودية... وكان في هذا دفع روحي ومعنوي عظيم لنا».

ولم يكن بملك تشيكوسلوفاكيا ولا أي من رصيفاتها من دول شرق أوروبا أن تُقدم على مد إسرائيل أو غيرها بالسلاح بعوض

أو بلا عوض وبمقابل أو بغير مقابل دون استئذان سادة الكرملين ورضائهم بل لم يكن بمقدور تلك الدول أن تنتزع لنفسها زمام المبادرة في مثل هذا الأمر.

ومما يثير الدهشة حقاً أن الاتحاد السوفيتي والدول الضالعة معه قد فعلوا فعلتهم النكراء هذه رغم أنف شروط اتفاقية الهدنة الأولى التي ترتب عليها وقف القتال والتي نصت في البند الرابع منها على «عدم استيراد أي نوع من الأسلحة من قبل الطرفين المتحاربين».

وقد التزم العرب بهذا الشرط وكذلك أمريكا بينما تخطته إسرائيل ومن ورائها المعسكر الشرقي مما أخل بميزان القوى العسكرية وأدى من ثم إلى انتصار إسرائيل في الجولة الثانية من القتال الذي استؤنف في التاسع من يوليو عام ١٩٤٨ أي بعد شهر إلا يوم واحد من وقفه.

وليس صحيحاً ما يقال اليوم تبريراً لقرار التقسيم من أنه كان القرار الوحيد الأمثل الممكن. إذ كان هناك بالفعل ومنذ أبريل ١٩٤٦ بديل معروض للتقسيم وهو وضع فلسطين بعد انتهاء الإنتداب البريطاني تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة لفترة يقرر بعدها الشكل النهائي لمستقبل ذلك البلد. وقد رفض الاتحاد السوفيتي ذلك البديل زاعماً أنه مشروع يخفي مطامع أمريكا التي تريد أن تجعل من أرض فلسطين نقطة ارتكاز متقدمة تخدم مصالحها الإستعمارية في تلك المنطقة. ولعله قد فات عليه أن يدرك أن قيام دولة للصهاينة من شأنه أن يحقق مصالح الامبريالية بأكثر من حالة الوصاية أو أي وضع آخر حيث إن الدعوة

للصهيونية هي في حقيقتها دعوة استعمارية، وأنه لا يجوز النظر إلى دولة بني صهيون على أساس أنها مجـرد أداة للإستعمـار، ولا ينبغي مقارنتها بالدول الصغيرة التي تشابهها من حيث حيز الأرض الذي تشغله أو من حيث تعداد السكان، فإسرائيل دولة لها مطامعها الإستعمارية الذاتية ولها مطامحها التـوسعية التي لم تخفها أو تقلفها منذ تأسيسها بل ومنذ أن كانت حلماً يراود تيودور هرتزل وأملاً يداعبه. وهي ربيبة الحركة الصهيونية التي لعبت ولا زالت تلعب دوراً رئيسياً في تسيير دفـة الحكم في بعض البلاد الرأسمالية وخاصة في أمريكا والتي لها فلسفتها وأيديـولوجيتهـا المتميزة.

وبالطبع فإن حقيقة الحركة الصهيونية العالمية وأطماعها لم تكن لتخفى عـلى السوفـيت فـالمكتبة المـاركسية تـزخر بـالكتب التي تعرضت لها بالنقد منذ أن كانت طفلاً يافعاً بل منذ ولادتها في نهاية القرن الماضي. وحتى الحركات اليهودية الأخرى التي تدثرت بثيـاب التقدم أو التي كـانت تنطلق من بعض مـواقع الفكـر الماركسي كحركة «البوندست» في روسيا القيصرية لم تسلم من نقد لينين ومن وخزات قلمه الحاد ومن لذعات لسانه السليط ومن اتهاماته لها بأنها تخفي في باطنها بذور الفكر الصهيوني وتعاني من مخلفات الإتجاهات البرجوازية.

وقـد ترتب عـلى تكييف الروس الخـاطىء لحقيقة إسـرائيل وتصويرها على أنها لا تعدو أن تكون دولة تابعة لأمريكـا أن ارتفعت بعض الأصـوات، التي تصفها اليـوم أبواق الـدعايـة السوفـيتية بالإنهزامية، وجهرت بالقول زاعمة أن صداقة أمريكا هي مفتاح الحل لمشكلة فلسطين وأنه ما من سبيل آخر لعلاج

الأذى الإسرائيلي ووقف زحف الخطر اليهودي ورفع أثقاله الجاثمة على صدر الأمة العربية إلا بالتفاهم مع الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الجانب الآخر فقد ارتفعت بعض الأصوات التي تلوك الشعارات التقدمية، وكنا من ضمن أفراد جوقتها وفرقتها الموسيقية، منادية بتركيز الحملة على أمريكا وليس على إسرائيل بوصف الأخيرة مجرد لعبة في يدي الأولى.

وما من تفسير لموقف السوفيت الغريب من قرار التقسيم إلا الزعم بأنهم ربما كانوا يؤملون خيراً كثيراً ينالونه نتيجة للوضع الإستراتيجي الجديد في الشرق الأوسط وأنهم ربما ظنوا أن في قيام الدولة الباغية مصلحة مؤكدة لهم ومنفعة، وذلك على نقيض ما ظلت تردده أجهزة إعلامهم المقتدرة من أنها لعنة وأنها نغمة.

ورغم أن التغيير الذي طرأ على خريطة المنطقة لم يحقق لهم كل الأحلام التي كانوا يرجونها من وراء قيام دولة إسرائيل التي كان الظن أنها ستكون بمثابة الواحة في صحراء العرب يتسلل منها الفكر الماركسي إلا أن إبليس الذي تقمص شخصية دالاس لم يخيب كل آمالهم فقد صَدَّق عليهم الظن بأن يسر لهم التسلل داخل بعض الدول العربية والتي كانت من قبل منطقة مقفولة محظور عليهم دخولها ومحرم عليهم ارتيادها فانتفخت جيوبهم بالمال الذي تساقط عليهم كالمطر في مقابل السلاح الذي احتكروا تصديره وثمناً للوقود وقطع الغيار التي ظلوا يتحكمون في عمليات إمدادها بما يحقق لهم إذعان الدول الصغيرة المتعاقدة معهم ويكفل رضوخها لضغوطهم ومن ثم السير في ركابهم وتحت لوائهم.

ولكن تلك المكاسب التي حققتها الدبلوماسية السوفيتية نتيجة لممارسات الدولة اليهودية العدوانية كانت مكاسب مؤقتة وعلى نطاق العلاقات الرسمية مع بعض الدول العربية وعلى رأسها مصر. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنفوذ السوفيت وسط الحركة الشعبية في تلك البلاد فقد بدأت الغشاوة تنجلي عن الأبصار وبدأ كثير من المثقفين العرب يدركون حقيقة مرامي السياسة السوفيتية ويعجبون لمفارقاتها ويتساءلون عن أسباب استعجال الروس الإعتراف بقيام دولة إسرائيل رغم ما بدا من تجاوزات واتجاهات عدوانية للصهاينة في الفترة القصيرة التي تلت صدور قرار التقسيم في ٢٩ من نوفمبر ١٩٤٧ والتي سبقت إعلان قيام دولتهم في منتصف ليلة الرابع عشر وإطلال فجر الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ والتي تمثلت في احتلال عصابة الهاغانا الإرهابية لمدينتي يافا وعكا منتهكين بذلك قرار التقسيم الذي وضع المدينتين ضمن حدود الدولة العربية، والتي جسدتها مذبحة دير ياسين التي راح ضحية لها في التاسع من أبريل ١٩٤٨ مائتان وأربعة وخمسون رجلاً عُزَّلًا، وأطفالاً عُزلًا، ونساء ثيبات وأبكاراً على أيدي عصابتي أرغون وشتيرين الإرهابيتين.

ويتساءلون أيضاً. . . ماذا فعل الاتحاد السوفيتي لتأكيد تطبيق قرار التقسيم وتنفيذه بحذافيره وهو الذي ينص على قيام دولة عربية بجانب دولة اليهود. . . وكيف ارتضى لنفسه أن يتعايش وهو أحد الدولتين العظميين مع حقيقة أن العرب قد أخرجوا من ديارهم عنوة وقسراً، ليفترشوا أرض المخيمات التي كانت لهم ملاذاً ونزلاً، حيث لم يجدوا مرفقاً بديلاً ولا ستراً. . وكيف يسمح مع كل ذلك بهجرة اليهود السوفيت المتواصلة لإسرائيل لتتفاقم

مأساة العرب وتزداد حياتهم نكداً وعسراً.

وهل يكفي أن يقول اليوم أنه لا يعترف بضم الأراضي التي اغتصبتها الدولة اليهودية. وأنه لا يلتزم إلا بالحدود القديمة التي تشير إليها الخرائط المعلقة بجدران الكرملين والجاثمة على صدور حيطان مكاتب وزارة خارجيته والتي وضعت على أساس قرار التقسيم الصادر في عام ١٩٤٧، والتي لا يأبه بها أحد ولم تعد تساوي شيئاً.

ويزداد العجب وتتوالى التساؤلات التي تفضح أفك السوفيت وممارساتهم التي ليس آخرها موقفهم من منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي لعرب فلسطين. فبينما يعترفون بدولة إسرائيل ظلوا يرفضون، ولا زالوا، إعطاء الصفة الدبلوماسية الكاملة لبعثة المنظمة المقيمة بعاصمة بلادهم. وقد اضطروا أخيراً وبعد مضي ما يقارب الخمسة وثلاثين عاماً من اعترافهم بإسرائيل إلى رفع مستوى مكتب المنظمة ولكن لدرجة تتدانى كثيراً عن وضع السفارات وامتيازاتها.

ولا مساغة بالطبع للإدعاء بأنه ليس للعرب دولة في فلسطين تبرر اعتماد ممثليها، حيث إن التقسيم الذي أيده الاتحاد السوفيتي وباركه ينص على قيام تلك الدولة ولكن إسرائيل تقف حجر عثرة أمام تأسيسها. وقد رفض السوفيت دون استحياء ورغم الضغوط المتواصلة والمحاولات المتكررة الإذن لممثل المنظمة بتقديم أوراق اعتماده مباشرة إلى وزارة خارجيتهم وأصروا على أن يكون ذلك عن طريق لجنة التضامن الافريقية الآسيوية السوفيتية.. كل ذلك كي لا يغضبوا إسرائيل ومن ورائها

أمريكا، وحتى لا تستغل هذه وربيبتها الأمر وتتخذانه ذريعة لرفض الإشتراك مع الاتحاد السوفيتي في أي مؤتمر دولي أو مائدة مستديرة حول فلسطين. وكان السوفيت الذين فقدوا الكثير من نفوذهم السياسي في المنطقة العربية يتوقون بل ويلهثون وراء المساهمة في أي مؤتمر لحل القضية المستعصية حتى لا تنفرد أمريكا بحل النزاع وتستأثر بفضل تسويته وحتى يظهروا بمظهر الند للأمريكان. . . هذا علماً بأنهم سبق لهم أن أوعزوا لبعض دول أوروبا الشرقية التي تأتمر بأوامرهم أن يتم اعتماد ممثلي المنظمة بطريق رسمي وعن طريق وزراء خارجية تلك الدول.

وتأتي أحداث لبنان الأخيرة لتزيل ما تبقى من ماء الحياء عن وجه السوفيت إن كان قد بقي منه شيئاً بعد مآسيهم في أفغانستان وبولندا. فقد اكتفوا بترديد التهديدات الجوفاء، التي لم تكن لتوقف مجازر الفناء، أو تضع حداً لشلالات الدماء، والتي كانت كصواريخهم بأرض البقاع الفيحاء لا تحدث أثراً ولا تخيف أحداً. وإسرائيل تمضي في طريقها الذي اختطته لا يهمها مضغ الماء ولا طحن الهواء.

وإن كانت روسيا قد استطاعت أن تتنصل من مغبة أفعالها وتلوذ من أخطائها وتحتمي بأخطاء غيرها وأن تنحي باللائمة على المعسكر المناوىء لها حتى بالنسبة للآثام التي هي شريكة فيها بل وتستغلها لمنفعتها كشأنها مع قضية فلسطين، فإن استغلالها للمشاكل التي يقع عبؤها على كاهل أعدائها من الدول الكبرى يصبح أمراً منطقياً ومن باب أولى. فقد استغلت أخطاء السياسة الأمريكية التي كان قد سنها وسار على دربها مهندسها جون فوستر

دالاس ومن والاه في الخمسينات والستينات فعمدت إلى التقارب مع بعض البلاد العربية وخاصة مصر. ومدت جسور الود مع عبد الناصر بعد أن تبينت مدى قوة نفوذه الطاغي وسط الأمة العربية والذي لا يجارى، وبعد أن كانت قد ناصبته العداء واتهمته بالعمالة لأمريكا.

وقد أسهمت تلك التساؤلات والوقائع والمفارقات في تعرية السوفيت وفي كشف حقيقة أمرهم ومن ثم في إضعاف نفوذنا في مصر وبقية بلاد العرب كشيوعيين موالين لموسكو.

ولم نكن نأبه وقتها لما يقال عنا من أننا رجع صدى، وأننا انعكاس لصوت سيد الكرملين الذي كذب وعصى. فقد غلبت علينا شقوتنا واستبد بنا الهوى. فاستحببنا العمى على الهدى. وظللنا نمشي مكبين على وجوهنا وموليها شطر موسكو التي تملّك حبها افئدتنا حتى باتت ألسنتنا لا تلهج بالثناء إلا عليها ولا تسبح إلا بحمدها، ولا ترنو عيوننا إلا لها، وحتى صرنا كالببغاوات عقولنا في آذاننا نردد دون تروٍ ودون تبصر ما يقال لنا ويروى عن إنجازات الرفاق وبطولاتهم وتضحياتهم التي تثبت الولاء لوطن الشيوعية ومهدها الذي أعطى كل شيء فقدمت الأرواح والمهج قرباناً له وفداء.

وهكذا كان حالنا مع الاتحاد السوفيتي الذي كان ظننا أنه لا ينطق عن الهوى ولا يحيد عن الحق مهما طغى الباطل وغوى... فقد كان بالنسبة لنا موطن الروح الذي يسمو ويتعالى على موطن الآباء والأجداد.

ومـواطـن الأرواح يـعـظم شـأنها
في الـنفس فـوق مـواطـن الأجسـاد

ورحم الله إيليا أبو ماضي وغفر له فقد كان ذلك الغثاء من شعره.

- ٢٢ -

ولم يقتصر أثر قضية فلسطين والحرب التي نشبت بسببها على مجرد تقليم أظافر الشيوعيين المصريين السياسية واحتواء قادتهم داخل السجون وبين جدران المعتقلات، وعلى نفي نفر من أئمتهم وفقهائهم اليهود المتمصرين خارج مصر وإنما تعدى الأمر ذلك وتجاوزه كثيراً فقد أسهمت نتيجة الحرب وهزيمة العرب، بطريق غير مباشر، في دفن الحركة الشيوعية المصرية ولما تزل كموؤدة الجاهلية في المهد صبية، وفي وقف المد الشيوعي وصد زحفه وفي إضعافه بوجه عام في كافة أنحاء الوطن العربي، مع تفاوت طبيعي في الدرجة والمقدار ومع اختلاف منطقي في المدى الزمني لفعل ذلك الأثر بالنسبة لأقطاره المتعددة... هذا رغم ما كان يبدو في السطح من تصاعد وقتي لذلك النفوذ في بعض أرجائه.

ولعل من أهم نتائج تلك الهزيمة وأخطرها، بجانب ترسيخ دعائم الدولة الصهيونية الوليدة، تزايد نفوذ بعض القوى السياسية العربية التي عرفت بعدائها المطلق للشيوعية والتي كانت تتحين الفرص للإنقضاض على السلطة والاستيلاء عليها، وظهور قوى جديدة دخلت الساحة السياسية من أخطر أبوابها عن طريق القوة المسلحة.

فقد كشفت تلك الحرب إفلاس أنظمة الحكم العربية وفضحت خيانة بعض الحكام العرب الذي ثبت أنهم كانوا على وفاق مع الزعماء الصهاينة بل منهم من تواطأ واجتمع بهم سراً مما أدى إلى نقمة الشعوب العربية ومن ثم إلى تصاعد نفوذ القوى السياسية المعارضة كحزب البعث العربي في كل من سوريا والعراق وجماعة الإخوان المسلمين التي بدأت تتنصل من صلاتها الحميمة السابقة مع السراي وتتحرر من علاقاتها الوطيدة مع أحزاب الأقلية التي ظلت تتداول حكم مصر منذ بداية نهاية الحرب العالمية الثانية.

كما كان لقصص الفساد التي نشرت أخبارها الصحف وتناقلت تفاصيلها المجالس ولاكت أحداثها الأفواه والألسن حول صفقات الأسلحة الفاسدة التي زودت بها الجيوش العربية أثرها في انتشار السخط وازدياد التذمر بين صفوف القوات المسلحة وفي اتساع نطاق وعضوية التنظيمات السرية داخلها خاصة بين الضباط من الرتب الصغيرة.

وفي مصر لم تتأثر الحركة الشيوعية سلباً من جراء تعاظم نفوذ البعث العربي الذي لم يكن له أصلاً موطىء قدم بها ولكن استطاع ذلك الحزب رغم صغر سنه النسبي أن يسدد الضربات المتلاحقة للحركة الشيوعية في سوريا والعراق حتى استطاع مع الزمن ترويضها ثم التفضل بالسماح لها بالسير في ركابه ضمن قوى أخرى ارتضت مذعنة عضوية جبهات وصفها بالتقدمية، وضع هو أساسها وصاغ برامجها وحدد شروط الإنتماء لها بما يؤكد سيطرته التامة على السلطة ويفرض وصايته على كل أوجه النشاط السياسي الفعال ويدعم انفراده وهيمنته على أجهزة الدعاية

والإثارة والتثقيف بين صفوف ووحدات القوات المسلحة.

ولكن إن كانت ظروف مصر التاريخية والسياسية والإجتماعية قد حالت دون خلق قواعد فكرية وسياسية لحزب البعث فيها إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لحركة الإخوان المسلمين التي يبدو أنها ارتضت التعاون، في البداية، مع السراي وأحزابها لتقي نفسها من بطش السلطة حتى يستغلظ شطؤها ويستوي على سوقه وحتى تكون نداً ينازل حزب الوفد وينتزع منه الشارع السياسي الذي كان ذلك الحزب قد بسط نفوذه عليه منذ ثورة عام ١٩١٩ وحتى تكون قادرة على مناهضة الشيوعية والقضاء عليها بعد أن بدأ نجم هذه الأخيرة يسطع في سماء السياسة المصرية مع إرهاصات هزيمة المحور الفاشي وإثر انتصارات السوفيت العسكرية ونجاح أساليب دعايتهم المتعددة الماكرة.

وقد هيأت حرب فلسطين الفرصة التي كان يتحينها الإخوان المسلمون فقد بادروا بفتح مراكز التدريب العسكري وسارعوا بإرسال الفدائيين والمقاتلين الأشداء من متطوعيهم إلى ساحات القتال ليحاربوا جنباً إلى جنب مع الجيش المصري مما يسر لهم الإتصال بالضباط المتذمرين ومهد أمامهم تكوين الخلايا السرية بين صفوفهم، وقد كان لبلائهم الحسن في الحرب أثره المقدر في ازدياد نفوذهم، حيث كان شعارهم إحدى الحسنيين إما النصر وإما الإستشهاد.

ولم يعد كثير من الناس ينظر إليهم كتبع للقصر وأحزابه أو كمجرد ترياق مضاد للشيوعية بثه الإستعمار كما كان ظننا. وقد علا شأنهم وتعاظم نتيجة اغتيالهم لرئيس الحكومة محمود فهمي

النقراش باشا والحكمدار أمن القاهرة اللواء سليم زكي باشا وبعد اغتيال مرشدهم الشيخ حسن البنا على أيدي رجال البوليس السياسي. وقد أسهمت الصحف المصرية، دون قصد، في الإشادة بهم إذ كانت تشير إلى صلابتهم في مقاومة قوات الأمن وإلى مقدرتهم الفائقة في إفساد خطط أجهزة القمع الحكومي وإلى تحملهم للتعذيب الوحشي وتماسكهم أمام أساليبه البشعة المتعددة التي كانوا يتعرضون لها عند القبض عليهم وإلى ثباتهم إبان التحقيق وعند المحاكمة وعند تنفيذ الأحكام الجائرة.

وكنا نحن نرقب كل ذلك مشدوهين إذ كنا نعتقد أنهم لن يقووا على مناهضة السلطة ومنازلتها بكل ذلك العنف وبكل ذلك الإصرار وهم هم الذين تربوا في أحضانها. وكنا قد ارتضينا سبيل المناقشة والجدل العقيم دفاعاً عن قضية خاسرة. وكان مثلنا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء فقد ظللنا نردد ما يقوله كبراؤنا الذين أضلونا السبيلا وننادي معهم بضرورة الإعتراف بإسرائيل والتعايش معها، وبتدعيم أواصر الصداقة والوحدة بين البروليتاريا في الدولتين اليهودية والعربية التي أوصى بقيامهما قرار التقسيم، وتصعيد حدة الصراع الطبقي وإزكاء ناره في كل منهما بالرغم من أنه لم يكن للدولة الثانية وجود مما أدى إلى عزلتنا وانحسار نفوذنا خاصة بين جماهير الطلاب وبعض فئات المثقفين والمهنيين.

ولقد تأثر كثير من الطلبة السودانيين الذين قدموا مصر في تلك الأيام بأفكار الإخوان ولو أننا كنا قد قدمناها ضمن القافلة في ذلك الحين لما كان لنا مكان آخر غير صفوفهم حيث كانت أعمال العنف والإستشهاد بل الإرهاب تستهوي عقولنا وتسلب لبنا،

ولكن العهد كان قد طال بنا فقد مشينا خطوات عديدة في الطريق الآخر وقطعنا منه شوطاً بعيداً فأصبحنا لا نرى للماركسية في مجال الفكر بديلاً ولا لروسيا في الفضل مثيلاً.

وليت الأمر وقف بالنسبة لنا ولبقية التنظيمات الشيوعية في مصر على مجرد العزلة وانحسار النفوذ فقد جاءت قاصمة الظهر لأملنا في عودة الروح وفي انتشار الشيوعية متمثلة في استيلاء تنظيم الضباط الأحرار على السلطة حيث بادر بعض أعضائه بإظهار عدائهم ليس لفكرة وجود تنظيم شيوعي مستقل فحسب بل للماركسية كمذهب وكمدرسة فكر، وخاصة بعد أن واجهتهم سلسلة من المشاكل والمتاعب التي أسندوا تفاقمها إلى فعل الشيوعيين ومنها إضراب المحلة الكبرى الشهير مما حدا بهم إلى إعدام العاملين خميس والبقري تسبيباً على الزعم بأنهما المحرضان الرئيسيان على ذلك الإضراب وتأسيساً على مظنة عضويتهما بإحدى التنظيمات الشيوعية. وأردفوا ذلك واتبعوه بحملات واسعة ومتتالية على الشيوعيين الذين فتحت لهم أبواب السجون واستقبلت أفواجهم معتقلات الطور والواحات.

ولم يسلم بعض الشيوعيين السودانيين من أذى السلطة الجديدة وبطشها فقد حكم على اثنين منهم بالسجن لسنوات تربو عن الخمس وكان أحدهما على صلة بالضباط الأحرار قبل أن يشتد ساعدهم ويقوى عودهم حيث كان يقوم بطبع وإعداد منشورات تنظيمهم السري بناء على توجيهات «حدتو» التي كان يتعاطف معها نفر من أولئك الضباط. . . فكان جزاؤه جزاء سنمار.

- ٢٣ -

ولم تثننا ظروف الشدة التي عشناها في مصر طيلة سنوات القحط السياسي عن مواصلة السير ضمن قافلة الرفاق. وكنا نتفادى أعين رجال الأمن الذين تكاثروا وانتشروا كبغاث الطير، ونتحايل على البقاء خارجٍ جدران السجون والمعتقلات بالابتعاد ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً عن الأماكن التي تراقبها أجهزة الأمن وترصد حركتها مثل الحرم الجامعي ومدرجات الدراسة وبتقليل نشاطنا أثناء النهار حتى صرنا كالخفافيش لا تدب الحياة فينا إلا ليلاً.

وكنا نتنقل من دار إلى أخرى بين أحياء القاهرة وحاراتها وأزقتها الكثيرة ولا نبقى بأي منها إلا أسابيع قليلة.

وبالطبع لم نفلح كلنا في إجادة التضليل ومواصلة الإختفاء فقد امتدت أيادي رجال الأمن إلى بعضنا حيث الاعتقال أو السجن ثم الترحيل إلى السودان. ولكن كل ذلك لم يفت من عضدنا ولم يقعد بنا عن مواصلة المسيرة فقد كنا على قناعة بأننا على حق، وأننا واصلون ولا ريب إلى نهاية الدرب. إذ لا بد من صنعاء وإن طال السفر.

وكان يحلو لنا ترديد قول ابن الوردي كلما انتابنا اليأس والضجر، أو سقط لنا رفيق أو وكر:

لا تقل قد ذهبت أيامه
كل من سار على الدرب وصل

واستعادة قول المتنبي كلما حزب الأمر وأحدق بنا الخطر:

تريدين لقيان المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

فكأنما نحن أولئك الذين عناهم شوقي بقوله:

مطمئنين نفوساً كلما عبثت
كارثة زادوا ابتساما

وقد ظللنا على ذلك الحال طيلة السنين العجاف التي انتهت باكتساح حزب الوفد للإنتخابات في أكتوبر من عام ١٩٥٠ حيث نعمنا بقدر من الحريات محدود ولكنه محمود.

ولعل أفدح مأساة ألمت بنا في ذلك الوقت كانت وفاة طالب الطب صلاح بشري الذي أصيب بداء الرئة ومات غريباً بالسجن والذي حزنا لفقده حزناً شديداً رغم أنه كان قد انسلخ من جمعنا وانضم إلى تنظيم مناوىء لنا أطلقوا عليه اسم المنظمة الشيوعية المصرية «م.ش.م.» ضمه ونفراً من رفاقه على رأسهم حسب الرسول أحمد عرابي الذي تقلد منصب وكيل وزارة المالية في سنين لاحقة وعبد الوهاب محمد عبد الوهاب «بوب» المحامي، والمهندس حامد عبد الحليم والشاعر شاكر مرسال والدكتور أحمد خوجلي المحاضر السابق بجامعة الخرطوم. وقد قررنا إيفاد أحمد

لرفاعي زميلنا باللجنة المركزية لمرافقة الجثمان الذي ووري الثرى بعطبرة حيث كان الفقيد أحد أبناء أسرها العمالية. . . ولعل لكثيرين من أبناء ذلك البلد الطيب يذكرون خطاب أحمد لرفاعي البليغ الذي أبّن به الفقيد نيابة عن الشيوعيين في مصر.

ولم تكن أيامنا كلها، بالطبع، عناء وشدة ونكداً. فقد كنا نسترق لحظات سعيدة نلهو فيها ونستجم، ونغيب أثناءها عن الغم والهم. وكان واسطة عقد المسرة والبهجة بين الصحاب الرفاق صديق حباه الله بصوت لا يعادله في الحسن إلا صوت الكاشف الذي كان يحلو له تقليده. وكانت بعض الفتيات السودانيات اللائي استقر بهن المقام بالقاهرة يقمن حفلات للتعارف يشدو فيها صديقنا الذي يحتل اليوم موقعاً سياسياً وتنفيذياً مرموقاً في الدولة. ولعل بعضهن كن يطمعن في الزواج من نفر منا مثل صاحبنا هذا الذي وهبه الله بجانب الصوت الرخيم بسطة جسم وسماحة خلق وخفة دم. وكان هو يدرك تلك الخصائص التي تميزه عنا ويستثمرها أيما استثمار فقد كان يستغل حرصنا على حضور تلك الحفلات ويفرض علينا الأتاوات التي منها دفع قيمة المواصلات وتكاليف نظافة وكي بدلته السوداء اليتيمة التي هي من مستلزمات السهرات ومن ضرورات تلك المناسبات.

ولكن دواعي الفرحة الكبرى بالنسبة لنا ومصدر مسرتنا الغامرة كانت أخبار انتصارات الشيوعيين الصينيين التي ظلت تتوالى منذ سنة ١٩٤٧ وتصاعدت في أواخر العام الذي تلاها. وكنا نتسابق لاقتناء صحيفتي الأهرام والمصري اللتين كانتا تلاحقان تلك الأخبار وتواظبان على نشرها في صفحاتها الأولى. وكان أشدنا

حماساً وأكثرنا تتبعاً لتلك الأخبار صديقنا ذاك الذي كان يطربنا ويشجينا. وكان قد ضاق ذرعاً بأسلوب الدراسة بالجامعة المصرية التي كانت تركز على حشو عقول الطلاب وشحنها بالمواد الدراسية أكثر من اهتمامها بتنمية ملكات العقل النقدية، وكانت ميوله الأدبية تطغى في الأصل على ولعه بدراسة القانون. وكان استئناسه بكتب الأدب أكثر من إلفته مع مقررات كلية الحقوق، ولذلك كان قليل المواظبة على حضور المحاضرات ولا يكاد يصحو من النوم ضحى، إلا ليعود إليه مرة أخرى، بعد أن يسأل على أخبار الحرب في الصين ويستوثق من انتصارات الشياطين الحمر. وكان هذا هو الوصف الذي أطلقه الكاتب الأمريكي إدجار سنو على الشيوعيين الصينيين في كتابه «النجمة الحمراء فوق الصين» وقد كانوا كذلك بالفعل.

وكان زميلنا الجنيد علي عمر قد أطلق على صاحبنا اسم جنرال «كل نام سنغ» دلالة على هواياته واهتماماته في تلك الأيام والتي كانت هي الأكل ثم النوم ثم الغناء، واختار له لقب الجنرال كناية من بسطة جسمه وحرصه على تتبع الوقائع والأحداث العسكرية في الصين. والإسم في مجموعه وبمفرداته وبمقاطعه الصغيرة يشبه أسماء الصينيين.

وكنت قد أعجبت بكتاب ادجار سنو ولذلك قررت ترجمته إلى العربية إسهاماً مني في التعريف بالحزب الشيوعي الصيني وإشادة بمنجزاته التي كانت أقرب للمعجزات منها لممارسات البشر ولفضح المآسي التي كان يعيشها الشعب الصيني العريق تحت ظل حكم الكومنتانج وزعيمه الطاغية شان كاي شيك.

وكدت أكمل الترجمة، وبدأت بالفعل في البحث عن المطبعة التي لا تكلف شططاً ولا تشترط الدفع مقدماً، ولكن الفرحة لم تتم إذ امتدت أيدي رجال ألبوليس السياسي الذين داهموا نزلنا في أصيل يوم من أيام ابريل عام ١٩٥١ وصادروا الترجمة وأصلها ضمن نشرات ووثائق ومطبوعات محظورة كنا قد أودعنا بعضها جوف الثرى، وبعضها بطون اطارات سيارات قديمة مهملة، من مخلفات ممتلكات صاحب العمارة التي كنا نسكن في جزء متواضع من حرمها.

ولكن ثمة حدثين سياسيين وقعا قبل امتداد أيدي رجال الأمن لنا ولوثائقنا، أزاحا عنا الانتعاش الروحي الذي كنا عليه وافسدا السعادة التي غمرتنا إثر انتصارات الرفاق الصينيين، كان أولاهما فجيعتنا في الرفيق تيتو الذي ألصقت به تهمتا الانتهازية والردة وهما قمة النقائص السياسية في المعجم الشيوعي. وما تبع ذلك وتلاه من طرد يوغسلافيا من حظيرةالكمنفورم وثانيهما وفاة الرفيق ازدانوف أحد كبار منظري الحزب الشيوعي السوفيتي وفلاسفته والذي حزنا عليه حزناً لا يعادله شدة وأسى إلا موت ستالين بعده بخمس سنوات.

- ٢٤ -

لا زلت أذكر ذلك اليوم من شهر يونيو من عام ١٩٤٨ الذي طالعتنا فيه الصحف المصرية بخبر طرد يوغسلافيا من أسرة الدول الشيوعية ولا زلت أتمثل حالة الهلع والاشفاق والجزع التي أصابتنا عند قراءة التهم التي ألصقت بالرفيق تيتو والذي كان قبلها ملأ أسماعنا وأبصارنا فقد كنا نحسب أنه ثالث لاثنين في الحركة الشيوعية العالمية هما الرفيق ستالين والرئيس ماوتسي تونج.

ولعله مما ضاعف من مأساتنا أنه لم تكن ثمة مقدمات لذلك الموقف الذي اتخذه الكمنفورم ضد يوغسلافيا وطليعتها عصبة الشيوعيين اليوغسلاف وزعيمها جوزيف بروز تيتو مما أدى إلى توهم بعضنا بأن الأمر ربما يكون خدعة اقتضتها الضرورات الثورية العالمية، وحيلة لجأت إليها الأحزاب الشيوعية بقيادة الحزب الشيوعي السوفيتي لتفسح المجال أمام يوغسلافيا كي تلعب دوراً ثورياً أكبر بين دول العالم الثالث التي بدأت تبرز كقوة يمكن جذبها إلى معسكر الاشتراكية والسلام خاصة وأن البيان الذي أصدره الكمنفورم لم يكن في مستوى الحدث السياسي إذ لم يقدم أسباباً مقنعة تبرر الفعلة التي فعل، وعلماً بأن يوغسلافيا كانت من الدول المؤسسة لذلك التنظيم الشيوعي الدولي وأن

عاصمتها بلغراد كانت مقراً لرئاسته وظلت كذلك إلى حين طردها من حظيرته حيث تم نقل رفاته إلى بوخارست عاصمة رومانيا.

ولقد حاول بعضنا تخفيف أثر وقع المأساة زاعماً أن الكمنفورم لم يكن إلا مجرد مكتب للاستعلام تتبادل عن طريقه الأحزاب الشيوعية الخبرة والمعلومات وليس سوى رمز للتعاون فيما بينها حيث لم تكن قراراته ملزمة لأعضائه وأنه بناء على ذلك لم يكن في مرتبة ومقام الكومنترن (الدولية الثالثة) الذي أنشىء بموسكو في عام **١٩١٩** لنشر الفكر الماركسي وللدعوة لتحقيق النظام الشيوعي في العالم.

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك، وإن كانت قد غابت عنا يومئذ، إذ أنه بالرغم من أن قرارات الكمنفورم لم تكن ملزمة لأعضائه بمقتضى أوامر تأسيسه إلا أنه كان في واقع الأمر أعلى مرتبة وأخطر شأناً من سابقه من حيث عدد عضويته ونوعيتها ومن حيث أهدافه. فقد آلت إليه بجانب واجباته المعلنة مهام الكومنترن الذي لم يكن حله في عام **١٩٤٣** إلا ذراً للرماد في عيون الأمريكان والانجليز الذين كانوا يخوضون غمار الحرب بجانب الروس.

وقد أوردت رئاسته سببين لحله أولاهما إزالة مخاوف الدول الرأسمالية الحليفة التي كانت ترى في بقائه مظهراً من مظاهر التناقض داخل المعسكر المناهض للفاشية والذي يجمعها والاتحاد السوفيتي. وثانيهما أن الأحزاب الشيوعية الأوروبية قد نمت وترعرعت وأصبحت في مرتبة لا تحتاج معها إلى التوجيه من سلطة مركزية شيوعية عالمية... وهو بالطبع مجرد ادعاء ومغالطة إذ لم

تكن كل الأحزاب التي انضمت إليه بعد تأسيسه قد شبت عن الطوق، وقد كانت ولعل أغلبها لا زال أقزاماً كأحزاب الدانمارك وفنلندا وإسبانيا وكأحزاب أوروبا الشرقية التي انتسبت إليه قبل أن يفرضها الجيش الأحمر على شعوبها المقهورة والمغلوبة على أمرها.

وبمرور الأيام تبين لنا أن الانفصام حقيقي وأنه ليس ثمة حيلة أو خدعة أو تحرك تكتيكي قصير المدى، فقد واصل السوفيت ومن ورائهم كلاب صيدهم الحملة على تيتو واتهموه بخيانة قضية الطبقة العاملة والارتماء في أحضان أمريكا ووصفوه بأنه عميل خفي للاستعمار الحديث ووكيل مستتر للرأسمالية يريد أن يعود بيوغسلافيا القهقرى إلى ما كانت عليه قبل التحرير. ولكن الحملات المسعورة والجائرة لم ترهب تيتو وعصبته فقد ظلوا يؤكدون أن السبب الرئيسي للنزاع هو رفضهم الانصياع لأوامر ستالين وعدم رضوخهم لرغبة موسكو في أن تكون هي المركز الوحيد للإلهام والارشاد والتوجيه للحركة الشيوعية العالمية.

وقد حاولت أجهزة الدعاية السوفيتية ومن ورائها الأحزاب الشيوعية التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفيتي وتأتمر بأوامره أن تخلع على النزاع حلة تجعله يبدو وكأنما هو صراع حول تنقية الماركسية وتزكيتها وتطهيرها من الادران التي ألحقها بها تيتو الانتهازي الأبق المارق المرتد. واتهمت سياسته الزراعية بأنها تهدف إلى إعادة المجتمع الرأسمالي إلى الريف اليوغسلافي وذلك لرفضه تصفية طبقة «الكولاك» أو أغنياء الريف وأنه يرفض الاستفادة من تجربة الاتحاد السوفيتي في هذا المضمار... ولكن بالرغم من أن تيتو وعصبة الشيوعيين اليوغسلاف كانوا يدركون

أن ذلك مجرد قناع لتغطية حقيقة الصراع الدائر بين الدولتين، إلا أنهم تصدوا لتلك الاتهامات وقدموا المسوغات النظرية لسياستهم الزراعية، فقد أشاروا إلى أن تجربة الاتحاد السوفيتي تجربة فاشلة فقد لجأ ستالين في أواخر العشرينات إلى تصفية الملاك الزراعيين تصفية جسدية فأعدم عشرات الآلاف منهم بعد أن رفضوا الاشتراك في المزارع الجماعية والمؤممة وبعد أن فضلوا أن تنفق مواشيهم وأنعامهم على أن يسلموها لتلك المزارع والتجمعات وكانت النتيجة أزمة الزراعة السوفيتية التي لا تزال روسيا تعاني من آثارها إلى الآن وبعد مضي ما يقارب نصف القرن من تطبيقها والتي من مظاهرها لجوء الاتحاد السوفيتي وهو الذي يمثل وحده سدس اليابسة لأن يستورد القمح من أمريكا وحليفاتها كندا والأرجنتين واستراليا. كما أشارت عصبة الشيوعيين اليوغسلاف إلى أن ثمة اختلافات جوهرية تميز الكولاك الروسي عن صنوه اليوغسلافي، فالأول كان أكثر ثراء حيث انتماؤه القديم لأرض روسيا الطيبة الواسعة وحيث ارتباطه الوثيق وولائه العميق لنظام الحكم في روسيا القيصرية وحنينه الدفين إلى عودة ذلك النظام. أما نده اليوغسلافي فلم يكن في مثل ثراء الأول حيث ظل لما يقارب الخمسة قرون يرزح تحت نير الحكم التركي، كما أنه يعد، وبحق، من فئات التحالف الثورية التي تشكل أساس الحكم في دولة يوغسلافيا الفدرالية، فقد أسهم بدور فعال في تحرير بلاده من الحكم الفاشي والنازي. ولكن لا هذا التفسير ولا تاريخ تيتو النضالي كانا ليشفعا له عند ستالين الذي نصب نفسه راعياً ووصياً على الحركات الشيوعية وقيماً على الفكر التقدمي فكأنما هو بابا القرون الوسطى يحرر صكوك الغفران ويصدر قرارات الفصل

من الكنيسة الكاثوليكية التي تحرم الإنسان من نعم الدنيا والآخرة على السواء... هذا وكل الذنب الذي ارتكبه جوزيف بروز تيتو أنه رفض أن يكون صدى لصوت فرعون الكرملين. ولعل من الأسباب الخفية التي زادت من حنق ستالين عليه وضاعفت من غيظه وجعلته يخرج عن وقاره ويشتط في عدائه سابق دالة له واحسان عليه فقد كان ولي نعمته، إذ كان هو الذي نصب تيتو وبوأه زعامة الحزب اليوغسلافي بعد أن أعدم حاكم روسيا قائد الحزب الشيوعي اليوغسلافي ضمن من أعدم في محاكماته وتصفياته الشهيرة في عام **١٩٣٧** نتيجة هوسه وهواجسه.

وكما أن تاريخ تيتو النضالي وتفسيراته الثورية لموقفه والحجج السليمة المقنعة التي أوردها لم تكن لتسعفه من غضب ستالين فإنها لم تكن لتشفع له عندنا نحن أيضاً، فقد كنا كأولئك الذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وصمت آذانهم وعميت أبصارهم... وكنا نعجب بل ونغضب لتطاول تيتو وتصديه للرد على ستالين الذي كان ظننا أنه لا يقول إلا صدقاً ولا ينطق إلا حقاً ولا يحكم إلا عدلاً... وقد غاب عنا قول الشاعر الذي كان حاله حال تيتو المفترى عليه:

سقوني وقالوا لا تغني
ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنت

ولم نكن ندرك وقتها، لحماسنا المفرط ولسذاجتنا السياسية أن الخلافات النظرية والصراعات الايديولوجية داخل الأحزاب الشيوعية وبين الدول التي ابتليت بحكمها إن هي في كثير من الأحوال إلا غبار يحجب الرؤية الصادقة للطموحات الشخصية

والنزعات التحكمية، ودخان يستر الرغبة في السيطرة والهيمنة وستار تختفي وراءه الاتجاهات السياسية التوسعية.

ولكن ومهما كان من أمر المعاناة التي عاناها تيتو، وبالرغم من الأذى الذي لحقه فإن ذلك قد عاد عليه وعلى يوغسلافيا بالخير العميم فقد صار الرجل وظل عملاقاً داخل بلده وفي الساحة الدولية بينما ظل رفاقه من قادة الأحزاب الشيوعية الذين زاملوه في الكومنترن ومن بعده الكمنفورم أقزاماً لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً.

ولم تقف آثار الصراع بين ستالين وتيتو على يوغسلافيا وحدها بل امتدت فوائده إلى العالم الثالث حيث كانت ثمرته بروز قوة ثالثة هي دول عدم الانحياز التي كان تيتو أحد أضلاع بنيتها الثلاث بجانب جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو.

ولم تقتصر مأساتنا في عام ١٩٤٨ على موت تيتو المعنوي فقد رزئنا بوفاة أندريه ازدانوف منظر الحزب الشيوعي السوفيتي وفيلسوفه الذي كان يعده ستالين لخلافته. وقد ظللنا نوالي الاستماع لموسكو التي واصلت اذاعة نعيه ثلاث ليال متتالية إلى حين اتمام دفنه في الثاني من سبتمبر من تلك السنة وظلت تعدد انجازاته في مجال الفكر وتعرِّف بجهده إبان الحرب وتردد مأثوراته التي انصبت كلها على الإشادة بستالين والتغني بأمجاده كثوري لا يدانيه فرد، وكقائد واحد أحد، وكزعيم لا تقف أفضاله عند حد أمته وحدها وإنما تمتد إلى شعوب العالم الكادحة بأسرها.

ولعل السر في احتضان ستالين له أنه كان يشبع غروره بما لا يجاريه في ذلك أحد إذ لم يكن يكتفي كغيره بالإشادة بعظمة فكر

ستالين الذي فند نظريات تروتسكي وهزم آراء بخارين وأبرز إفلاس زينيفييف الفكري وعَرَّى اتجاهات كامينيف الانتهازية وإنما يتجاوز الأمر إلى التلميح بأنه لا يقف نداً لفكر لينين وحسب بل ربما بزه وسما عليه.

وكانت هذه عين عقدة ستالين التي دفعته إلى التوجيه باعادة كتابة تاريخ الحزب الشيوعي البولشفي بما يرضي غروره ويشبع نهمه في تأليه ذاته، وفي اظهاره بمظهر الفتى الذي فاق أستاذه، أو الحوار الذي غلب شيخه كما يقول أهلنا الطيبون. وكان عقل أزدانوف أداته لذلك، ولسانه داعيته، وقلمه مطيته.

ويتحمل ازدانوف بأكثر من غيره من رفاق ستالين وحواريه مسؤولية تصعيد أزمة الثقة بين الحزب الشيوعي السوفيتي وعصبة الشيوعيين اليوغسلاف فقد أسبغ على الحب المفقود من جانب شيخه لتيتو صفة الموضوعية وأضفى عليه أبعاداً نظرية حتى بدا وكأنه خلاف حول المبادىء وحول النقاء والطهر الثوري.

وله يرجع أمر تضخيم المحاولة النظرية الزائفة التي تقسم العالم السياسي إلى معسكرين، معسكر الاشتراكية والسلام بزعامة الاتحاد السوفيتي (العظيم!؟) ومعسكر الإمبريالية والاستعمار الحديث بقيادة أمريكا... تلك النظرية الفطيرة الفقيرة التي فتنا بها من قبل وظللنا نرددها كالببغاوات دهراً، والتي لا زال بعضنا يلوكها ليلاً ونهاراً، ويجعل منها أساساً لنظرته للوضع الدولي ومدخلاً.

ولم تصرفنا واجباتنا الشيوعية اليومية وأعباؤنا السياسية التي زادت وثقلت إبان ظروف الشدة والمحنة في مصر عن متابعة الأحداث التي تلاحقت في بلادنا. وكانت أخبار الوفد المصري ووفدي السودان إلى ليك سكسس حديث الصحف والمجالس في كل من القاهرة والخرطوم طيلة صيف وخريف ١٩٤٧ . وكانت حكومة النقراشي باشا قد تقدمت في الثامن من يوليو من ذلك العام بشكوى إلى السكرتير العام للأمم المتحدة تطلب منه ادراج النزاع القائم بينها وبين المملكة المتحدة في جدول أعمال مجلس الأمن تطبيقاً لنص المادتين الخامسة والثلاثين والسابعة والثلاثين من ميثاق الأمم المتحدة ومطالبة «بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاءً تاماً ناجزاً، وبإنهاء النظام الإداري القائم بالسودان» .

وسافر النقراشي باشا إلى نيويورك على رأس وفد مصري كان من أبرز أعضائه عبد الرزاق السنهوري باشا الفقيه والمشرع القانوني المعروف، ومحمود فوزي مندوب مصر الدائم في هيئة الأمم. وقدم شكواه بخطاب ضاف ألقاه أمام مجلس الأمن في الخامس من أغسطس وأردفه بآخر في الحادي عشر منه وقفي على

أثره بعد يومين بثالث. وكان نصيب السودان من الخطابات الثلاثة نصيب الأسد. وكانت خلاصة رأيه فيما يختص بالسودان أن الحكومة المصرية لا تلتزم بمعاهدة سنة **١٩٣٦** حيث أنها قد استنفدت أغراضها فضلاً عن أنها تتعارض مع أحكام ميثاق هيئة الأمم وأنه لذلك يطالب بإنهاء النظام الإداري القائم بالسودان «ليتمكن مواطنونا السودانيون من مشاركة شعب مصر رفاهيته وأمانيه». وقد قصد النقراشي أن يتحاشى التفصيل حول الخلف البديل لذلك النظام الإداري وقال إن هذا «أمر يقرره شعب وادي النيل وحده».

وقد رد عليه نيابة عن الحكومة البريطانية سير الكسندر كادوجان بما يفيد أن منح السودانيين حق اختيار مصيرهم وتقريره لا يكون إلا بعد أن يصبحوا أهلاً للحكم الذاتي، وأن السودان يسير في الطريق الدستوري الذي يؤهلهم لذلك وأن الحكومة البريطانية لا تنوي وضع العراقيل أمام الخطوات الجادة التي تتخذها إدارة السودان للوصول للغاية المنشودة.

وكانت حكومة السودان قد بعثت من جانبها بوفد لنيويورك برئاسة سير توماس كريد السكرتير القضائي آنذاك وعضوية المستر ميل وكيل حكومة السودان بلندن ليكونا، حسب زعمها، مستشارين لوفدي دولتي الحكم الثنائي أثناء عرض الخلاف القائم بينهما.

كما بعثت كل من الجبهة الاتحادية والاستقلالية بوفد يعرِّف بوجهة نظرها، وترأس وفد الأولى السيد/إسماعيل الأزهري وزامله السادة عمر الخليفة عبد الله أكبر أبناء الخليفة واللواءحامد

صالح باشا الملك وابراهيم المفتي ومبارك زروق المحاميان وتزعم وفد الجبهة الاستقلالية السيد الصديق عبد الرحمن المهدي وصحبه السادة عبد الله بك خليل ومحمد صالح الشنقيطي ومحمد أحمد محجوب الذي استقال لتوه من كرسي القضاء ليتفرغ للعمل السياسي والمحاماة.

وقد أصدرنا نحن في القاهرة بعد فترة من رجوع وفد الاتحاديين لها منشوراً باسم الشيوعيين السودانيين هاجمنا فيه وفدي السودان وقلنا إن الرئيس أزهري وصحبه قد خانوا الرسالة وأصبحوا تبعاً لباشوات مصر وعملاء لحكومتها الرجعية وأن الاستقلاليين قد أسفروا عن حقيقة أمرهم كرسل للاستعمار وكعملاء مخلصين له، وأن الحل الصحيح ليس هو وحدة وادي النيل ولا الاستقلال الذي يريده حزب الأمة وإنما هو جلاء القوات البريطانية الفوري عن مصر والسودان والاعتراف للسودانيين بالحق في تقرير مصيرهم. وهاجمنا أصل فكرة عرض القضية على مجلس الأمن. وقلنا إن حلها لا يكون عن طريق المفاوضات مع الغاصبين، ولا بالحوار والخطابة داخل أروقة المؤسسات التي يسيطر عليها المستعمرون وزعمنا أن أقصى ما يمكن أن يحققه ذلك الأسلوب المشين استقلالاً مزيفاً كذلك الذي نالته الهند قبل بضعة أسابيع والذي كان ثمنه اقتطاع جزء عزيز من جسمها لتقوم عليه دولة الباكستان التي أعلن انفصالها قبل يوم واحد من إعلان استقلال الهند في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٤٧ وخلصنا إلى القول أنه ما من سبيل لتحقيق أماني شعبي وادي النيل إلا عن طريق الكفاح المسلح ودللناعلى ذلك بفشل مجلس الأمن في اتخاذ قرار حاسم حول موضوع النزاع

حيث كان قد أوصى بأن يلجأ الطرفان المتنازعان إلى المفاوضات المباشرة فيما بينهما بغية الوصول إلى تسوية ودية.

وكان ذلك المنشور أول وثيقة نندد فيها بأزهري ونتعرض له بالسوء. وقد كان لتلك البادرة أثرها السلبي على مستقبل علاقة الحركة الشيوعية بأزهري وقومه.

ورغم انكارنا أهلية مجلس الأمن لنظر القضية، واتهامنا له بالعجز عن تحقيق أية مصلحة شرعية في مواجهة الدول الاستعمارية، ورغم ضيقنا بمداولاته وبأسلوب عمله وتجريدنا له من كل مزية، إلا أننا أشدنا بموقف الاتحاد السوفيتي الذي اختار أكبر منبر دولي ليعلن فيه الرأي السديد حول القضية السودانية.

وكان أندريه جروميكو ممثل الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن قد طالب بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان ونادى بأن يكفل للسودانيين الحق في تقرير مصيرهم. وكان الصوت الوحيد الذي أيده في ذلك صوت المندوب البولندي.

ولعلها كانت أول مرة يتخذ فيها السوفيت موقفاً محدداً حول تلك القضية إذ كانت مخاطباته السابقة للوضع في بلادنا بل وفي منطقة الشرق الأوسط لا تخرج عن نطاق الكلام العام والألفاظ المرسلة التي تدور حول أطماع الإمبريالية العالمية وعن مؤامرات الاستعمار الحديث المتواصلة التي تهدف إلى تعزيز موقفه في تلك المنطقة الحيوية والتي تتكيف على ضوء المعطيات الدولية والمتغيرات المتلاحقة.

وكان بعض الطلبة المناوئين لنا في بيت السودان ينددون بمواقف الاتحاد السوفيتي، ويعيبون عليه عجزه عن تقديم أية

مساعدة أو عون لنضال الشعوب العربية، ويصفونه بأنه متفرج يجيد الإثارة والدعاية والتحريض، ومهرج يردد الشعارات الطنانة التي لا تسمن ولا تغني ولا تفيد.

وكنا نتصدى لهم ونسارع للاستعانة بمعاهدة سايكس بيكو المبرمة بين انجلترا وفرنسا في عام ١٩١٦ والتي قررت الدولتان بموجبها إرث المناطق التي كانت تخضع لنفوذ تركيا واقتسامها فيما بينهما بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية المتوقعة والتي تمثلت ارهاصاتها في سقوط مدينة القدس واحتلال البريطانيين لها.

وكان وزيرا خارجية بريطانيا مارك سايكس وزميله الفرنسي جورج بيكو قد أشركا الحكومة الروسية القيصرية في أمر تلك المعاهدة وتبادلا معها المذكرات.

وقد بادرت الحكومة البلشفية بزعامة لينين وبعد أقل من خمسة أشهر من انتصار ثورة اكتوبر، وبالتحديد في الحادي والعشرين من فبراير من عام ١٩١٨، بفضح أمر تلك المعاهدة وذلك بنشر نصوص بنودها كاملة وملحقاتها والرسائل المتبادلة بشأنها. وقد أحدث ذلك دوياً دولياً هائلاً وقتها خاصة وسط البلاد العربية التي كانت من ضمن أهم مراكز النفوذ التي قرر الاستعماريون اقتسامها.

وقد ظل البولشفيك والتابعون وتابعو التابعين من أمثالنا يشيدون بالدوافع النبيلة التي حدت بالدولة السوفيتية الوليدة لفضح بنود تلك المعاهدة، ويزعمون أنها بذلك قد أنقذت الشعوب العربية من مغبة تخطيط استعماري ماكر، ويسوقونها كدليل على الأصالة، وكشاهد على حسن نوايا دولة البروليتاريا

وجديتها في التزام جانب الشعوب المقهورة.

ولم تكن تلك الاتفاقية الاستعمارية في حقيقة أمرها بالحجم الذي رسمته لها أجهزة الدعاية السوفيتية ولا بالخطورة التي أسبغتها عليها والتي حسبناها حقاً وصدقاً. ولم تكن إشادتنا بموقف البولشفيك منها إلا غلواً وشططاً... وهكذا كان دأبنا عندما كان الحماس غالباً، وبعض العقل غائباً. فقد ثبت من الوثائق التي نشرت في بريطانية بعد ثلاثين عاماً من توقيعها أنه كان للانجليز دروب وتخطيطات أخرى وإنهم لم يلتزموا بعد نهاية الحرب بنصوصها خاصة فيما يختص بفلسطين. وقد وضح ذلك جلياً من المكاتبات والرسائل المتبادلة بين سير هنري ماكمهون المندوب السامي البريطاني في مصر وبين شريف مكه، الشريف حسين، حيث التزمت بريطانيا العظمى للعرب، دون علم حليفتها فرنسا، ومن وراء ظهرها، بمباركة قيام خلافة عربية تحل محل الخلافة التركية في تلك المنطقة. وقد أشارت إلى نفس المعنى كتابات ديفيد لويد جورج الذي كان رئيساً للوزارة البريطانية في الفترة بين عامي ١٩١٦ و ١٩٢٢. كما أنه لم يكن في مقدور الدولة السوفيتية على عهد لينين تحقيق أطماعها التوسعية في المنطقة العربية فقد كانت مهتمة بترتيب شؤونها الداخلية وحماية سلطتها الجديدة من اعتداءات الدول الرأسمالية الغربية عليها. ولم تكن المعاهدة قد رتبت حقوقاً يؤبه بها لروسيا القيصرية في بلاد العرب وإنما اكتفت بالاعتراف لها ببعض الامتيازات في مضيق الدردنيل والبوسفور التي لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للحكومة البلشفية التي قررت حماية نفسها داخل حدودها وإقامة سياج حديدي حولها.

وقد كان لينين يعلم أكثر من غيره أنه لن ينال شيئاً من تلك الامتيازات على قلتها وضآلتها حتى ولو تستر على المعاهدة والتزم بنصوصها وأصر على تنفيذها بحذافيرها فقد كانت بريطانيا وفرنسا أكثر الدول عداء لنظامه الجديد وأحرصها على الإطاحة به.

- ٢٦ -

وكانت الإدارة الاستعمارية في الخرطوم وإلى نهاية عام ١٩٤٧ في غفلة عما يدور في أوساط المثقفين من نشاط شيوعي مكثف، ولكنها بدأت ترصد جانباً من تحركات الطلبة السودانيين بمصر خاصة بعد رجوع وفد الاتحاديين من ليك سكسس. ولعلها لم تثق بتلك التحركات في البداية، إذ كان همها الأكبر وشاغلها الأول مراقبة نشاط وفد السودان بالقاهرة. وربما أسعدها تصرفنا الأحمق واندفاعنا الأهوج في معاداة أزهري وصحبه وانسلاخنا من حزب الاشقاء بعد أن كنا رسله الأشداء ودعاته الأوفياء بين طلاب المدارس العليا بالخرطوم وقاعدته النشطة بين الطلاب في مصر عند بداية التحاقنا بالجامعة المصرية.

ويبدو أن حكومة السودان لم تكن تعطي وزناً كبيراً للمعلومات القليلة التي كانت تصلها من وكالتها بالقاهرة عن مدى تغلغل النفوذ الشيوعي وسط الطلاب السودانيين الجدد، ولعلها لم تكن تدرك وقتها خطورة ذلك على مستقبل الحركة السياسية في السودان، أو لعلها قد قصدت أن تتعامى عيونها عن قراءة ما يصلها من تقارير حول خطورة الأمر، وتتصامم آذانها عن صيحات بعض أعوانها من الموظفين السودانيين الذين كنا نتناولهم

بالقدح والذم في منشوراتنا على قلتها، ونسلقهم بألسنة حداد في حلقات النقاش المفتوحة التي ابتدعناها وكنا نقيمها يدور الخريجين أثناء العطلة الصيفية.

وكنا نعجب لإهمال حكومة السودان لشأننا إذ لم نكن نحس بوجود عيون لها في محيط الطلاب ولم نشعر بأي موقف عدائي منها قِبلنا.

كما أنه لم تكن هناك ثمة قيود أو عراقيل تتصل بإجراءات خروجنا من البلاد كما كان الحال مع الرعيل الذي سبقنا إلى مصر. ولم نكن نلمس أية مضايقات أو إجراءات تعسفية من سلطات الجمارك والأمن في وادي حلفا عند عبورنا لمينائها النهري ذهاباً وإياباً. وقد مكننا ذلك من ادخال الكتب الماركسية والمطبوعات الشيوعية وحتى المحظور منها. وأذكر أنني والتجاني الطيب بابكر قد حُمّلنا، دون سوانا، في بداية العطلة الدراسية الأولى أسفاراً من الأدب الماركسي كان من بينها عشرات النسخ من «مجلة المقاومة»، وكانت هذه أقرب إلى المنشور منها إلى الصحيفة. وكان ذلك العدد خاصاً بالسودان وكان مليئاً بالسباب والتجريح لزعماء البلاد، ولعل بعضهم كان محقاً، بسببها، في بغضه لنا ومعاداتنا وعدم مغفرته لعثرتنا وتطاولنا.

ولكن ومنذ نهاية اضرابي عمال السكة الحديد المتتاليين في يناير ومارس من عام ١٩٤٨ ومع تصاعد المقاومة ضد الجمعية التشريعية بدأت حكومة السودان تكشر عن أنيابها وتهدد بتحريك القوانين الجنائية، كقانون الجمعيات المحظورة لعام ١٩٢٤ وسن قانون يردع النشاط الهدام، وكان هذا تعبيراً شائعاً إبان العهد

الاستعماري ويُعنى به النشاط الشيوعي.

وبدأت على أثر ذلك حملة دعائية مكثفة تحذر من أطماع روسيا في المنطقة ومن نشاط عملائها المحليين. وقد ساعد على تطاول الإدارة الاستعمارية وجرأتها اضطرام أوار الحرب الباردة بين روسيا وأمريكا والتي زادها ستالين اشتعالاً بحصاره لبرلين وأمره بقطع كل سبل الاتصال البري بها.

وربما كانت تلك أول مرة تهاجم فيها حكومة السودان الاتحاد السوفيتي وتتهمه بموالاة الشيوعيين المحليين وبالتخطيط لدعم نفوذه في البلد القارة الذي يحتل موقعاً استرتيجياً خطيراً في أفريقيا.

ولعله من المناسب أن أشير هنا إلى تقرير اطلعت عليه بدار الوثائق بالخرطوم يحدث عن محاولات سوفيتية ومنذ منتصف العشرينات لبث الدعاية الشيوعية في السودان ويدلل عليها ببعض الوقائع التي رصدتها أجهزة المخابرات البريطانية في كل من القاهرة وجده ومصوع وأسمره وبورتسودان.

والتقرير من اعداد ادورد عطيه الموظف بقلم المخابرات السودانية كوصفه هو لعمله وقد جعل عنواناً له «التاريخ السياسي للسودان بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٣١» وأرجو أن أنقله من الانجليزية بتصرف لا يخل بمضمونه.

يزعم ادورد عطيه أنه تأسيساً على التقارير الصادرة في عام ١٩٢٦ من دار الحماية ـ التي هي مقر المعتمد البريطاني بالقاهرة ـ فإن ثمة صلة كانت تربط بين السوفيت وحزب الوفد المصري وأن هذا الأخير قد التزم في يونيو من عام ١٩٢٥ بالتعاون

والمساعدة في بث الدعاية الشيوعية في السودان وأن الطرفين اتفقا على تشكيل لجنة لرعاية مصالحهما والتنسيق فيما بينهما. وكان يمثل السوفيت فيها شخص روسي يدعى دكتور ماركوفسكي ويمثل الجانب المصري حمدي بك سيف النصر ـ وكان هذا قد عمل قبلها مأموراً بأم درمان وفي فترة لاحقة وزيراً للحربية في إحدى الوزارات التي ترأسها مصطفى النحاس باشا.

ويقول ادورد إن التقارير كانت تشير إلى أن الأمير عمر طوسون كان على علم بمسألة التنسيق بين الوفديين والسوفيت حول النشاط في السودان وان من الأسماء المصرية التي وردت في تقارير دار الحماية والتي كانت على صلة بهذا الأمر، بجانب الأمير طوسون وحمدي سيف النصر، لبيب باشا الشاهد وحمد باشا الباسل وأخيه وفخري عبد النور وعبد الرحمن بك فهمي وأن من ضمن وكلائهم بالسودان الرابي سليمان ملكه حاخام اليهود بالخرطوم والضابط السوداني زين العابدين عبد التام .ويضيف ادورد عطيه أن الانجليز بالسودان فشلوا في ايجاد ما يثبت صحة تلك المعلومات إذ لم تتوفر أية أدلة أو قرائن تثبت الزعم بأن هناك دعاية وفدية سوفيتية مشتركة في السودان خاصة وأن حزب الوفد لم يكن يرغب في مضاعفة متاعبه التي سببها مقتل الحاكم العام سيرلي ستاك في عام ١٩٢٤.

ويسترسل ادورد عطيه ويقول إن تقارير دار الحماية كانت تشير إلى وجود حزب شيوعي مصري وأن انجليزياً يدعى هـ . ب . راثبون قد أسهم في صياغة برنامجه الذي وردت فيه اشارة إلى السودان ولكن الحزب عجز عن القيام بأي نشاط يذكر في

السودان خاصة بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٣١ حيث كان يعاني من ضربات قوى الأمن المتلاحقة.

ويزعم ادورد عطيه أن جهد السوفيت لإيجاد موقع دعائي لهم في السودان لم يقتصر على مجرد التنسيق مع حزب الوفد المصري، فقد كانت هناك الوكالة السوفيتية في جده التي افتتحت في عام ١٩٢٤ والتي كان السودان أحد محاور نشاطها. وقد خلفت تلك الوكالة القنصلية الروسية التي كانت تهتم قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بشؤون الحجاج القادمين من بخاري كما كانت تشرف على أعمال الخطوط البحرية الروسية التي كانت تسيّر خطين للملاحة إبان موسم الحج. ولكن وبما أن سيل الحجيج الروسي كان قد انقطع نتيجة استيلاء البولشفيك على السلطة فقد تيقن الظن بأن المهمة الرئيسية للوكالة هي الإشراف على العمل السياسي الدعائي في المنطقة وخاصة في مصر والسودان.

ويستطرد ادورد عطيه ويقول إنه حسب التقارير التي أرسلها مندوب صاحب الجلالة البريطانية وقنصلها ووكيلها بجده في نوفمبر من عام ١٩٢٤ فإن الوكالة السوفيتية قد سربت نشرات شيوعية إلى داخل السودان بواسطة أحد السكرتيرين العاملين بها ويسمى بلكين كان قد حضر مؤخراً من روما عن طريق مصوع والذي اتخذ من جده مركزاً لتوزيع نشرات الدعاية السوفيتية. وإن الوكالة السوفيتية كانت على صلة ببعض الضباط الطليان العاملين بخط بواحر البحر الأحمر الايطالية وبآخرين في أرتريا. وإن المخابرات البريطانية في جده قد رصدت تحركات الرفيق خاكيموف القنصل الروسي الذي شوهد وهو يسلم ثلاثة

مسافرين على ظهر باخرة «البوستة الخديوية» المسماة بـورولوس عدداً من الطرود والرسائل وأن هؤلاء الثلاثة عقدوا اجتماعاً عند رسو الباخرة ببور تسودان مع وكيل البوسته الخديوية الإيـطالي المقيم بالميناء كما لاحظت تلك المخابرات أن أغلبية الأطباء الذين يعملون على ظهر البواخر التي تحمل البريد كانوا من الروس. وأن مصرياً يسمى سيد إبراهيم يشغل وظيفة كـاتب بالبـاخرة المنصورة كان يعمل كحلقة اتصال بين أبناء جلدته المسؤولين عن النشاط السياسي في السودان وبين الـرفيق خاكيمـوف الوكيـل السوفـيتي بجده وكان سيد هذا ابن أخ نائب الوفد عن دائرة السويس البرلمانية.

ويذكر تقرير ادورد عطيه أن مما زاد من هواجس المخابرات البريطانية وضاعف من قلقها حول نشاط السوفـيت التقاطها في عـام ١٩٢٥ لبرقيـة صـادرة من مـوسكـو من شخص يـدعى مشكوفسكي ورد فيها لفظ أركوس واسم شخص يدعى ادورد قولزمان كان قد تقدم بطلب تأشيرة دخول لمصر كرئيس للبعثة السوفيتية التجارية. كما أفادت معلومات تلك المخابرات أنه قد تم في أوائل عام ١٩٢٥ إنشاء خلية مصرية بجده مهمتها تنسيق العمل مع الرفيق خاكيموف لترشيد العمل الدعائي بـالسودان وكانت تعمل تحت أمرة عبد الرحمن بك فهمي بمصر ويقول ادورد أنه كان للسـوفـيت نشاط في أسمره حيث زارها في ابريل ١٩٢٦ إثنان من سكرتيري وكالتهم بجده. وإنه في ديسمبر من ذلك العام تلقت حكومـة السودان تـوجيهات من المنـدوب السامي البريطاني بمصر بضرورة مراقبة الوكالة السوفيتية بجده التي زعم أن اهتمامها الأول كان السودان وأنه بناء على تلك التوجيهات

حاول مدير عام المخابرات بالسودان أن «يزرع» عيناً له داخل الوكالة السوفيتية.

ويختم ادورد عطيه تقريره الذي هو أقرب للبحث منه للتقارير التقليدية بملاحظتين مؤدى أولهما أنه رغماً عن إحاطة السوفيت بالسودان من ثلاث جهات، من مصر، ومن أسمره، ومن مينائي البحر الأحمر جده ومصوع، فإنهم قد فشلوا في ايجاد قاعدة للدعاية البولشفية في السودان حيث إن كل الذي تيسر لهم في هذا المجال هو تسريب بعض النشرات المعادية للاستعمار وبعض الرسائل والخطابات الشخصية. ومقتضى الملاحظة الثانية أنه رغم الظروف الاقتصادية المتردية في السودان نتيجة الأزمة المالية العالمية وما صاحبها من عطالة وتخفيض في الأجور والمرتبات ومن هجرة العمال إلى المدن ورغم ما أصاب الجزيرة وقطنها من كساد ورغم علم السوفيت بتلك الظروف وبأنها تشكل أرضاً طيبة وتربة خصبة للدعاية البولشفية إلا أن «السودان كان في مأمن من المؤثرات المصرية والإسلامية!؟ والسوفيتية».

بقي عليّ أن أضيف أنه قد سبق لي أن تصفحت تقرير ادورد عطيه هذا قبل اطلاعي عليه بدار الوثائق وكان ذلك في أواخر نوفمبر من عام ١٩٦٤ في الفترة ما بين تنحية الفريق عبود من رئاسة الدولة وبين تنصيب مجلس السيادة الذي خلفه. وكان عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب الشيوعي السوداني قد طلب من الشفيع أحمد الشيخ الذي كان قد أختير وزيراً لرئاسة مجلس الوزراء ممثلاً للعمال في وزارة اكتوبر الأولى أن يبحث في أضابير قصر الشعب، الذي كان قبلها مقراً للحاكم العام البريطاني، عن الوثائق السرية التي تتصل بالنشاط الشيوعي في البلاد وغيرها التي

ربما أفادت الحزب الشيوعي في صراعه مع القوى السياسية التي آلت إليها السلطة بعد جلاء الاستعمار.

وقد كان الشفيع في موقع يمكنه من البحث والاطلاع على الوثائق المنشودة إذ كانت شؤون القصر في تلك الفترة التي سبقت تكوين مجلس السيادة من اختصاص رئيس الوزراء الذي أسندها بدوره للشفيع بوصفه وزيراً للرئاسة، وقد كان الشفيع بجانب ذلك محلاً لثقة سر الختم الخليفة رئيس الوزراء آنذاك. وقد اطلعني الشفيع على مجموعة من الوثائق كان من ضمنها ذلك التقرير وأذكر أني قد اكتفيت بتصفحه دون تركيز إذ انصرف اهتمامي وقتئذ إلى البحث عن محاضر جلسات المجلس العسكري الأعلى برئاسة الفريق عبود خاصة جلسته التي اتخذ فيها قرار اعتقالنا وترحيلنا إلى الجنوب في منتصف عام ١٩٦١ برفقة الرئيس أزهري وصحبه الكرام. وكنت قد حاولت عبثاً ومنذ اعتقالنا معرفة السبب الذي أدى لاعتقال أحد أولئك الكرام وهو الصديق الحاج عبد الرحمن شاخور الذي لم يعرف له نشاط سياسي البتة والذي انصرف كل جهده بجانب سبل كسب عيشه الشريف إلى تطوير النشاط الرياضي لفريق المريخ: وقد باءت كل محاولاتي ولا زالت بالفشل حيث لم أعثر على مسوغ يبرر اعتقال الرجل الكريم.

ولم يكن لحكومة السودان أن تكتفي، في الظروف التي تلت نهاية الحرب العالمية، بمجرد التنديد بالحركة الشيوعية العالمية ولا بالتهديد باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد الشيوعيين المحليين وضد معارض نظام حكمها، فقد كان عليها، ومن ورائها وايتهول، أن تفصح عن خططها المستقبلية لتطور البلاد الدستوري خاصة بعد ما تبين لها أن المجلس الاستشاري الذي كان الحاكم العام قد افتتح أولى جلساته في منتصف مايو ١٩٤٤ يقصر عن تلبية طموح غالبية الفئات المستنيرة في المدن، ولم يعد يرضي تطلعات كثير من أولئك الذين كانوا قد باركوا فكرة إنشائه وقبلوا عضويته... لذلك أصدر مجلس الحاكم العام في ابريل من عام ١٩٤٦ قراراً بتشكيل ما سمي بمؤتمر إدارة السودان، حددت مهامه في التقدم بتوصيات حول توسيع رقعة مساحة مساهمة السودانيين في حكم بلادهم.

وتلخصت التوصيات التي تقدم بها ذلك المؤتمر في آخر مارس من عام ١٩٤٧ في ضرورة قيام جمعية تشريعية تخول لها بعض الصلاحيات التشريعية والمالية والإدارية وتكون أكثر تأهيلاً من المجلس الاستشاري من حيث التمثيل الشعبي.

وقد جاء في تلك التوصيات إلى:

١ ـ «أن الأساس الذي قامت عليه جميع توصيات المؤتمر هو رغبة السودانيين في حكم بلادهم، ورغبة معالي حاكم السودان العام في تعديل دستور المجلس الاستشاري لشمال السودان ليخلق منه جمعية أكثر تمثيلاً للشعب، وليضطلع بمسؤوليات المجلس الاستشاري، ورغبة في الاستمرار في سياسة تقدم الهيئات الداخلية للحكم الذاتي.

٢ ـ ينبغي أن يكون للسودان صوته الخاص، أي أنه يجب أن تكون له هيئة يكون لها الحق الدستوري في أن تتحدث باسم القطر بأكمله. والسودانيون لن يستطيعوا أن يحكموا أنفسهم إن لم يكن لهم تدريب سابق في فن الحكم، وهذا لا يتسنى لهم إلا عن طريق الاضطلاع بالمسؤولية. وهذه المسؤولية في أي وقت من الأوقات يجب أن تكون كبيرة بدرجة تمكن السودانيين من استغلال مقدرتهم ومواهبهم دون أن يتعرضوا للفشل. وبهذه الطريقة فإن تدريبهم سيسير بأسرع خطوات ممكنة.

كان المجلس الاستشاري الخطوة الأولى نحو الحكم الذاتي المسؤول، وقد كان أمد هذه التجربة ثلاث سنوات، وكان اختصاص المجلس قاصراً على المديريات الشمالية الست، وكانت وظيفته استشارية محضة ومحدودة المدى، ولم يكن في وسع أعضائه أن يدَّعوا أنهم يمثلون الشعب تمثيلاً صحيحاً رغم أن بعضهم من أكفأ رجالات البلاد وأوفرهم تجارباً.

٣ ـ ونحن متفقون على أن أمثل طريقة لتحسين المجلس

الاستشاري الحالي وجعله أكثر تمثيلاً لرغبات الشعب وإعطائه قدراً أوفر من المسؤولية، هي تشكيل جمعية تشريعية تتألف من أعضاء سودانيين منتخبين ليمثلوا السودان بأكمله، وتكون ذات وظائف تشريعية ومالية وادارية تؤديها بالاشتراك مع مجلس تنفيذي يشكل من جديد ويحل محل مجلس الحاكم العام الحالي.

٤ ـ إننا متفقون بإجماع الآراء على أن سلطات الجمعية الجديدة يجب أن تشمل القطر بأكمله، شماله وجنوبه».

وقد سارع مؤتمر الخريجين الذي كان يسيطر عليه الأشقاء بإعلان مقاطعته ورفضه للجمعية المرتقبة. وقال أزهري كلمته المشهورة:

«سنرفضها وإن جاءت مبرأة من كل عيب»

وكان هذا امتداداً طبيعياً لموقف المؤتمر وكافة الأحزاب الاتحادية بمختلف مدارسها الفكرية من مؤتمر الإدارة، واتجاهاً متسقاً مع موقفها من المجلس الاستشاري الذي كانوا قد عارضوا فكرة تأسيسه من قبل.

أما حزب الأمة فقد رحب بعضوية مؤتمر الإدارة وساهم في مداولاته بثلاثة من أعضائه، كانوا هم من أكثر الأعضاء حماساً لقيام الجمعية التشريعية. وكان موقفهم هذا متمشياً مع قبولهم لمنهج التدرج في مسيرة التطور الدستوري الذي كان المجلس الاستشاري أولى خطواته.

وقد أشار السيد عبد الرحمن المهدي إمام الأنصار وراعي حزب الأمة إلى بعض الأسباب التي جعلته يبارك قيام المجلس

الاستشاري، وذلك في الحديث الذي نقله عنه حفيده السيد الصادق المهدي وسجله في الكتاب الذي أعده «جهاد في سبيل الاستقلال». ولعلها هي نفس الأسباب التي حملته لمباركة قيام الجمعية التشريعية. يقول السيد إمام الأنصار:

(قلت إن الحكومة لم تعترف بمقدمي مذكرة المؤتمر ودعاني هذا لأن أقابل الحاكم العام السير هدلستون في قصره وذكرت له أنهم خيبوا أمالنا بإهمالهم المذكرة فرد السير هدلستون بقوله «إننا سنعمل شيئاً للسودان» وكان الشيء الذي يقصده الحاكم هو المجلس الاستشاري لشمال السودان... ولما عرضت عليّ فكرة المجلس الاستشاري قبلتها ونصحت رجالي أن يقبلوا الاشتراك في المجلس. وأذكر أنني ضربت لهم مثل الشخص الذي يطلب ديناً على آخر فهل يرفض إذا سلمه المدين جزءاً من دينه أم يأخذه ويطالب بالباقي، وهكذا نحن يجب أن نقبل المجلس ونطالب بباقي حقوقنا... ثم سافرت بعد ذلك لاركويت وقابلت هناك مستر بنت السكرتير القضائي فقال لي انكم فعلتم خيراً بقبولكم للمجلس الاستشاري لأن هذا المجلس سيتطور بعد عشرة أو عشرين عاماً إلى جمعية تشريعية).

وقد تلقفت قلة من أعضاء مؤتمر الخريجين أُطلق عليهم وصف «المعتدلين» نداء السيد عبد الرحمن ودعوته للمساهمة في أعمال مؤسسات الحكم التي بشرت بها الإدارة البريطانية. وكان قبولهم للاشتراك في الجمعية التشريعية مواصلة منطقية لموقفهم من المجلس الاستشاري حيث كانوا قد خرجوا على قرار مؤتمر الخريجين بمقاطعته وقبلوا عضويته تأسيساً على نظرية «شيء خير

من لا شيء» وعلى زعم أن المجلس ربما كان «نواة للعمل الايجابي».

أما قطب الرحى الآخر السيد علي الميرغني ومن ورائه طائفة الختمية فقد أعلنوا مقاطعتهم للجمعية التشريعية كما كانوا قد أعلنوا من قبل عدم رضائهم عن قيام المجلس الاستشاري الذي فاقم إعلان قيامه والمداولات التي كانت تدور داخله من حدة الخلاف بين التيارين اللذين كانا يسودان حلبة الصراع السياسي في البلاد. . . وكان ذلك بداية الانفصام الحقيقي والذي تبلور وأدى إلى نشأة الأحزاب السودانية بعد أن كانت الشلل والتكتلات هي التي تجسد انقسام الرأي وتعبر عنه.

وقد اختلفت الآراء حول تفسير عدم ترحيب السيد علي الميرغني بفكرة قيام المجلس الاستشاري ومن بعده مقاطعته وطائفته للجمعية التشريعية.

ولعل أغرب تلك التفسيرات ما ذكره السير دوقلاس نيوبولد في خطابه الذي أرسله في الثالث من أبريل ١٩٤٤ إلى صديقه القائمقام ب. ج. سندرسن الذي كان يعمل آنذاك ضابطاً بقوة دفاع السودان بشمال أفريقيا. فقد جاء فيه: (سيجتمع المجلس الاستشاري في الخامس عشر من مايو. وقد قرر ثلثا عضوية مؤتمر الخريجين مقاطعة المجلس وكذلك فعل السيد علي مؤخراً. وقد سبب المؤتمر مقاطعته بأن قيام المجلس يقعد دون تحقيق تطلعات البلاد. أما السيد علي فقد كان يرى أن الأمر على عكس رأي المؤتمر تماماً). . . ولم يشأ سير دوقلاس أن يقول صراحة أن السيد علي كان يرى أن قيام المجلس خطوة متقدمة ومتسرعة لم يكن قد

حان أوانها بعد نسبة لتخلف البلاد، فقد اكتفى بالتلميح دون التصريح. ولا شك أن في ذلك ظلماً بيناً وتجنباً فاضحاً على السيد علي الذي ظل ومنذ أن رفض الحاكم العام مذكرة الخريجين في عام ١٩٤٢ يتعاطف مع المعسكر المناوىء للحكومة ويتجاوب مع الأشقاء ودعاة الاتحاد مع مصر، والذي تـوَّج مقاومتـه لخطط الإدارة الاستعمارية بحض أتباعه ومريديه على مقاطعة الجمعية التشريعية، الأمر الذي جعلها تولد هزيلة كسيحة، وأسهم في وأدها وعجل بفنائها.

وبالطبع لم يشر سير دوقلاس إلى الأسباب الحقيقية التي دعت غالبية جماهير المدن لمقاطعة المجلس الاستشاري والتي كان على رأسها صفته الاستشارية إذ كانت قراراته تفتقد قوة الإلزام كما أن الانتساب إليه كان بالتعيين وليس بالانتخاب وعضويته كانت وقفاً على قلة من أبناء المديريات الشمالية دون أبناء الجنوب.

وهناك من يعزي سبب معارضة السيد علي لمؤسستي الحكم الاستعماري، المجلس الاستشاري ومن بعده الجمعية التشريعية، إلى تواطئه مع الحكومة المصرية التي كانت قد رفضت بوصفها إحدى دولتي الحكم الثنائي فكرة المجلس الاستشاري وعارضت قيامه ولكن على أساس غير ذلك الذي انبنى عليه موقف مؤتمر الخريجين وقاعدته من الختمية. فقد ارتابت الأحزاب المصرية في أمر المجلس وبدا لها أنه ارهاص لفصل جنـوب السودان عن شماله، وتمهيد لفصل شماله عن مصر. ولكن حكومة السودان تجاهلت اعتراض مصر واحتجاجاتها المتكررة ولم تعبأ بموقفها ولم تعر انتقاداتها أذناً صاغية، وظل المجلس يمارس أعماله إلى حين قيام الجمعية التشريعية في أواخـر عام ١٩٤٨ والتي عـارضتها

بدورها الحكومة المصرية على أساس أن توصيات مؤتمر الإدارة بشأنها «لا تحقق الغرض المقصود منها وهو اشراك السودانيين في الحكومة المركزية». وإن الجمعية المقترحة «لا تحقق تمثيل السودانيين تمثيلاً صحيحاً ولا تشركهم في المسؤولية عن حكم أنفسهم بالقدر الذي يستحقونه».

وبالطبع فقد ائتلف موقف السيد على المعارض لمؤسسات الحكم المقترحة من قبل الإدارة البريطانية مع موقف مصر حكومة وأحزاباً. بيد أن ذلك لا يعني أن الختمية كانوا تبعاً لمصر تسيرهم كيفما شاءت ورأت. ولعل الدليل على ذلك أنهم واصلوا معارضتهم للجمعية التشريعية في الوقت الذي خففت فيه الحكومة المصرية من غلواء معارضتها لها بل وكادت أن تقبلها وذلك عندما باركت نتائج المحادثات التي كانت جارية بين وزير خارجيتها أحمد خشبة باشا وبين السفير البريطاني بالقاهرة والتي عرفت بمحادثات خشبة ـ كامبل والتي قبلت بمقتضاها السلطات المصرية التعديلات التي أجريت على مشروع قانون الجمعية التشريعية،وقبل البريطانيون بدورهم اشراك بعض المسؤولين المصريين في المجلس التنفيذي الذي كان قد بارك قيامه المجلس الاستشاري ووافق عليه بالإجماع. وقد كان لموقف الجماهير السودانية في المدن وأغلبيتهم من طائفة الختمية والمتعاطفين معها وتصعيدهم للمعركة ضد الجمعية التشريعية الأثر البالغ في تراجع الحكومة المصرية وتنصلها عن اتفاق خشبة ـ كامبل.

ولعلنا لا نسرف في القول إن قلنا إن رفض السيد علي للجمعية التشريعية كان أعظم مواقفه الوطنية وقد جَبَّ كل المآخذ السابقة التي أسندت إليه ولنفر من كبار الزعماء الدينيين في الثلث

الأول من هذا القرن.

وكما كانت معركة الجمعية التشريعية هي التي أبرزت طائفة الختمية كقوة سياسية وطنية فعالة وحاسمة فإنها كانت للحزب الشيوعي السوداني بمثابة المدرسة التي تعلم منها كادره القيادي كيفية التوفيق بين ضرورات العمل السري ومتطلبات النضال الجماهيري، وكيفية تطويع القانون والاستفادة من ثغراته وذلك بربط النشاط القانوني بغيره المحظور. كما ساعدت في تحلل أعضاء الحزب من آثار الاجتماعات السرية المغلقة التي كانت ولا تزال من أسباب موات وهزال كثير من الأحزاب الشيوعية وشبيهاتها في البلاد العربية، وانطلقوا إلى الشارع السياسي الرحب ينظمون الليالي السياسية ويقيمون الندوات العلنية ويقودون المظاهرات ويسيرون المواكب الهادرة تجوب شوارع المدن وتهتف بسقوط الاستعمار وتدعو لمقاطعة مؤسساته.

وكان الانجليز بالطبع أشقى الناس باستعجال تحـديد فتـرة الانتقال التي يمارس فيها الشعب السوداني الحكم الذاتي والتي تليها اجراءات تقرير مصيره إذ من شأن ذلك الاستعجال عرقلة خططهم للتدرج بالسودان إلى ذلك الحكم وفق فترة زمنية محددة وعبر المؤسسات التي كان الظن أنها تلبي طموح أغلبية السودانيين خاصة أولئك الذين كان يهمهم أمرهم.

وقد غاظهم أكثر أن تجيء مثل تلك الطعنة من داخل الجمعية التشريعية، ومن نفر كانوا يضعونهم في رأس قائمة أصدقائهم. فقد تقدم المرحوم محمد الحاج الأمين شقيق المجاهد العظيم عبيد حاج الأمين وأحد أعضاء حزب الأمة البارزين في الثالث عشر من ديسمبر ١٩٥٠ باقتراح مقتضاه إرسـال خطاب إلى معـالي الحاكم العام بالنص التالي:

«نحن أعضاء الجمعية التشريعية للسودان من رأينا أن السودان قد وصل المرحلة التي يمكنه فيها أن يمنح الحكم الذاتي. ونرجو من معاليكم الاتصال بدولتي الحكم الثنائي طالبين منهما اصدار تصريح مشترك بمنح الحكم الذاتي للسودان قبل نهاية الـدورة

الثالثة للجمعية الأولى، وأن تجري الانتخابات على هذا الأساس».

وكان الأستاذ محمد أحمد محجوب قد تقدم قبل ذلك بأكثر من سنة، وقبل أن تكمل الجمعية التشريعية عامها الأول، باقتراح يطالب فيه بمنح السودان الحكم الذاتي في أو قبل ديسمبر ١٩٥٦ أي قبل انتهاء معاهدة ١٩٣٦ التي كان يخشى أن يقوم طرفاها، الانجليز والمصريون، بتعديلها بما لا يتفق ومصلحة البلاد.

وقد هاجم الانجليز الاقتراحين هجوماً عنيفاً وزعم السكرتير الإداري سير جيمس روبرتسون أن حزب الأمة «قد غرر ببعض الأعضاء ليوقعوا أوراقاً تؤيد اقتراح السيد محمد الحاج الأمين»، كما وصفه السكرتير القضائي مستر كمنجز بأنه «اقتراح رديء».

وربما كان لكل من سير جيمس ومستر كمنجز عذرهما في حملتهما الهوجاء تلك حيث لم يكن يحسبان أن تُستغل المؤسسات الدستورية كمنبر لإجهاض مخططاتهم السياسية حول مستقبل السودان، إذ كانا وقبلهما شيخهما نيوبولد السكرتير الإداري الأسبق بناتها ورعاتها، فقد كانوا، ثلاثتهم، أول من احتضن فكرة قيام المجلس الاستشاري ومن بعده الجمعية التشريعية بعد أن أوحى لهم بها ستافورد كريبس عضو مجلس الوزراء البريطاني، وذلك عندما مر بالسودان في طريقه إلى الهند حيث كان قد كلف بتلمس آراء الهنود حول مستقبل بلادهم ومحاولة الوصول إلى تسوية ترتضيها بريطانيا وحزب المؤتمر الهندي على السواء. وقد أشار إلى ذلك سير ستافورد في كتابه الشهير «فشل مهمة».

وقد روى مستر هندرسن قصة منبت وأصل فكرة المجلس

الاستشاري وذلك في كتابه عن مستر نيوبولد والذي سماه «خلق السودان الحديث».

(. . . وتناول نيوبولد طعام الغداء مع مستر ستافورد كريبس ولبث معه ثلاثين دقيقة وكان ذلك في السادس عشر من أبريل ١٩٤٢ عندما مر سير ستافورد بالخرطوم. وبث نيوبولد شكواه لسير ستافورد وعدد الصعوبات التي تقابل حكومة السودان ومنها مذكرة مؤتمر الخريجين، وقد نصح سير ستافورد بضرورة المبادرة بإعلان قيام مجلس استشاري سوداني وألا تترك الأمور لمشيئة الظروف ولإرادة الأحداث).

ونقل نيوبولد نصيحة الوزير البريطاني إلى الحاكم العام الذي راقت له الفكرة فأصدر قراراً في يناير ١٩٤٣ بتكوين لجنة من سبعة من كبار الموظفين البريطانيين منهم خمسة من أعضاء مجلس الحاكم العام وذلك لبحث أمر تكوين مجلس استشاري لشمال السودان وأصدرت اللجنة توصياتها التي نبع منها قانون المجالس الاستشارية القانون رقم ٧ لسنة ١٩٤٣ ـ الذي استند عليه الحاكم العام ومجلسه عندما أصدروا قانون إنشاء المجلس الاستشاري لشمال السودان ـ ومن بعده قانون المجلس التنفيذي والجمعية التشريعية الذي أدى إصداره إلى اشتداد المعارضة واضطرام أوارها حيث توالت المظاهرات وسقط الشهداء وامتلأت السجون بالشباب في كثير من مدن السودان وخاصة في عطبرة ومدني وأم درمان والأبيض والفاشر وبورتسودان. . . وأسقط في أيدي الحكومة المصرية التي كادت أن تقبل بالفتات الذي كان هو ثمرة محادثات وزير خارجيتها مع سفير المملكة المتحدة بالقاهرة،

فتراجعت عن موقفها، واعتدلت، من ثم، مواقف بعض المترددين من أعضاء وفد السودان. . . وخاب أمل الحكام الانجليز الذين لم يكونوا يقدرون أن المقاومة لمشاريعهم ستتفاقم وتبلغ المدى الذي وصلت إليه. وراعهم أن حزب الأمة الذي كان قد بارك قيام الجمعية التشريعية واشترك أعضاؤه في مداولاتها بات يندد علناً في صحفه ومن منبر الجمعية ذاتها بقصور دستورها وضآلة سلطاتها مما اضطر معه الحاكم العام لحلها ولم تبلغ من العمر إلا أربع سنوات تنقص قليلاً ولكن بعد أن أجازت في الثالث والعشرين من أبريل ١٩٥٢ قانون الحكم الذاتي دون أن تحدد فترة الانتقال التي يعقبها تقرير المصير.

وكانت الحكومة المصرية برئاسة مصطفى النحاس باشا قد ألغت قبل ستة أشهر من اجازة الجمعية التشريعية لقانون الحكم الذاتي، وبالتحديد في الخامس عشر من اكتوبر ١٩٥١، معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتي الحكم الثنائي الصادرتين في التاسع عشر من يناير والعاشر من يوليو ١٨٩٩ بشأن ادارة السودان وأجرت تعديلاً على الدستور المصري أصبح بمقتضاه لقب ملك مصر «ملك مصر والسودان»، كما أصدرت قانوناً مؤداه وضع دستور يحدد نظاماً خاصاً بحكم السودان وينص على «قيام جمعية تأسيسية تمثل أهالي السودان وتكون مهمتها وضع دستور خاص بالبلاد يصدق عليه الملك» على أن يكفل ذلك الدستور تحقيق النظام الديمقراطي البرلماني الذي يرتكز على مبدأ فصل السلطات وضمان استقلال القضاء.

وتأزم الموقف بين مصر وبريطانيا واسقط في يدي الإدارة

الاستعمارية في السودان ولم يحسمه إلا قيام ثورة يوليو **١٩٥٢** بمصر حيث تم في الثاني عشر من فبراير **١٩٥٣** توقيع اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان.

وكنا نحن بمصر قد أسهمنا بدورنا في معركة الجمعية التشريعية. فقد واصلنا الضغط على وفد السودان الذي أبدى بعض أعضائه تعاطفاً مع نتائج محادثات خشبة - كامبل والتي جرت بالقاهرة في الفترة ما بين السادس إلى الثامن والعشرين من مايو ١٩٤٨.

ولعل أبرز معالم ذلك الضغط الضجة التي افتعلناها في إحدى أمسيات تلك الفترة بنادي اتحاد خريجي الجامعات المصرية. وكانت لجنة النادي قد دعت نفراً من أعضاء وفد السودان لإلقاء كلمات حول الوضع السياسي القائم بالسودان وكان على رأس المدعوين السيدان إبراهيم جبريل وإبراهيم المفتي المحامي... وحشدنا نحن من جانبنا الرفاق المتعاطفين معنا من الطلاب السودانيين بالجامعة والثانويات... وكان حشداً كبيراً. وما أن اعتلى إبراهيم المفتي المنصة حتى بدأنا الهتافات المعادية للوفد السوداني ولرئيسه إسماعيل الأزهري وللحكومة المصرية، وتواصلت اتهاماتنا لهم بخيانة قضية مصر والسودان... وساد الهرج والمرج وانتقلنا بالهتافات إلى خارج الدار وتسللنا إلى الشوارع القريبة والتي تمثل قلب قاهرة الليل حيث المقاهي

«والبارات» ومنها شارع عماد الدين الذي عرف بأنه شارع الفنانين. وهناك اصطدمنا بفرقة من قوى الأمن والبوليس السياسي... وكانت معركة خلدها شيخنا عبد الله عبد الرحمن الأمين الضرير بقصيدة من الوزن الخفيف ذكر من أبطالها الحارث حمد وعز الدين علي عامر وكان كلاهما طالبين بكلية طب القصر العيني... وأذكر أني في أثناء اشتداد وطيس المعركة لمحت أحد المخبرين يمسك بتلابيب زميلنا حسان محمد الأمين فتناولت مقعداً من المقاعد المرصوصة بحرم إحدى المقاهي التي كانت تدور المعركة بالقرب منها وهممت أن أهوي به على أم رأس المخبر الذي استدار فجأة لتقع الضربة العاتية على كتف حسان، ولما اتجهت مرة ثانية نحو المخبر، وأدرك إصراري على الحاق الأذى به أطلق سراح حسان وجرى... وجريت وحسان بدورنا ولكن في الاتجاه المضاد ولم نقف إلا بجوار جامع الكخيا المقابل لنزلنا رقم ٢٥ بشارع إبراهيم باشا بالقرب من ميدان الأوبرا، حيث لزمت الدار وبقيت رهين محبسه أسبوعاً كاملاً لا أبارحه إلا ليلاً لتنفيذ المهام الحزبية الضرورية.

وقد تسبب بقائي طيلة النهار بين جدران غرفتي في أزمة كادت أن تسلمني وصديقي علي محمد إبراهيم، الذي كان يشاركني السكن في الغرفة المستأجرة، إلى البوليس السياسي الذي قصدنا من اعتكافنا تفاديه والبعد عن ناظريه. فقد كان للمؤجرة صاحبة البنسيون، الذي نقيم به، وكانت اغريقية تسمى مدام بوقونا، بنت أخ تتفجر شباباً وتفيض حسناً، تشع نضارة وتفوح عطراً، تنضح فتنة وتذوب رقة. وكانت الفتاة لا ترد طلباً ولا تنأى عن خطيئة ولا تأبى معصية، فقد كان هواها يغلب عقلها وشهوتها

تغلب صبرها. . . وكنا مثلها طيشاً ونزقاً وكان لها صاحب من أبناء جلدتها ما أن يحضر لزيارتها حتى يخلو بها، فيتناجيان كشأن المراهقين، ويعبثان بلا حدود ودون انضباط، ويفعلان كما تفعل القطاط في شهر شباط، كما يقول إخواننا الشوام. ولعله قد لمس بعض الصدود من جانبها أو على الأصح لاحظ بعض الفتور في الفترة التي لازمنا فيها الدار. وكانت الفتاة قبلها، تُقبل عليه متأججة مستعرة كاللهب، ولا تشبع منه كما لا تشبع النار من الحطب. . . ولعب الفأر في عبه كما يقول المثل وأكلت الغيرة قلبه فلجأ إلى عمة الفتاة يوغر علينا صدرها حتى بلغ بها الأمر أن تطلب منا مغادرة النزل فوراً وإلا فضحت أمرنا لدى البوليس السياسي حيث كانت تعلم طرفاً من قصص نشاطنا السياسي إذ كنا قبلها قد وثقنا بها بعد أن حدثتنا عن سالف نضالها طيلة سني الحرب العالمية الثانية وكيف أنها كانت تسهم في نشاط حلقات الشيوعيين اليونانيين المقيمين بمصر والذين كانوا يجمعون التبرعات ويقدمون المساعدات إلى الجبهة المعادية للفاشية التي كانت تحارب الطليان والألمان إبان احتلالهم لليونان، والتي كان يتزعمها الشيوعيون تحت قيادة زخاريادس وبعده الرفيق ماركوس. . . ولم يكن ثمة سبيل لإثنائها عن قرارها بطردنا والذي كان حاسماً فخرجنا على عجل تلاحقنا صورة ابنة أخيها التي كانت كالحلم لاح لعين الساهر أو كالطيف تهادى في خيال عابر.

ولم يقتصر نشاطنا بمصر ضد الجمعية التشريعية على مجرد تتبع تحركات وفد السودان ومحاولة شل تردده وزحزحته عن مواقفه التي كنا نصفها بأنها قمة في التزلف والخضوع لإرادة باشوات مصر وحكامها، فقد بعثنا بالوفود الطلابية إلى حيث تجمعات الطلبة

السودانيين بالثانويات المصرية، كما كُلف بعضنا بالعودة إلى الخرطوم للمساهمة في النشاط المعادي للجمعية الذي تصاعد بعد التاسع عشر من يونيو ١٩٤٨ عندما أصدر الحاكم العام قانون المجلس التنفيذي والجمعية التشريعية، واطّرد في الأسابيع القليلة التي سبقت افتتاح أولى جلساتها في ديسمبر ١٩٤٨.

وقد كنت من ضمن أولئك الذي عادوا للخرطوم واشتركت في المظاهرات التي كانت تجوب شوارع العاصمة. ومنها تلك التي تصدى لها البوليس، بعنف ولؤم بالغين، في ميدان عباس بالقرب من مكاتب مطبعة ماكوركوديل حيث البنك الصناعي اليوم.

وأذكر أننا كنا نهتف بالشعارات المقفاة والموزونة والتي تعلمناها حديثاً من مصر، والتي سرعان ما استساغتها الجماهير وصارت ترددها في حماس ويسر.. وكان المخلفون من المثقفين الذين ارتضوا أن يكونوا من المتفرجين يسخرون منها ويتهكمون، وبشعاراتنا يستأهزون ويتندرون، تماماً، كسفهاء مكه الذين كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين. ولكن ذلك لم يفت من عضد الشبان الصامدين الذين ظلوا يحملون الراية غير عابئين بالمعوقات التي كان يبثها في مواطىء أقدامهم المتخاذلون والعابثون.

- ٣٠ -

وكان على رأس أولئك الفتية الصامدين، من الشيوعيين، عوض عبد الرازق الذي آلت إليه القيادة الفعلية للحركة الشيوعية داخل البلاد، بعد أن طلّق الدراسة الجامعية بمصر إثر طرده من بيت السودان وعقب حرمانه من امتيازات بعثة وزارة المعارف المصرية التي كانت تعرف ببعثة السنهوري باشا. وقد كان عوض، بحق، قائد شباب العاصمة في المعركة ضد الجمعية التشريعية.

ولعل أمجد أيامه أو لياليه تلك التي تزعم فيها الاجتماع السياسي الذي دعا له مؤتمر الشباب مساء الجمعة الثامن عشر من ديسمبر ١٩٤٨ بنادي الخريجين بأم درمان والتي تحدث فيها نفر من زعماء الحركة الوطنية على رأسهم يحيى الفضلي. وكان عوض المنظم والمشرف على الحفل كما كان خطيبه المفوه، وقد اعترفت له بذلك بعض الصحف وخاصة جريدة صوت السودان التي قدم محررها محمد أحمد السلمابي وصفاً دقيقاً وصادقاً لأحداث الليلة السياسية. وكان الشباب قد بدأ زحفه صوب النادي منذ أصيل ذلك اليوم حتى ضاقت بهم ساحته بما رحبت واكتظت بهم الشوارع المحيطة به.

وحاولت قوات الأمن والبوليس عبثاً اقتحام النادي لفض الاجتماع واضطرت أخيراً لتطويقه بالمتاريس ولتسليط «خراطيش المياه» من فوق الجدر، إثر تساقط الحجارة عليهم من داخل النادي كالمطر وحدث الصدام بين البوليس وبين الشبان الذين كانوا يزحمون الشوارع. وأسفرت المعركة عن عشرات الجرحى والمصابين من الجانبين وانتهت باعتقال عدد كبير من المعتصمين بالنادي ومن المقاتلين خارجه. وكانت أغلبيتهم من الشيوعيين وعلى رأسهم «الرفيق عوضوف» كما كان يشير إليه الأستاذ السلمابي، ومنهم محجوب محمد عبد الرحمن وعوض برير ومحمد الطاهر أبو حوا، ومن زعماء الأشقاء يحيى الفضلي وعلي حامد وعبد الرحمن حمزه الأستاذ بالمدرسة الأهلية بأم درمان.

وشكلت المحاكم في صبيحة اليوم التالي وصدرت الأحكام على الشيوعيين الثلاثة بالغرامة عشر جنيهات أو شهرين سجناً وعلى زعماء الأشقاء الثلاثة بالغرامة خمس جنيهات أو الحبس لشهر واحد وقد اختار يحيى الفضلي وعبد الرحمن حمزه الحبس على دفع الغرامة.

أما عوض فقد ظل في الحبس مدة أطول قبل تقديمه للمحاكمة مما أثار تساؤل الناس والصحف عن السر في هذه المعاملة القاسية نسبياً.

ولعل تفاهة هذه الأحكام وأمثالها التي كانت تصدر ضد الوطنيين إبان معركتهم ضد المؤسسات الاستعمارية تفضح زيف ادعاءات بعض السياسيين الذين ظلوا ينسبون لأنفسهم تضحيات مزعومة وجهاد مفترى عليه، والذين استغلوا بعد الشقة الزمنية

وحياء البعض وصمتهم ايثاراً للسلامة وخوفاً من الملامة، وصاروا يفترون على التاريخ ويقصون القصص عن المعاناة التي عانوها اعتقالاً وسجناً وتشريداً، وعن المواقف البطولية التي ظهروا بها أمام المحاكم وهم هم الذين كانوا يقولون، دفاعاً عن أنفسهم، إن كلمة الاستعمار تعني التعمير وإنهم ما قصدوا إلا أن يشيروا إلى الجانب الايجابي من أفعاله.

والواقع أنه بعد محاكمات الأبطال العسكريين، قادة ثورة ١٩٢٤، وبعد محاكمات علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين ورفاقهما الأبرار كف الانجليز عن إصدار الأحكام القاسية، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن نصيب السودانيين المناضلين منها لا يصمد للمقارنة مع أحكام السجن والنفي والإعدام التي كانت تصدر على رصفائهم في مصر والهند وفي كثير من المستعمرات الأفريقية.

وبقدر ما أسهم نضال عوض عبد الرازق ضد الجمعية التشريعية وقيادته لمعركة الشباب ليلة نادي الخريجين، في صعود نجمه كمناضل وكقائد بقدر ما أوغرت تلك المواقف صدر عبد الخالق محجوب حيث بدأ الهمس يدور والقصص تحكي عن اتجاهات عوض وانحرافاته الزعامية، وبدأ اللغط والتساؤل عن السر في اهتمام أحمد يوسف هاشم وجريدته بأمر حبسه، وكانت «السودان الجديد» قد نشرت خبراً استنكرت فيه استمرار بقاء عوض بالحبس رهن تقديمه للمحاكمة دون بقية زملائه الذين أطلق سراحهم بعد أن قضوا سويعات قليلة في الحبس هي بقية تلك الليلة وبعد أن صدرت الأحكام الخفيفة بحقهم.

وكان عبد الخالق أسعد الناس بذلك الهمس بل هو الذي كان

يغذيه. وكان قد حضر من مصر بعد أن أصيب بداء الرئة، وارتضى أن يكون موظفاً لدى محمد أحمد عمر الذي كان يشرف على مراسلة بعض وكالات الأنباء الغربية والذي عرف بصداقته الوطيدة لنفر من غلاة الإداريين الانجليز بالسودان وبصلاته مع طائفة من أساطين الاستعمار أمثال مستر إمري وغيره من رجال وزارتي المستعمرات والخارجية بلندن، والذي كان ينادي علناً ويدعو جهراً لانضمام السودان إلى مجموعة دول الكومنولث البريطانية. ثم انتقل عبد الخالق لشركة روثمان للسجاير للعمل موظفاً برئاستها بالخرطوم. وهي الشركة التي كانت الريبة تظلل صلاتها بحكومة جنوب أفريقيا العنصرية، وهذا في الوقت الذي تفرغ فيه عوض للعمل الحزبي الشيوعي، محترفاً ثورياً.

وقد ظلت نار الحملة الظالمة تتوقد ضد عوض داخل التنظيم الشيوعي السوداني وتتخذ أشكالاً شتى، مغلفة تارة، ومعلنة أخرى، إلى أن أدين في أوائل لخمسينات بتهمة «التصفوية» أو العمل لتصفية الحزب الشيوعي. وكانت معركة عبد الخالق ضد عوض هي أول محاولاته للتخلص من كل من يخشى منافسته في زعامة الحزب الشيوعي السوداني وقد فتح انتصاره الحزبي على عوض شهيته لمزيد من عمليات الغدر والانتقام، والتي كان يسميها حملات تطهير الحزب من الانتهازية والأدران. وقد اتبع عوض بمحمد السيد سلام والذي قيل عنه أيضاً أنه ذو اتجاهات زعامية، وهو الذي كان زعيماً بالفعل حيث كان رئيساً لاتحاد العمال وأحد أبرز قادتهم. ثم قفي على أثرهما بقاسم أمين الذي كان أكثر أهلية من عبد الخالق لقيادة حزب يدعي أنه طليعة الطبقة العاملة وفصيلتها المقاتلة، وغيرهما من العمال

أمثال عبد الرحمن عباس.

أما المثقفون فقد كان عبد الخالق لا يأبه لأمرهم كثيراً. ولعل إسرافه في نقدهم وتعاليه عليهم وحرصه على تجهيل كل من لا يستسيغه منهم هو الذي دفع بغالبيتهم، وكانوا كثر، إلى الفرار بجلدهم من الحزب الذي كانوا قد قبلوا طوعاً واختياراً وعن رضا الانضمام إلى عضويته. ولقد بلغت به الجرأة أن يفصل إثني عشر عضواً، كنا منهم، هم نصف أعضاء اللجنة المركزية بقرار اتخذه في اجتماع مغلق دعا له النصف الآخر من قيادة الحزب.

وبالطبع فإن عبد الخالق لم يكن الوحيد بين رصفائه من قادة الأحزاب الشيوعية الذي كان يتصرف في الحزب وكأنما هو حظيرة للغنم أو معطن من معاطن الإبل يمتلكهما. وكان الرجل قد استخفنا كما استخف فرعون قومه، يدعو فنجيب ويأمر فنطيع. فقد كانت قلوبنا غلف وافئدتنا هواء، وقد بلغ بنا الولاء له درجة جعلتنا ندور معه كحمير الرحى على غير هدى. وبلغ بنا الحماس لروسيا التي لا يعصى لها توجيهاً ولا ينقض لها أمراً درجة جعلتنا نجهل حقيقة أهدافها وتصرفاتها التي كان «ظاهرها يغر وباطنها يضر» كوصف العالم الإسلامي الخوارزمي لحال الدنيا.

ولعله من دلائل جهلنا وغفلتنا أننا لم ندرك إلا مؤخراً، أننا قد أكلنا يوم أكل الثور الأبيض الذي كان هو عوض... وكان ذلك بعد عقدين من الزمان مضيا على فصله من الحزب الذي نرجو الله أن يجعل طلاقنا منه ومن كل ما يتعلق به طلاقاً بائناً.

نقول ذلك ولا ننكر مسؤوليتنا ومساهمتنا فيما أصاب عوض من غبن وتجن... وقديماً قال أهلنا الطيبون «التسوي كريت في القرض تلقاه في جلدها».

ولم يقتصر الأثر السلبي البعيد والغير مباشر لنضال الشيوعيين ضد الجمعية التشريعية على تأزيم الموقف بين عبد الخالق محجوب ورفيق دربه عوض عبد الرازق وظهور بوادر أول انقسام كبير بين صفوف الحركة الشيوعية، وإنما تعداه إلى تسويء علاقة الشيوعيين بالمعسكر الوطني الذي كان يتزعمه حزب الأشقاء، إذ لاحقت لعنة الجمعية التشريعية تلك العلاقة حتى كادت أن تصيب منها مقتلاً. فقد تملك الغرور الشيوعيين، وغرهم اتساع نفوذهم الشعبي في المدن وخاصة في العاصمة وعطبرة وظنوا أنهم قادرون على انتزاع قيادة الحركة الشعبية من الأحزاب التقليدية. وبدأوا يسرفون في نقد قادة الأحزاب الاتحادية ويبالغون في تصوير مظاهر التناقضات الثانوية وتكبير حجمها داخل المعسكر الوطني بالدرجة التي جعلوها تطغى على الصراع الرئيسي ضد الاستعمار ومؤسساته.

وتحت ستار شل ذبذبة البرجوازية الوطنية ظلوا يلاحقون كافة تصرفات الزعماء الوطنيين بالنقد حتى ولو كانت خطوات قصيرة أو أهدافاً مرحلية تقتضيها ضرورات النضال كراً وفراً، إنقضاضاً وتراجعاً، وثُوباً أو تقهقراً.

وكان طبيعياً أن يضيق قادة البلاد بتصرفاتنا خاصة حينما تجاوزنا الأمر إلى إثارة الشكوك حول صلابتهم في مقاومة الاستعمار وثباتهم أمام أجهزة ردعه وقمعه. وكان منا من تخصص في ملاحقة مواقف الرئيس أزهري ورجاله اللصيقين به مما أوغر علينا صدر الرجل ولم يشف له غليل إلا من بعد أن صدر القرار بحل الحزب الشيوعي بعد أن ظل لأكثر من عشرين عاماً يكتم غيظه ويتحين الفرصة لرد الصاع صاعين. ولعل الرجل أراد أن ينتقم من تجاوزنا لحدود الأدب يوم أن سلقناه بألسنة من حديد ليلة اتحاد خريجي الجامعات المصرية، أو لعله لم ينس لنا التشهير به ليلة أن دعاه بعض رفاقنا من الطلاب للتحدث في ندوة عقدوها بجامعة الخرطوم وكانوا قد سألوه عن سبب تخلفه عن قيادة مظاهرة صاخبة دعا لها الشيوعيون في أم درمان ليلة الثالث عشر من نوفمبر ١٩٤٨ وكسر فيها ذراع قومندان البوليس واعتدي فيها على مفتش مركز أم درمان الانجليزي واشترك فيها بعض زعماء الشيوعيين أمثال المهندس خضر عمر، الذي ربما يجهل كثيرون، أنه كان هو وصديقه المهندس حسن أبو جبل عضوين باللجنة المركزية للحركة الشيوعية السودانية «حستو».
وكان قد حكم على خضر بسبب تلك المظاهرة بشهرين سجناً وكذلك على محمد عمر بشير (الأستاذ بجامعة الخرطوم الآن) وقضى بحبسه سبعة أيام، وكان رد أزهري بالحرف «انني أقود المظاهرة من الخلف لا من الأمام لأنه إذا ألقي القبض عليّ ماتت الحركة الوطنية»... وقد ظل نفر من الشيوعيين ومن صحفيي حزب الأمة والجبهة الاستقلالية يسخرون من قوله هذا ويتخذونه هزواً حتى بعد تصديه لقيادة مظاهرة طلبة المعهد العلمي بأم

درمان بعد ذلك بأيام قليلة، والتي قضى بحبسه بسببها شهرين قضاهما بسجن كوبر، بل وحتى بعد إعلان الاستقلال الذي كان هو بطله بلا منازع.

وربما كان من أسباب تمادي الحزب الشيوعي في حملته على الأشقاء نزعة هؤلاء للاستحواذ على نتائج نضال الآخرين حيث كانوا ينسبون كل محمدة وطنية وكل فعل مثير ضد الإدارة البريطانية الاستعمارية إلى فعل ذواتهم. ومن أمثلة ذلك زعمهم بأنهم وحدهم دون غيرهم الذين قادوا مظاهرات بورتسودان في منتصف نوفمبر ١٩٤٨ والتي استشهد فيها ستة من المواطنين، وانهم هم الذين كان لهم شرف وسبق الدعوة لليلة شيخ الأندية بأم درمان بعد ذلك بثلاثة أيام وان زعماءها الفعليين كانوا ثلاثة من فرسان حزب الأشقاء هم يحيى الفضلي وأخوه محمود والشاعر حسن طه ورابع لهم هو علي الأزهري شقيق الرئيس الأصغر. وقد نقلت عنهم الصحف المصرية طرفاً من تلك المزاعم، وأضافت أن ليلة نادي الخريجين كانت رد فعل لصدور الحكم ضد إسماعيل الأزهري لقيادته مظاهرة طلاب المعهد العلمي.

ولم يكن للشيوعيين، الذين لم يعرفوا بالتسامح العقلي أو العاطفي، ولم يكن التغاضي عن الصغائر من شيمهم، أن يغفروا تلك الزلة، خاصة بعد أن فندت جريدة السودان الجديد مزاعم الأشقاء وأضافت أن حصيلة علمها أن مؤتمر الشباب هو الذي دعا للاجتماع وقاد المظاهرات التي تلته، وأنه لم يكن الهدف منه الاحتجاج على سجن أحد - تقصد أزهري. وكانت تلك الصحيفة تهتم بأكثر من غيرها ببذر بذور الفتنة داخل معسكر جبهة الكفاح المناوىء للجبهة الاستقلالية حيث كان أحمد يوسف

هاشم رئيس تحريرها من أبرز قادة الجبهة الأخيرة. وسرعان ما تصدى الشيوعيون لافتراءات الأشقاء ودبجوا المنشورات التي نقلت أجوبة يحيى الفضلي وأخيه محمود على أسئلة المحكمة عند مثولهما أمامها. وكان يحيى قد نفى أن يكون له نفوذ بين المجتمعين بالنادي كما نفى محمود أية صلة له بما دار في تلك الليلة داخل النادي أو خارجه وأشار إلى أنه وصديقه حسن طه قبعا باحدى غرف النادي ولم يبرحاها إلا من بعد أن سيطر البوليس على الموقف. . . وقد كان لتنصل محمود الفضلي من مسؤولية ما حدث أثره في صدور الحكم ببراءته واطلاق سراحه وزميله الشاعر حسن طه وكذلك كان الحكم ببراءة علي الأزهري الذي زعم أنه حضر للنادي في صحبة ضيف له.

ولم تكن أندية العاصمة هي وحدها ساحة المشاحنات والمصادمات بين الأشقاء والشيوعيين فقد انتقلت العدوى إلى عطبرة، وبحدة أشد وبعنف أكثر، حيث كانت «الورش» وأماكن العمل الأخرى، تجمع بين الفريقين. وقد ظهرت بوادر الخلاف بينهما إثر النجاحات التي حققها الشيوعيون في انتخابات الدورة الثانية لهيئة شؤون العمال حيث أختير الشفيع أحمد الشيخ مندوباً عن ورشة البرادين ومعه ثلة من رفاقه. وكان قاسم أمين قد أختير في الدورة الأولى نائباً للسكرتير العام للهيئة ودخل معه في اللجنة التنفيذية محجوب علي والشيخ محمد صالح عن المخازن والحاج عبد الرحمن مندوباً عن ورشة العمليات. وقد تأزم الموقف أثناء انتخابات الدورة الثانية «للنقابة» حيث كان الصراع عنيفاً بين جناح الشفيع وجناح علي محمد بشير. وكان الشفيع قد فاز بمقعده وكذلك عدد من رفاقه منهم الحاج عبد الرحمن ومحمد

سليمان حسين، ومحجوب علي وغيرهم.

وكما زعم الاشقاء أن شهداء الجمعية التشريعية ببورتسودان كانوا من أعضاء حزبهم كذلك كان حال الشيوعيين بعطبرة إذ ادعوا أن شهداء مدينتهم الخمسة في أحداث نوفمبر ١٩٤٨ كانوا من الرفاق بينما الصحيح أنهم كانوا ثلاثة. والخمسة هم ثلاثة من العمال قرشي الطيب وعبد الوهاب حسن مالك وحسن أحمد دياب، وموظف وطالب هما على التوالي عبد العزيز حسن وفؤاد محمد سيد أحمد.

وقد قصدت أن أشير إليهم بأسمائهم تقديراً لأفضالهم حيث غابت ذواتهم في طوايا النسيان، ولم يعد ثمة من يذكر أمجادهم حتى أولئك الذين كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، ويدعون انتسابهم إلى فصائلهم السياسية، ويتمسحون بأعتاب تضحياتهم، ويسارعون لالتقاط ثمار الشجرة التي غرسوها بجهدهم وسقوها من دمائهم... فكان مثلهم مثل الجندي المجهول الذي تنكر له قومه ونسوه، فخاطبهم الشاعر بقوله:

يا ويح جنديك المجهول مجندلاً
على الصعيد سليب الثوب عريانا
قد مات دونك لم يمنن يداً
ولم ينل منك عند الموت أكفانا

وظل الشيوعيون ينسبون كل أمجاد عـطبرة لنضـال حزبهم، ولعلهم لا يزالون، رغم ما أصاب الحركة العمالية على أيديهم من ضعف ووهن، ورغم التخريب والدمار الذي جندل حركة اليسار وجعلها تجثو على ركبتيها لا تستطيع وقوفاً ولا فكاكاً من أسر القيود التي كبلتها نتيجة اندفاعهم وسـوء تقديـرهم لمغبّة أفعالهم. فقد زجوا بالعمال في معارك لم يعدوا لها العدة، ولم يحسبوا نتائجها بدقة، فكانت الطامة الكبرى، وكانت الفتنة التي أودت بكل المكاسب التي حققها اليسار واكتنزها لليوم العبوس ولساعة الشدة، والتي ما أبقت ذنوبها لهم وجهاً ولا قبلة.

وقد طاش عقل الرفـاق وادارت رؤوسهم الانتصارات التي حققها عمال السكـة الحديد على مدى السنوات الخمس التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية والتي تزاملت مع فترة بعث ونمو الحركة الشيوعية السودانية وتزامنت مع سني ارتقاء المد الوطني وتمرسه في المعركة ضد الجمعية التشريعية.

وقـد شهد عـام ١٩٤٧ والسنوات الثـلاث التي تلته مـولد وتصاعد نفوذ الحركة النقابية وسط نقابة عمال السكـة الحديد

وانتقال عدواها ونفوذها الذي كان محموداً في البداية، إلى بقية مراكز تجمعات العمال الكبرى.

ولعله من المناسب أن نتعرض هنا بشيء من التفصيل إلى المعارك التي خاضها العمال في عطبرة والتي أصابت الشيوعيين بالدوار وجعلتهم يبالغون في مدى قوتهم الذاتية وفي مقدرتهم على خوض غمار كافة المعارك، ويتوهمون أن الانتصار فيها وبلوغ الغايات، معقود لواؤه بناصيتهم كما الجياد الصافنات.

وأول بوادر تلك الانتصارات نتائج الاستفتاء الذي أجري بين جميع عمال مصلحة السكة حديد حول اقرار مبدأ تأسيس هيئة شؤون العمال وكانت النتيجة القبول الذي كاد أن يكون اجماعياً، ثم كانت المعركة التي خاضتها جماهير العمال في العاشر من يوليو ١٩٤٧ والتي قبض على أثرها على أربعة وستين من قادتهم وكان على رأسهم من الشيوعيين قاسم أمين والحاج عبد الرحمن والتي كان يشرف على تنظيمها سراً شيوعي آخر هو الشفيع أحمد الشيخ. ولعله من الطريف أن نشير إلى أنه بعد أن نطق القاضي بالحكم بإدانة المتهمين وأصدر قراره بتغريم كل منهم خمسين قرشاً همّ بأن يدفع من جيبه الخاص مبلغ الغرامة عن كل المتهمين، وكان الأستاذ محمد إبراهيم النور هو ذلك القاضي، ولكن المرحوم محمد نور الدين وكيل حزب الأشقاء بادر ودفع قيمة الغرامة. وقد تضامن محامو الوحدويين والاستقلاليين في الدفاع عن المتهمين وكان على رأس هيئة الدفاع المحاميان مبارك زروق ومحمد أحمد محجوب الذي حل محله مالك إبراهيم مالك المحامي إثر اعتذار المحجوب عن المواصلة لارتباطه بوفد الجبهة الاستقلالية الذي كان قد كلف بطرح قضية السودان في أروقة

هيئة الأمم المتحدة بليك سكسس.

وفي السادس عشر من مارس ١٩٤٨ دخل عمال السكة الحديد في اضراب مفتوح استمر لثلاثة وثلاثين يوماً مما اضطرت معه الإدارة الاستعمارية إلى تكوين لجنة برئاسة قاضي انجليزي وعضوية آخرين منهم من السودانيين المهندسين إبراهيم أحمد وميرغني حمزه وعضو الغرفة التجارية عبد الحافظ عبد المنعم. ولكن قرار اللجنة جاء مخيباً لتطلعات العمال فسيروا موكباً هادراً حملوا في مقدمته نعشاً رمزياً لقرار الحكومة وأشعلوا فيه النيران أمام مبنى الهيئة وهم يرددون «إلى الجحيم يا قرار». وقد سارعت طوائف الشعب المختلفة في عطبرة وفي القرى المجاورة لها بتقديم المساعدات النقدية والعينية التي تعين العمال على الاستمرار في اضرابهم وكان من بين المواطنين من تبرع بمنزله الذي يسكنه، وأوقف مزارعو الشمالية حصاد سبعة عشر ساقية في قريتي كنور ودار مالي لأستهلاك العمال دون ثمن وبلا مقابل، وتبرعت النسوة بحليهن، وتنازل المؤجرون عن استلام ايجار المنازل التي يقطنها العمال، وأجل التجار مواقيت دفع ديونهم المستحقة لهم في ذمة المضربين.

وقد توج العمال نضالهم باجبارهم الحكومة الاستعمارية على تعديل قانون نقابات العمال الذي كانت قد أصدرته في تلك السنة والذي حل محله قانون المستخدم والشخص المستخدم لسنة ١٩٤٨ الذي كان نتيجة لمداولات واجتماعات مشتركة بين العمال والحكومة.

وواصل عمال السكة الحديد انتصاراتهم وعقدوا في مارس

١٩٤٩ أول مؤتمر عمالي حضره مندوبون من نقابات أخرى وكان ثماره تكوين نواة لاتحاد عام للعمال أطلقوا عليه اسم المؤتمر العمالي وأسندت قيادته ورعايته لنقابة السكة الحديد على أن تكون الخرطوم مقراً لرئاسته. وفي نوفمبر ١٩٥٠ تم تكوين اتحاد نقابات عمال السودان. . . وكان ذلك التاريخ بداية انزلاق الحركة الشيوعية، إذ استعجلت الخطى وأسرفت في تقدير مساحة دائرة نشاطها. . . وكانت سلطات مصلحة المعارف الاستعمارية قد أصدرت قراراً بفصل مائة وتسعة عشر طالباً من مدرسة خورطقت الثانوية فما كان من اتحاد العمال إلا أن يقرر الاضراب ثلاثة أيام تضامناً مع الطلاب. وتأزم الموقف بين العمال والإدارة البريطانية وأصر الحاكم العام على معاقبة العمال إذ رأى في قرار الاضراب اشتطاطاً وخروجاً عن النظم النقابية وطالب السكرتير الإداري البريطاني أن يسحب الاتحاد قرار الاضراب وأن يسير موكباً لسراي الحاكم العام تعبيراً عن أسفهم لتجاوزهم النظم النقابية المتفق عليها. ورفض الاتحاد شروط الإدارة الاستعمارية وأخيراً وبعد تدخل محمود من السيد علي الميرغني تم سحب قرار الاضراب والذي اعتبرته الادارة الاستعمارية تنازلاً ومظهراً للاعتذار وتم اعادة الدراسة بالمدرسة بعد أن كانت قد أوقفت.

كما كان الاتحاد قد قرر الاضراب العام احتجاجاً على قرار الحكومة بتعديل قانون قوة دفاع السودان. ومرة أخرى يضطر اتحاد العمال لسحب قرار الاضراب ولم يستوعب الاتحاد الدرس فقد تورط في يونيو من عام ١٩٥١ في إثارة أفراد قوة الشرطة وحثهم على الاضراب وساندهم بالفعل عند تنفيذهم له. . . وكانت النتيجة فصل عدد من رجال القوة والزج بقادتهم في

السجون وكذلك قضي بحبس رئيس اتحاد العمال محمد السيد سلام وسكرتيره العام الشفيع أحمد الشيخ وكان كلاهما شيوعيين.

وتوالت حماقات اتحاد العمال ودعت قيادته بتوجيه مباشر من عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي إلى اضراب عام من أجل الحريات العامة وكان ذلك في عام ١٩٥٢ وكانت نتيجته فشلاً ذريعاً دفع ثمنه أعضاء لجنة الاتحاد التنفيذية سجناً وتشريداً... ورفض عبد الخالق أي مناقشة داخل الحزب حول أسباب فشل ذلك الاضراب وظل يتهم المعارضين لمغامراته السياسية بأنهم مجرد نقابيين لا يدركون أبعاد النضال السياسي للطبقة العاملة وأهميته، ويستنجد بمؤلفات لينين التي أصدرها في مطلع القرن والتي كان يهاجم فيها الاتجاهات التي كان يصفها بالنزعات الاقتصادية الانتهازية، والتي يقرر فيها أن واجب الحزب الشيوعي هو الارتقاء بنضال العمال من الكفاح الاقتصادي إلى ذروة العمل السياسي الذي يدفع بالطبقة العاملة في النهاية إلى السلطة ويحقق دكتاتورية البروليتاريا.

وكنتيجة لغلو الشيوعيين وتجاوزهم لحدود المعقول في قيادة الحركة العمالية السودانية بدأ العد التنازلي لنفوذهم وابتدأ نجمهم في الأفول وكانت ارهاصات ذلك انتصار عبد الله بشير، الذي عرف بعدائه الشديد للشيوعيين، وفوزه بمنصب السكرتير العام لاتحاد نقابات عمال السودان بعد أن أزاح الشفيع أحمد الشيخ عن المنصب النضالي المرموق.

ولا تتمثل مسالب قيادة عبد الخالق محجوب للحزب الشيوعي في مغامراته السياسية فحسب ولا في الزج بالعمال في معارك لا

تقوي بنيتهم التنظيمية ولا ظروف البلاد السياسية على خوضها وكسبها، وإنما تتمثل أيضاً في اندفاعه في العمل الجماهيري المباشر في الجبهة السياسية على حساب ساحات أخرى للنشاط الشعبي، وفي إهماله لمقتضيات تأمين الحزب وحماية كادره السري وصيانة مقومات بقائه كتنظيم غير قانوني.

- ٣٣ -

ولم تكن مغامرات الحزب الشيوعي السوداني السياسية ظاهرة عارضة ارتبطت بفترتي طفولته ومراهقته، وإنما كانت من صفاته اللصيقة به والتي لازمته طيلة سني حياته التي جاوزت ربع القرن وأدت به في النهاية إلى الإنتحار.

وقد ظل الحزب يدفع بالعمال في معارك لا قبل لهم بها ولا طاقة رغم الخسائر التي لحقت بالحركة النقابية ورغم الدروس الكثيرة التي كان يمكن استخلاصها من فشل الإضرابات العامة التي دعا لها اتحاد العمال أو حرض عليها وساندها. ومنها إضراب الشرطة في يونيو ١٩٥١ وإضراب زيادة الأجور في أغسطس من نفس السنة وإضراب الحريات العامة في أبريل من عام ١٩٥٢ وإضراب السابع والعشرين من أبريل من عام ١٩٥٦ احتجاجاً على موقف الحكومة العدائي من الحركة العمالية، والذي رفضت نقابة السكك الحديد لإشتراك فيه بعد أن كانت قد انسحبت من عضوية اتحاد العمال احتجاجاً على هيمنة الشيوعيين على شؤونه، ورفضاً لسيطرتهم على أجهزة فروعه ورئاسته. . . والقائمة تطول وسنتعرض لها بشيء من التفصيل في المقبل من صفحات دراسة الفترات اللاحقة إن أذن الله وشاء.

ولم يكن النشاط النقابي والسياسي وسط العمال هو المسرح الوحيد الذي يحكي عن قصص مغامرات الحزب الشيوعي وإنما هناك ساحات العمل السياسي العام والتي تبين خطورة تلك المغامرات بأكثر من غيرها. وهناك محاولات الإستيلاء على السلطة عن طريق الإنقلابات العسكرية، وعن طريق التآمر والغدر.

ولعل العامل الذي يكمن وراء الإتجاه للمغامرة والذي يجعل مواقف الحزب السياسية تبدو أقرب ما تكون لردود الفعل منها للنشاط المسؤول والمدرك لعواقب الأمور أن الحزب كان يفقد النظرة الإستراتيجية العامة والثاقبة لدوره في بلد كالسودان، وكان يعوزه التصور الواعي والبعيد المدى لمسار حركة اليسار في بلاد العالم الثالث والإلمام بمواصفاتها واستيعاب تجاربها، وتنقصه أيضاً المعرفة العميقة لأحوال قطر أقرب ما يكون للقارة منه إلى البلد الواحد، بل ويفقد الأصالة التي تمكنه من سبر غور مظاهر الحياة المعقدة في بلد كالسودان. وليس أدل على كل ذلك من غيابه الذي يكاد يكون تاماً ودائماً في غير ساحات العمل السياسي المباشر، إذ لا تكاد تحس له وجوداً في مجالات النشاط الإجتماعي والتعاوني والرياضي والفني والموسيقي، وكذلك حاله في الجبهة الثقافية. . . وكما أن الإنسان لا يحيى بالخبز وحده فإن الوجدان لا يعيش بتعاطي السياسة وحدها.

ويتم غياب الحزب عن هذه المرافق الحيوية رغم الضجة التي صاحبت رحلته الطويلة ورغم إدعاءاته وادعاء مؤسسات الشيوعية الدولية بأنه يقف شامخاً بين أحزاب الشرق العربي وافريقيا، ورغم الفرص المواتية التي يتيحها موقع السودان الإستراتيجي والجغرافي ويوفرها تاريخه وتكوين شعوبه الأنثولوجي.

فالسودان القارة يتميز بموقع جغرافي فريد، حيث تحتل أرضه مساحة في داخل افريقيا تجاور المليون من الأميال المربعة، تمتد من البحر الأحمر شرقاً إلى حدود شاد غرباً، ومن تخوم خط الإستواء جنوباً إلى حدود مصر وليبيا شمالاً، وحيث يتصدر القارة غير باغ ولا عاد، ويقبع وسطها باسطاً ظله الوارف المديد وباسطاً يديه كالمارد ذي البأس الشديد، قُدَّ من صخر وحديد. ويجلس كما الحارس الأمين باسطاً ذراعيه بالوصيد. وحيث يعبر نيله الخالد التليد الفيافي والقفار، والوديان والجبال، والسهول والرمال. يبسط الرزق ويغري بالهجرة والإنتقال، وييسر التمازج والإتصال بين الأصول الحامية، الزنجية والنوبية بعضها البعض، وفيما بينها وبين الساميين والعرب.

والسودان خير مثال بين الأمم لوحدة التنوع والتعدد فقد أهّله موقعه المتميز ونيله المتعدد المنبع والروافد لأن يكون محل التقاء الحضارات الفرعونية والزنجية والمسيحية والإسلامية ولأن يكون تجسيداً حياً لحصيلة التفاعل بين الزنج والعرب ومثالاً ملموساً للتكامل الاقتصادي والثقافي بين أقاليم جنوب الصحراء وشمال خط الإستواء.

ولكن رغم وضوح كل هذه الإيجابيات والمميزات بل والمشهيات التي حبا بها الله بلادنا لم نتنبه لها ولم نقدم عنها دراسات تثري وتفيد، مما جعل البعض يتساءل عن مكانة الفكر الماركسي السوداني في المكتبة العربية والافريقية. ولو أننا كنا قد قمنا بتسجيل نشاط شعوب السودان وقبائله المتعددة وعاداتهم أو على الأقل واصلنا ما انقطع من رسائل ومدونات الإداريين الإنجليز لحمد الناس لنا ذلك ولكان خيراً وأبقى. ولكننا اكتفينا

بترديد الشعارات والكلام المرسل والمبهم عن الثقافة البروليتارية وحصرنا أنفسنا في الدفاع عن أفكار وتحليلات الرفاق السوفيت وتابعيهم وفي التسليم باستنتاجاتهم الجاهزة والمجففة وبذلك دخلنا في زمرة الشيوعيين الذين حذر منهم لينين وقال عنهم: «أنهم يستحقون الرثاء».

وليتنا ندرك مدى الخسائر التي ألحقناها بتراثنا الثقافي والحضاري والفرص التي فقدناها بعدم تسجيلنا لأحاديث الرواة من أجدادنا وكبرائنا؛ فنتدارك الأمر قبل أن تقضي حضارة الغرب الوافدة والزاحفة على ما بقي لنا من تراث، وقبل أن يتوسد الثرى الباقون من حكمائنا الذين قال عنهم «هامباته با» «كلما توفي عجوز افريقي كانت وفاته احتراق مكتبة»... و«هامباته با» هذا مثقف من مالي الشقيقة وصفه روجيه قارودي في كتابه القيم عن حوار الحضارات بأنه حكيم من حكماء افريقيا.

والحق أنك لن تجد دراسة ناضجة أو متكاملة عن الحياة في السودان أو أي من مرافقها مدخلها الفكر الماركسي. ولا تكاد تجد حتى ترجمة تُعرِّف بأصول الماركسية وينابيعها الثلاثة التي هي الفلسفة الألمانية والإشتراكية الفرنسية والإقتصاد السياسي الإنجليزي.

وحتى في مجال النشاط السياسي الذي كاد أن يبلغ نشاط الحزب الشيوعي لن تجد إنتاجاً يثري الفكر أو تلخيصاً مفيداً ومقنعاً لتجربته الطويلة، وكل الذي يتوفر شتات من أفكار فطيرة ومكررة تحتويها التقارير السياسية والتنظيمية التي كان يلقيها الأمين

العام للحزب في جلسات اللجنة المركزية المقفولة أو أمام اجتماعاتها الموسعة أو في جلسات مؤتمرات الحزب التي لم تتعد الأربع. ولن تجد في تلك التقارير التي يتعذر الحصول عليها غير مقدمات تطول ولا تقصر عن انقسام العالم إلى معسكرين وإلى دور الاتحاد السوفيتي العظيم، وغير كلام سطحي وممل عن حركة السلم العالمية وتعاظم قواها، وعن انتقادات عنيفة لأحزاب البلاد السياسية، ثم الإشادة التقليدية بسياسة الحزب وبعد نظره وصحة خطه السياسي.

ولعل أكبر دليل على إفلاس الحزب الشيوعي السوداني السياسي والفكري أنه لم يقدم أية مبادرات أو جهد لإزالة الخلافات القومية بين مناطق السودان اللهم إلا إعلان سياسي يعترف للجنوب بحقه في الحكم الذاتي، كان هو نواة إعلان قرار التاسع من يونيو ١٩٦٩.

وكان عبد الخالق محجوب يكرر القول دائماً أن المشاكل بين القوميات السودانية إنما هي انعكاس للخلافات الطبقية التي تسود المجتمع وأنه بمجرد أن تتحقق دكتاتورية البروليتاريا عن طريق استيلاء الحزب الشيوعي على الحكم ستزول تلك الخلافات، وربما كان قد فات عليه أن يطلع على قول نبي الماركسية لينين «إن الخلافات القومية تدوم بأكثر من الخلافات الطبقية» ولعل في قناعة عبد الخالق الخاطئة هذه نجد التفسير لعجز الحزب الشهيوعي السوداني عن خلق وعي وطني يتسامى عن الطائفية والقبلية ويعلو عن الخلافات السياسية التي يرجع أصل بعضها إلى عوامل تاريخية وإلى منازعات إقليمية.

ولا يقف مظهر إفلاس الحزب في الجبهة الثقافية عند قلة المعروض والمخزون من بضاعته الفكرية والأدبية بل يتعدى الأمر إلى محاولاته المتواصلة لتسفيه إنتاج الآخرين دون استثناء حتى للواعدين من أعضائه، فبدل أن يأخذ الحزب بأيديهم ويسير معهم في الطريق الذي ينمي المواهب ويثير الهمم ويصقل التجربة كانت العراقيل توضع في مواطىء أقدامهم. وما موقف قيادة الحزب من شاعر ملهم صادق كصلاح أحمد إبراهيم بخافٍ على أحد وما أمر الجدر التي حوصر من ورائها عقل شيبون بخافٍ أيضاً.

وكما أسلفنا القول فإن اندفاع الحزب الشيوعي السوداني في العمل الجماهيري السياسي المباشر لم يكن على حساب نشاطه في مجالات شعبية هامة أخرى وحسب وإنما كان أيضاً على حساب صيانة وتحصين مقومات بقائه كحزب غير قانوني. وعلى رأس المهام في هذا المجال تأمين وضع كادره السري، وبالطبع فإن الإهمال في تأمين الحزب لا يبدو واضحاً إلا عند تعرضه للضربات والأزمات. وقد أظهرت ظروف الشدة خلال سني حكم الفريق عبود الخلل في هذا المنحى من نشاطنا فقد تمكنت أجهزة الأمن من القبض على عدد كبير من كادرنا السري وكنا قد دفعنا بكامل العضوية لمنازلة النظام الحاكم، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إنه لم يبق منا أحد لم يدخل السجون أو المعتقلات في السنوات العجاف الست.

وأخطر من كل ذلك ما حدث لقيادة الحزب في الثاني والعشرين من يوليو ١٩٧١ إثر إجهاض محاولتهم للبقاء في السلطة، فقد ثبت أن أمين عام الحزب عبد الخالق محجوب ظل

يبحث عن مأوى يلوذ به بعد أن تبين له في أصيل ذلك اليوم سوء عاقبة عملية الغدر وثبت أيضاً أنه اضطر في النهـاية إلى الإتصال بأحد الرفاق الذين لم تكن صـلابتهم فوق الشبهـات والذي سارع بإبلاغ السلطات عن الصيد السمين. وأن المرحوم الرائد هاشم العطا قائد الإنقلاب لم يجد ملجأ يلجأ إليه بعد أن تم سحق العملية الإنقلابية. ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يتدثر بجلبـاب يخفي به زيه العسكري، ولكن ذلك لم يسعفه حيث تم القبض عليه بحالته تلك وبالقرب من مقابر فاروق بالخرطوم، وكذلك كان حال القائـد العسكري الثـاني للعملية المرحوم العقيد عبد المنعم محمد أحمد، فقد ألقي القبض عليه في ظروف مماثلة. وكذلك كان حال المرحوم الشفيع أحمد الشيـخ الذي لم يجد مفراً من تسليم نفسه إلى السلطات.

يحدث كل ذلك لقيادة حزب ظل على مدى ربع قرن يحذر كل عضويته وفي كل مستوياتها وفي كل اجتماع من مغبة إهمال تأمين كل عملياته. بل ويترأس أجندة كل اجتماع لكافة مسـتويات الحـزب من الخلية الـدنيا إلى المكتب السيـاسي، بند «تـأمـين الاجتماع والحزب».

بالرغم من الآثار العميقة الإيجابية والسلبية لملحمة النضال ضد الجمعية التشريعية، وبالرغم من البصمات الغائرة التي تركتها على جدر الحياة السياسية في السودان فليس ثمة تسجيل لأحداثها أو تحليل لمواقف القوى التي خاضتها وليس ثمة دراسة موضوعية لنتائجها المرئية وغير المرئية.

وكنا قد حاولنا، بتوجيه من بعض الرفاق بأم درمان، تجميع ما تيسر من المعلومات عن تلك المؤسسة الإستعمارية حيث لم يكن قد مضى على افتتاحها الرسمي في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٤٨ غير يوم أو يومين من تاريخ مبارحتنا الخرطوم في طريق العودة لمواصلة الدراسة بالقاهرة. وكان الغرض من تجميع المعلومات إصدار عدد خاص عنها من صحيفة «المقاومة» التي كنا نصدرها بمصر كيفما اتفق وكلما راق لنا ذلك توطئة لتهريب نسخ العدد الخاص إلى داخل السودان.

وأذكر أننا فرغنا من تحريره أثناء رحلتنا لمصر التي كانت تستغرق ما يجاور الأربعة أيام. وكان العدد يحتوي على وصف لحفل الإفتتاح الرسمي للجمعية، وعلى سرد لمظاهر مقاومة

الشعب السوداني لها مع الإشادة المبالغ فيها بدور الحركة الشيوعية الطليعي والإساءة البالغة والقدح المسرف والذم المجرح للأعضاء السودانيين الذين تم اختيارهم لرئاستها ولزعامتها وللذين عينوا أعضاء بظهيرها المجلس التنفيذي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء.

وكان السيد محمد صالح الشنقيطي قد اختير لرئاسة الجمعية والأمير ألاي عبدالله بك خليل زعيماً للأغلبية ووزيراً «لمصلحة» الزراعة والأستاذ عبد الرحمن علي طه وزيراً «لمصلحة» المعارف والدكتور علي بدري وزيراً «للمصلحة» الطبية والأستاذ إبراهيم أحمد وزيراً بلا أعباء والمهندس عبد الرحمن عبدون وكيل وزارة «لمصلحة» الري والسيد عبد الماجد أحمد وكيل وزارة لمصلحة الإقتصاد والتجارة، هذا بالإضافة إلى الأعضاء بحكم مناصبهم وفي مقدمتهم السكرتيريين الثلاثة الإداري والمالي والقضائي وهم على التوالي سير جيمس روبرسن ومستر تشن ومستر كمنجز والقائد العام الجنرال هوسلر، كما أضيف إليهم أيضاً مدير مصلحة الإقتصاد والتجارة مستر هيلارد والمستر جيتسكل مدير الشركة الزراعية وشقيق مستر جيتسكل رئيس حزب العمال البريطاني الأسبق الذي تلى مستر اتلي في زعامة الحزب. وكان الحاكم العام قد صرف النظر في اللحظات الأخيرة عن اختيار المهندس ميرغنى حمزة كوزير «لمصلحة» الأشغال رغم كفاءته المشهود بها، ولعل القوم ارتابوا في ولائه للتجربة الجديدة حيث كان من المقربين للسيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية. ولعل الكثيرين يجهلون أن محمد أحمد محجوب، الذي كان أصلاً مهندساً قبل تحوله لدراسة القانون، قد اعتذر عن تولي منصب

الوزير لتلك المصلحة وآثر أن يكون ناطقاً باسم المعارضة داخل الجمعية.

وأذكر أن من ضمن إسرافنا وتطاولنا بل وصفاقتنا وصفنا لأعضاء المجلس التنفيذي بأنهم مرتشون وذلك لأن مرتباتهم قد زيدت بحيث صار مرتب الوزير السنوي ألفاً وثلاثمائة جنيه سوداني ومرتب وكيل الوزارة ألفاً ومائتي جنيه. كما سخرنا من قلة عدد الأصوات التي نالها الأعضاء المنتخبون عن مدينة كبيرة وهامة كأم درمان وأثرنا الشكوك حولها لغرابتها. وكان الفائزون هم السيد عبدالله الفاضل المهدي عن دائرة أم درمان الشمالية والدكتور محمد آدم أدهم عن أم درمان الجنوبية ومحمد أفندي حاج الأمين عن الدائرة الغربية. وكان عدد الأصوات التي نالها السيد عبدالله تقل عن السبعمائة بصوت واحد (٦٩٩) والتي نالها محمد حاج الأمين تقل عن الستمائة بصوت واحد أيضاً (٥٩٩) وكذلك حال عدد أصوات دكتور أدهم الذي كان ينقصه صوت واحد ليكمل الخمسمائة وأربعين صوتاً (٥٣٩).

وكان بعض خبثاء الأشقاء يتهكمون ويشيرون إلى غرابة عدد تلك الأصوات ويقولون أنه لا يشابهها غير أسعار شركة باتا للأحذية التي كانت تقل دائماً عن الجنيه بقرش واحد.

وعن افتتاح الجمعية التشريعية الرسمي شبهنا موكب الحاكم العام بموكب قارون الذي خرج على قومه في زينته «قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم»... فخسفت به وبداره الأرض. وبموكب اللورد اللنبي المندوب السامي بمصر عندما حضر لزيارة السودان في الأربعاء

السادس والعشرين من أبريل ١٩٢٢ حيث حشد الناس بحديقة سراي الحاكم العام لاستقباله قُبُلًا وحُشروا ضحى.

وكان الحاكم العام السير روبرت هاو قد خرج أيضاً في زينته ولكن بعد ستة وعشرين عاماً من زيارة اللنبي وبالتحديد في يوم الخميس الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٤٨ متجهاً نحو مقر الجمعية التشريعية لافتتاحها الذي حدد له ضحى ذلك اليوم وكانت تحيط بسيارته الحمراء «الرولز رويس» ثلة من فرسان حرس السواري... واستقبل استقبال الفاتحين عند مدخل الجمعية... وصفق القوم وقالوا مثل ما قال قوم قارون «إنه لذو حظ عظيم». وكان من بينهم من أسعدته كذبة قالها سلفه الجنرال هدلستون قبل ذلك بسنتين بأن السودان سينال حكمه الذاتي بعد عقدين من الزمان كاملين، أي في عام ١٩٦٦، حيث تبدأ بعدها فترة للتأهيل لا يعلم مداها إلا رب العالمين يعقبها تقرير المصير... وطرب بعض المثقفين وسارعوا بتكوين حزب سياسي تأسيساً على الوعد الكاذب الخاسر اللعين... وذكَّرنا القوم في تعليقنا على الحفل البائر المهين، أن هدلستون هذا الذي صفقوا له من قبل وكادوا لذاته يركعون ومن خشيته يسجدون، إن هو إلا نائب السردار الذي أصدر الأمر بالتصدي لعبد اللطيف ألماظ ورفاقه الميامين. وهو الذي وقع الأمر في الرابع والعشرين من نوفمبر من عام ١٩٢٤ بإخراج «الأورط» المصرية والضباط المصريين من السودان لينفرد الإنجليز بحكمه، وبخيراته يستأثرون.

ولكن لم يكتب لذلك العدد من «المقاومة» أن يرى النور فقد بلغنا إثر وصولنا ميناء الشلال النهري أن ثمة حدثاً رهيباً قد وقع بمصر، فقد حملت الأنباء خبر اغتيال رئيس وزرائها محمود فهمي

النقراشي باشا وذلك عندما همَّ بالدخول في مصعد وزارة الداخلية في العاشرة من صباح الثلاثاء التاسع والعشرين من ديسمبر ١٩٤٨، فقد عاجله طالب بكلية الطب البيطري يرتدي زي ضباط الشرطة بست طلقات من مسدس أودت بحياته على الفور، لتبدأ بعد الإغتيال صفحة رهيبة في تاريخ مصر.

واتضح أن الشاب كان من جماعة الإخوان المسلمين وكان النقراشي باشا قد أصدر بوصفه الحاكم العسكري لمصر قراراً بحل الجماعة وبإغلاق كافة مراكزها وتصفية أموالها، وقد ذكر قاتله أن ثمة أسباباً ثلاثة حملته على فعل فعلته التي فعل، كان أولها اتهامه للنقراشي بأنه «جعل مصر تفقد السودان» وثانيها أنه «سلم فلسطين لليهود» وثالثها أنه «تسبب في نكبة الإخوان المسلمين».

وكان أول رد فعل لسماعنا للخبر المفزع أن تخلصنا من كل ما نحمل من أدب محظور، وورق مسطور من شأنه أن يشير إلى حقيقة هويتنا السياسية، ومنها ذلك العدد الذي كان هو أول جهد صحفي قمنا به.

وخَلَف إبراهيم عبد الهادي باشا النقراشي باشا في رئاسة الوزارة وكان قبلها يشغل منصب رئيس الديوان الملكي وقد عُرف بالشدة والصرامة. وبدأ لتِوه حملة شعواء على جماعة الإخوان المسلمين وواصل الحملة التي كانت مستعرة من قبل ضد الشيوعيين. وقد صمد فتية الإخوان صموداً أذهل الجميع فقد قابلوا بطشه بثبات لا يقدر عليه إلا المؤمن الذي لا يخشى إلا الله والذي لا ينشد إلى الحسنيين.

وما هي إلا أسابيع من تولي عبد الهادي باشا رئاسة الوزارة إلا ورُزأ الإخوان باغتيال مرشدهم المرحوم الشيخ حسن البنا وكان ذلك في منتصف الساعة التاسعة من مساء السبت الثاني عشر من فبراير ١٩٤٩ وكان الرجل قد خرج لتوه من دار الشبان المسلمين، وهي جماعة مستقلة عن جماعة الإخوان المسلمين كان يتزعمها صالح حرب باشا وزير الحربية المصرية على عهد وزارة علي ماهر باشا الأولى. وبمجرد خروجه من الدار استدعى سائق سيارة أجرة وما أن ولج في داخلها وكان بصحبة أحد أصهاره إلا وانهمر عليه الرصاص الذي أودى بحياته بعد منتصف نفس الليلة.

وتأججت نار العداء بين الحكومة والإخوان واضطرم اوارها. وكنتيجة لتصاعد حملات الإنتقام التي قام بها الأخيرون ألزمت سلطات الأمن كل أصحاب الفنادق والبنسيونات أن يلصقوا أو يعلقوا على باب كل غرفة مؤجرة قائمة بأسماء نزلائها. وقد شقينا نحن من جراء ذلك الأمر وأسقط في أيدينا لفترة. ولم يسعفنا إلا مضاعفة الجهد نحن ونفر من الرفاق المصريين بحثاً عن محل للسكن لا تحوم حوله شبهات إيواء الإخوان إذ كانت جهود أجهزة الأمن قد اتجهت نحو البحث عن قادة ما كانوا يطلقون عليه وصف الجهاز الإرهابي وعلى رأسه شاب من الإخوان يدعى مالك كانت الصحف الصباحية والمسائية تنشر صورته امتثالاً لأوامر وزير الداخلية وتشير إليه كأخطر إرهابي.

وبعد كد ولأي مضنيين تيسر لنا السكن بغرفة في بنسيون بحارة «قنطرة الدكة» التي تقع في شارع إبراهيم باشا بالقرب من «بوابة الحديد». وكان البنسيون لا يبعد سوى خطوات قليلة من

دار جمعية الشبان المسلمين التي اغتيل إمامها مرشد الإخـوان المسلمين. وكانت الدار قد أغلقت أيضاً بأمر الحاكم العسكري العام، وكانت ميزة ذلك النزل تكمن في أن جل نـزلائه من الفتيات «الكومبارس» اللاتي يقمن بتمثيل الأدوار الثانوية جداً في الأفلام السينمائيـة. وكنا على يقين بأنه لن يدور بخلد رجال الأمن أن يشـارك فتية الإخوان المسلمين السكن مع أولئك النسوة وفي مثل تلك البؤرة. وقـد كنت وزميلي عـلي محمد إبـراهيم الـرجلين الوحيدين اللذين ارتضيا رفقة الفتيات الكريمات اللاتي لم يخيبن ظننا. فقد حدث أن داهمت البنسيـون إحدى فرق قوة الأمن، وكان قد زارنا في ذلك اليوم رفيق مطلوب القبض عليه كان قد هرب من قبضة البوليس السياسي. وكان قد طاب له أن يقضي ليلته تلك معنا رغم أن القائمة المعلقة في باب الغرفة تشير إلى اسمين اثنين فقط... وجاءت سلامتنا من «الورطة» على يـد إحداهن، جذب حسنها قائد الفرقة، حيث بادرت بالقول بأن بالغرفة «اثنين من البرابرة الغلبانين» وغمزت بعينها وأضافت «الحبة السودة غالية»، ولعل الرجل فهم أن للفتاة مصلحة آثمة في بقائنا فضحك واكتفى بإلقاء نظرة سريعة عابرة وانصرف.

وكانت أيام حكم عبد الهادي باشا أتعس أيام حياتنا بمصر إذ كنا دائمي القلق على مستقبلنا الدراسي خاصة في شهور عهده الأخيرة حيث كنا على وشك الدخول في السنة النهائية لدراستنا الجامعية... ولم نشعر بالاطمئنان إلا من بعد أن أعلنت نتائج الانتخابات العامة في منتصف اكتوبر ١٩٥٠ والتي اكتسحها حزب الوفد الذي كان قد التزم أثناء حملتها بتوفير الحريات العامة واطلاق سراح المعتقلين بل وبإغلاق المعتقلات... وقد أوفى الحزب بعهده الذي قطعه على نفسه وبر بوعده الذي التزم به.

وبدأنا نستعيد آدميتنا بعد أن كنا أقرب للخفافيش منا لدنيا البشر لا تدب الحياة فينا إلا ليلاً. وشيئاً فشيئاً تواصل ظهورنا بالحرم الجامعي ثم جلوسنا بالمدرجات حتى بلغ بنا الأمر الاستماع إلى كافة المحاضرات، تعويضاً عما فات منها وحرصاً على ما هو آت... وبلغت بنا الجرأة جداً جعلنا نستأجر علناً، ومعنا ثلة من الرفاق الأصدقاء منزلاً بضاحية العمرانية لا يبعد كثيراً عن الجامعة... وكانت تلك أسعد أيام حياتنا الدراسية بمصر.

وأطل عام ١٩٥١ وكنا قد قطعنا ما يقارب نصف الشوط في سنة دراستنا النهائية وبات لزاماً علينا أن نضاعف الجهد خاصة

بعد أن حدد للامتحانات النهائية بداية الأسبوع الثالث من مايو. . . وكان قد بقي للجلوس لها شهران تنقصان أياماً قليلة.

قررنا وكنا ثلاثة من الرفاق الأصدقاء الذين يدرسون بالسنين النهائية بكليات الجامعة، الرحيل من العمرانية التي بدأت تزدحم بالطلاب السودانيين الذين جذبهم انخفاض أجور السكن بدورها وكذلك قربها النسبي من الجامعة.

وكان أن استأجرنا حجرتين صغيرتين في حديقة احدى العمارات التي تطل على نيل منيل الروضة، وكانت الحجرتان قد أعدتا أصلاً لسكن خفير العمارة ولحفظ غذاء البط والديوك الرومية التي كانت تعج بها الحديقة.

ولكن الخفير وكان نوبياً من جنوب مصر آثر أن يستفيد من ايجار الغرفتين فاستأذن صاحب العمارة للسماح بمشاركتنا له السكن حيث ادعى أننا من أقاربه وأن مدة اقامتنا رهينة بنهاية الامتحان الذي كان وشيكاً. ولم يعترض المالك طالما أننا لا نسبب ضيقاً لطيوره التي كانت لها فوائد غير مرئية بجانب منفعتها الغذائية له ولأسرته. فقد كانت تدخل عليه البهجة والمسرة صباح كل يوم ليس بجمالها وزينتها وبرواحها وغدوها فحسب، وإنما لأسباب أخرى منها أن الديوك تشبهه شكلاً ومشية وخيلاء، والبط يثير شجونه وكوامن نفسه إذ يذكِّره بشبابه الذي ولىَّ. فقد حبا الله ذلك الطير، الذي يشبه جهازه التناسلي مزجاً فريداً من أجهزة الرجال والكلاب والتيوس، بطاقة جنسية فائقة وبشبق دائم ونشاط عارم وهو لا يبدأ يومه إلا بالجمّاع الذي يقبل عليه بحماس دافع تدل عليه حالة الانهاك التي تصيب الذكر بعد

الفراغ من المهمة التي يجسده عليها البيك التركي صاحب العمارة حيث لا بد أن يقع الفحل بعد أن ينزل من ظهر الأنثى التي لا تأبه لما يعتريه ولا تلتفت إليه. ويذهب البك صاحب العمارة هو لحاله أيضاً ولكن بعد أن يلعن النساء اللآئي هن كرصيفاتهن من البط يرهقن الرجال ولا يأبهن لأمرهم بعد أن يقضين منهم وطراً.

وتتابعت الأيام، وكان حرصنا على النجاح كبيراً إذ كنا، نمني النفس بحياة مقبلة هانئة سعيدة مدخلها مهنة المحاماة بوضعها الاجتماعي المرموق وبدخلها الذي يسيل له اللعاب.

وبجانب المواظبة على مذاكرة الدروس والمثابرة حرصنا على الابتعاد عن أعين أجهزة الأمن حيث جرت عادتهم على اعتقالنا اعتقالاً تحفظياً قبل عدة أيام أو أسابيع من ذكرى أحداث سياسية معينة منها ذكرى أول مايو الذي كنا نهتم به اهتماماً خاصاً بوصفه عيد الطبقة التي يؤلهها الشيوعيون لفظاً ويكيلون لها الثناء قولاً ويستغلونها فعلاً... وقد كنا مثل بقية الرفاق بالجهالة ننعم.

وأطل علينا الرابع والعشرين من أبريل ١٩٥١ وكان مثل بقية اخوانه الذين سبقوه من أيام الربيع بمصر دافئاً وصحواً. ورغم التزامنا الحيطة والحذر فقد غلبت علينا شقوتنا في ذلك اليوم إذ دعونا بعض الأصدقاء والزملاء السودانيين لتناول «الملوخية الملوكية» بدارنا العامرة توطئة للذهاب سوياً لتشجيع إحدى فرق كرة القدم السودانية ولعله «تيم الموردة» والذي كان في زيارة لمصر لمنازلة فريق الترسانة المصري الذي كان يضم ثلاثة من «عتاولة» الكرة السودانية هم النور بله وحمدتو وعبد الخير.

ولعل الذي أذهب عنا الحذر، ومهد لنفاذ القدر، الظن بأننا

قد أفلحنا في مداراة رجال البوليس وخداعهم إذ لم يكن قد بقي على احتفالات عيد أول مايو غير ستة أيام فقط ولم نتشرف بعد بزيارة فرسان الليل من أتباع الصاغ حلاوه وأعوان اليوزباشي المنياوي. وكان هذان الضابطان قد تخصصا في مداهمة بيوت السودان وفي مراقبة نشاط الشيوعيين السودانيين.

ولكن ما أن فرغنا من تناول الطعام حتى داهمنا طوفان من رجال الأمن بقيادة اليوزباشي المنياوي كما داهم الطوفان أخ لنا من قبل كان ظنه أن الجبل يعصمه من الماء كما كان ظننا أن إقامتنا بين ظهراني الديوك الرومية والبط ستعصمنا من زبانية الأمن وتصرف عنا أعين رجاله... ولكن لا عاصم من أمر الله فقد كنا نحن وابن نوح نعمل عملاً غير صالح.

وطوقت قوات الأمن المنطقة وأحاطت بالحديقة وبعثرت ما فيها حتى بعض أرضها لم تسلم من الحفر بحثاً عن المحظورات الشيوعية... وكانت حصيلتهم بالفعل كبيرة. فقد كانت هناك اطارات عربات قديمة ملأنا بطونها وأجوافها حتى الثمالة بالمنشورات بعد أن أحكمنا سدادها وأجرينا عليها لمسات ورتوش خدعة للناظرين... ولكن فات علينا أن المنياوي رجل متمرس وأن باعه طويل وأن له عينين كعيني صقر الجديان.

وزج بنا في رتل من السيارات وكان عددنا كبيراً إذ بجانبنا وضيوفنا الكرام كان هناك نفر من الطلاب السودانيين يسكنون بالقرب من نزلنا أصابهم ما أصابنا ثم كان هناك غيرهم في طريقهم إلى مشاهدة المباراة وكانوا قد عبروا لتوهم النهر بالمركب الشراعي الذي يربط فم الخليج بمنيل الروضة وقد استوقفهم

البوليس إذ كان الظن أنهم قادمون لزيارتنا فقد كانت العمارة التي نسكن في حرمها تطل على المرسى الذي منه تبدأ المراكب الشراعية مجراها، غدوها ورواحها.

وفتحت أبواب سجن مصر وقال لنا خزنتها كما قال فرعون لموسى ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنيناً وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين... وقد كنا بالفعل ولا نزال كافرين بأنعم الملك وباشواته وسدنة عهده وشاكرين أفضال مصر وشعبها.

وطلعت الصحف المسائية وتلتها صحف الصباح تحمل خبر اكتشاف أكبر وكر شيوعي في تاريخ البلاد واعتقال قادة الحركة الشيوعية من السودانيين. وعربدت صحف أولاد أمين ونسجت القصص الخيالية عن الكيفية التي تم بها القبض علينا وعن مراقبة البوليس لنشاطنا...

وتوالت أيامنا بالسجن وأخذونا بعد انقضاء اليوم السابع إلى المحكمة ومثلنا أمام قاضي المعارضة الذي كان عليه أن يقرر هل يستمر حبسنا أو يطلق سراحنا بالكفالة والضمان لحين الفصل في موضوع الدعوى. وترافع المحامون وأطلق سراح بعضنا. وبعدها بأسبوع آخر مثلنا أمام قاضٍ آخر وأفرج عن آخرين وتكررت القصة مرة ثالثة وبقيت قلة منا. وكان ممثل النيابة والاتهام يركز علينا تركيزاً شديداً ورجعنا إلى السجن وانقضى الأسبوع وبقي على الامتحان النهائي بضعة أيام وكان واضحاً ألا أمل في الإفراج عنا وتوجهنا إلى المحكمة وهمس في أذني قرين حرص ألا يسمعه الآخرون وقال إنك لمن المصدقين إننا لخارجون من هذا السجن

اللعين. . . وقررت أمراً وطلبت من الرفاق رفض فك القيود التي كانت على أيادينا وأن نمثل أمام القاضي ونحن مكبلون بها وطلبت من رئيس هيئة الدفاع وكان الأخ الكريم المغفور له يوسف حلمي المحامي أن يترك لي أمر المرافعة عن نفسي وعن بقية زملائي. وكانت دهشته عظيمة واعتراضه شديداً حيث إنه وزملاءه الذين تطوعوا للدفاع عنا أقدر بداهة مني أنا الذي لما أزل طالباً. وقد أوجس بعض الرفاق خيفة ولكن أمام اصراري قبلوا مكرهين.

ومثلنا أمام المحكمة وغضب القاضي غضبة مضرية إذ ظن أن إدارة السجن هي التي أصرت على أن نمثل أمامه مكبلين بالحديد ولم تجدِ اعتذارات وكيل النيابة الذي شغلته أوراقه عن ملاحظة القيود عند دخولنا.

وقبل أن يأذن القاضي للمحامين للترافع وتقديم طلبات الافراج، تقدمت أنا وتصديت للمرافعة وقبل أن يتساءل القاضي وكان رجلاً كبيراً في السن بدأت المرافعة وقلت كلاماً أشبه بكلام «الطير في الباقير» لا معنى له ولا مبنى ولا ترابط بين جمله ولا حتى كلماته وكانت الكلمات تخرج من فمي سريعة كالطلقات حتى لا يفهم المستمع ما أقول وحرصت على أن يكون كلامي منظوماً ومسجوعاً وقد استعنت بحصيلتي من الأغاني السودانية التي كانت سائدة في تلك السنين. . . ومن أمثلة الكلام الفارغ الذي كنت أردده قولي: «إننا أيها القاضي قد حضرنا لمصر من فاس الماوراها ناس ومن كسلا حيث القاش وحيث الأحباش والتي هي بعيدة يا ناس».

وكان القاضي يعجب لأمري ويقاطعني «ما هذا وماذا يقول» وأنا مستمر في هذياني وكلامي الفارغ وأخيراً توجه إلى وكيل النيابة مخاطباً: «ألا زلت مصراً على ترداد اتهامات رجال البوليس السياسي عن هؤلاء الهُبل البُله. هل يمكن أن يكون مثل هذا عضواً باللجنة المركزية للحزب الشيوعي كما يدعي الاتهام، أنهم مجرد أولاد سذج ربما غرر بهم بعض الشيوعيين ولكن مثلهم لا يقدم ولا يؤخر. لقد قررت اطلاق سراحهم جميعاً وبالضمان وفوراً».

وتقبلت التهاني وكان على رأس المهنئين المرحوم يوسف حلمي الذي شهد بكفاءتي كمحام وكمهرج أيضاً.

وتوالت السنون وصرت وزيراً وكنت في حضرة الرئيس عبد الناصر وكان حبل الود بيننا متصلاً، وكعادة اخواننا المصريين تساءل عن أية خدمة؟ والتمست أن يأمر المنياوي أو حلاوه وكان كل منهما قد ترقى إلى رتبة اللواء شرطة أن يسلماني بعض الأوراق التي كان البوليس قد تحصل عليها عند تفتيش الحديقة التي كنا نقيم بها وكانت تلك الأوراق عبارة عن ترجمة لكتاب «النجمة الحمراء فوق الصين» لمؤلفه الكاتب الأمريكي ادجارسنو الذي أشرت إليه في صفحات سابقة من هذا السجل... وضحك عبد الناصر وقال مازحاً «كله إلا .كده وإذا ما أصريت على طلبك فسنلقي عليك القبض إذ أن الدعوى الجنائية ضدك لا زالت قائمة حيث أنه قد أطلق سراحك بالضمان فقط وحيث إن الدعوى لم تسقط بعد بالتقادم، ولن يشفع لك أنك قد صرت وزيراً».

ولعل أدب الرجل منعه من أن يسترسل ويضيف وفي غفلة من الزمان.

ولبثت في القاهرة بضعة أسابيع أترقب إعلان نتيجة الامتحانات وأواصل تنفيذ بعض المهام الحزبية التي كانت قد كلفت بانجازها. وكان زميلي علي محمد إبراهيم قد آثر الرجوع إلى الخرطوم فور فراغه من الامتحانات.

وأعلنت النتيجة وكانت خيراً حيث نجحت وصديقي علي. ولم يقف فضل يوم اعلانها على تلقي الخبر السار بالنجاح إذ أضاف إلى مآثره خبراً آخر سعدت به ايما سعادة. فقد تلقيت في ذلك اليوم رسالة من الرفيق كورييل الذي كان قد أبعد من مصر يلح عليّ فيها بمقابلته بروما التي كان قد اتخذها موطناً له وذلك قبل أن يلقي عصا التيسار بباريس ويستقر بها. وكان الرجل شديد الاهتمام بالسودان وعظيم الثقة بأبنائه وكبير الأمل في مستقبل الحركة الشيوعية فيه.

وأشار في رسالته أنه سينظم لي ولمن يرغب من الفتية الأشاوس وكان هذا رأيه في شباب السودان، الاشتراك في مهرجان الشباب العالمي الثاني والذي كان مقرراً عقده ببرلين في يوليو من ذلك العام وكانت أغلبية الطلاب قد غادروا مصر بعد نهاية جلسات

امتحان الدورة الأولى، وبقي الزميل الصديق عامر جمال الدين رئيس لجنة الشؤون القانونية بمجلس الشعب الحالي. واستقر رأينا على السفر إلى ايطاليا حيث كوربيل ومنها إلى المانيا الشرقية أو الديمقراطية، كما يحب بعض أهلها أن يصفوها. وبعد تحايل ومحاورات (وزوغان) من سلطات الأمن ركبنا السفينة (كامبدليو) من الاسكندرية وكنا ثلاثة فرسان، ثالثنا مهندس شاب مصري زينت له (حدتو) أمر الاشتراك في المهرجان وأوصتنا به خيراً. وكان هو الذي دفع لي قيمة التذكرة ذهاباً وقدرها خمسة عشر جنيهاً التزمت بردها له بروما وكان بحوزتي خمس جنيهات مصرية هي كل ما كنت أملك بجانب (البدلة) التي كنت أرتديها وتوابعها الضرورية إذ تركت بقية ملابسي القليلة وحقيبتي (بالبنسيون) الذي كنت أشارك شخصاً آخر السكن في إحدى غرفه المتواضعة وذلك درءاً لشبهات صاحبته بنت هيلين وهي غير مدام بوقونا التي أشرت إليها آنفاً حيث كان لها في ذمتي ثلاث جنيهات ونصف متأخرات ايجار شهر بجانب الاجرة التي كان مفروضاً أن تستحق في أول يوليو. وقد برأت الذمة، ولكن بعد سنين، عندما زرت مصر في منتصف يناير من عام ١٩٦٥ وكنت وقتها وزيراً للزراعة والغابات، وأذكر أني عندما اقتحمت على الاغريقية غرفتها كادت أن تفتك بي ولعنت «سنسفيل» جدودي كما نقول بالسودان. وليت شقية الحال اكتفت بلعنة جدودي وحدهم فقد امتد لسانها الأغلف السليط إلى البرابرة والملونين أمثالي. ولم تهدأ إلا من بعد أن دخل الغرفة رجل الأمن المصري الموكول له أمر حراستي حيث أشار عليها بالتزام قواعد الأدب عند مخاطبة أصحاب المعالي الوزراء الباشوات ورضخت الشمطاء للأمر ولكن

على مضض. ولعلها كانت تتحسر على ذلك البلد التعيس الذي يتولى فيه أمثالي منصباً وزارياً. ولكن ما أن عَلَتْ يدي يدها وأمسكت السفلى برزمة الأوراق من فئة العشر جنيهات إلا وانفرط وجهها وتهللت أساريره وآمنت أنه يمكن أن يكون مثلي وزيراً وفي أحسن البلاد، ومنها اليونان، التي انجبتها هي وأرسطو وأفلاطون وسقراط. . . «والبطن بطرانه والنار تلد الرماد»، وآمن الشرطي المرافق أيضاً أنني بالفعل مثل الباشوات وأكثر. ولا شك عندي أنه كان يستعجل نهاية نوبة حراسته لي ليهرع للعجوز ويشيل «شليته» منها، ومافيش حد أحسن من حد فكلاهما من خلق الله الرزاق ذي القوة المتين.

ورست بنا السفينة في باري بجنوب ايطاليا بعد أن بتنا ثلاث ليال على ظهرها حيث كانت في الأصل ناقلة بضائع والقدر اليسير من غرفها (الكابينز) كان محجوزاً للمقتدرين الذين لم أكن بالطبع أحدهم ولا صديقي عامر أحمد جمال الدين رغم ادعائه أنه عباسي ابن أصول، ورغم أن المغفور له والده كان يلقب بملك الفاصوليا والفول.

وكانت سعادتي فائقة برؤية مدينة باري إذ كنا قد تعودنا في بداية الحرب العالمية الثانية الاستماع إلى اذاعتها وهي تزف لنا بشرى هزائم الحلفاء في شمال افريقيا وفي أوروبا على يدي هتلر وموسليني. ولكن سرعان ما زالت سعادتي بالمدينة فقد كان الطليان بالقطار يعاملوننا في بادىء الأمر باهتمام حيث كان ظنهم أننا زنوج أمريكان وكنت قد خلعت ملابسي وبقيت بالبنطال حيث كان الجو حاراً رطباً.

ولكن ما أن تكشفت لهم حقيقة أمرنا بأننا من أبناء القارة السوداء حتى قلبوا لنا ظهر المجن وباتوا ينادوننا (بسمبو) وأظنها تعني العبد الصغير أو الزنجي الصغير أو حتى القرد الصغير. . . «وكله عند اخواننا الطليان صابون». . . ولا عجب فهم أهل فن وحكمة ومجون.

وقابلنا الرفيق يونس بروما وكان هذا هو الاسم الحزبي أو الحركي لكوريبل وكان قد اختار لنا نزلاً يجاور كنيسة سانت بياترو التي زينتها رسومات ليوناردو دافنشي وروائع مايكل انجلو. وكان كوريبل فناناً أصيلاً يتذوق الشعر ويتعاطى الأدب ويعشق الموسيقى ويحرص على اقتناء اللوحات الجميلة.

وأسرّ لي الرجل أنه قد نظم لي جولة في بلاد أوروبا الشرقية بعد انتهاء مهرجان الشباب لاكتساب مزيد من الخبرة في العمل داخل بعض المنظمات الجماهيرية التابعة للأحزاب الشيوعية مثل تنظيم الشباب الألماني الحر (أف. دي. بوت.) ومنظمة الشبيبة البولندية (زد. أم. ب) وكذلك بعض التنظيمات التي هي في الأصل واجهات للحركة الشيوعية العالمية كاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، واتحاد نقابات العمال العالمي، وكان مقر الأخيرين بفيينا عاصمة النمسا، ومجلس السلام العالمي الذي كانت رئاسته ببراغ قبل أن ينتقل إلى فيينا ومن بعدها لهلسنكي.

وكان ذلك بداية لمرحلة جديدة في مسيرة حياتي السياسية.